

١٩٦٩

مكتبة نوبل

صامويل بيكيت

# ١ سولوي

مكتبة ٦٧٨

مكتبة | 678  
سُر مَنْ قَرَأَ

**مولوي**



رواية

Author: **Samuel Beckett**

اسم المؤلف: صامويل بيكيت

Title: **Molloy**

عنوان الكتاب: مولوي

Translated by: **Muhammad Fatumi**

ترجمة: محمد فطومي

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدي

First Edition: **2018**

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة: دار المدي

Copyright © 1951 By Les Editions de Minuit



للإعلام والثقافة والفنون

*Al-mada for media, culture and arts*

+ 964 (0) 770 2799 999  
+ 964 (0) 770 8080 800  
+ 964 (0) 790 1919 290

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141  
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141  
www.almada-group.com - email: info@almada-group.com

+ 961 706 15017  
+ 961 175 2616  
+ 961 175 2617

بيروت: الحمرا - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول  
- dar@almada-group.com

+ 963 11 232 2276  
+ 963 11 232 2275  
+ 963 11 232 2289

دمشق: شارع كرجية حداد - متفرع من شارع 29 أيار  
- al-madahouse@net.sy  
ص.ب: 8272

*All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.*

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الامتزاز، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

صامويل بيكيت

مكتبة | 678  
سُر مَن قرأ

# مولوي

ترجمة : محمد فطومي



## مقدمة المترجم

أشك في أن القارئ في حاجة إلى تعريف لصامويل بيكيت من قبل المترجم. طبعاً قبل أن أكون مترجماً أنا قارئ وصاحب وجهة نظر في ما أقرأ. والحقيقة أن مقدمات المترجمين كانت دائماً تمثل بالنسبة إليّ نصّاً رتيباً مُكرّراً كطقس لا بدّ منه. تعريف بالكاتب فتلخيص لمضمون الرواية فتعريج على أن الترجمة لم تكن هيّة. عموماً هذا ما يحدث عادة. أو في أفضل الأحوال هي نصّ مدحيّ للرواية في شكل قصيدة نشر مُطوّلة. على كل هذا رأيي الذي يلزمني وحدي. في ما يتعلّق بي لن أعرف بالكاتب لا لأنّه غنيّ عن كل تعريف، بل لاستحالة تطويق رجل كهذا في أسطر يُذكر فيها تاريخ ميلاده ومكانه وأعماله التي اشتهر بها والجوائز التي نالها. صاحبنا حائز على جائزة نوبل للأدب لسنة 1969 وهو صاحب مقولة: «أنت حيّ، لا دواء لذلك»، صُنّف في تيار العبث، بل ثمة من نعته برائد حركة الأدب العبثي على الإطلاق، لكن لنفتح قوساً ولنُصغ إلى صوت الفنّ الذي يسكننا، أليس العبث في نهاية الأمر هو إنكار جذية الحياة والوجود برمته بوصفه حياة تسير نحو نهايتها بوعي؟ كيف إذن لا يخطر للمتأمل أن أدباء العبث هم الأكثر جذية في عملهم. وصامويل بيكيت هنا في هذه الرواية المُحيّرة استطاع الجمع بين الذات الإنسانية المتألّمة غير المحايدة وبين الكاتب الذي يتبرأ من شخصيّاته المُعذّبة، بين الشعريّ المتوحّش وبين الفكاهة السوداء، بين المُصاب بالحياة وبين الحكيم الذي يلقن كيفية الوقوف قوياً أمام إكراهات البقاء وعدم جدواه. ستقرؤون رواية مختلفة على جميع المستويات؛ لأنّها

ببساطة بُنيت بالهدم والتفويض، فقد عصف الكاتب الذي أعار قلمه لشخصيتي مولوي وموران بالمتداول والمألوف غير عابئ في الواقع بما قد ينجرّ عن ذلك من سوء فهم أو أحكام نقدية مُتسرّعة، أو حتّى رغبة مُلحّة للقارئ في تصحيح الكثير من العبارات والجمل، ذاك أنّ الكاتب متخفياً خلف شخصيات غريبة الأطوار لم يجدد في اللّغة فحسب، بل نقد جمودها وازدحامها بالصّور الجاهزة إلى حدّ بدا معه واضحاً أنّه يرتقي بالتعبير إلى منزلة المُنجز الوحيد للإنسان. في انسجام مع فلسفته تلك يلوح مولوي الذي لا همّ له سوى سرد القصص ووصف انطباعه ونفسه والعالم الضيق المُحيط به يخوض رحلة بحث عن أمّه وعن ذاته الضائعة، يصبح معها بمرور الوقت الاستمرار في التقدّم هو الغاية والمنشود. مولوي يروي، أو هو مُطالب بذلك كما سيكتشف القارئ، أنّه يتكلّم لغته الخاصّة، يصبغ ما شاء من المعنى على ما شاء من الكلمات والعكس صحيح، إلى درجة أنّي وجدت نفسي أمام ضرورة تبرئة ساحتي من حرّيته المطلقة وأريحيته الفائقة في استعمال اللّغة. إنّ ما يعني مولوي حقّاً هي راحته وقدرته على التقدّم. لا شيء مهمّ غير ذلك، ليس لديه ما هو مُقدّس، لا التزام تجاه أحد أو واجب. ما يعنيه فقط هو الاستمرار في السرد وقطع المسافات. لقد استطاع الماكر بيكيت تصميم شخصيّة مولوي لتكون فترة في حياة القارئ. شخصيّة تنذر الواقعة أو الحدث قرباناً للنصّ. بل في كثير من الأحيان تشكّل الجملة لديه برهاناً على حقيقة الأشياء ليصبح بذلك للجملة مشيئة وسلطة وأسبقية على متنها نفسه. لا أدري إن كان من يتابعني يفهمني، إنّما صراحة لا يمكن الحديث عن مولوي الرّواية أو مولوي الشخصيّة بغير لعتته، فقد كان عليّ الحذر وأنا أنقل إهماله، وحريصاً وأنا أنقل لامبالاته وواثقاً في نقل السّخط الكامن في تردّده وخوفه، وأميناً في نقل فحشه، وجاداً في نقل سخريته القادرة على رسم الابتسامة بل وحتّى الضّحك. وجريئاً وأنا أنقل خوّره الذي أعلم جيّداً أنّه قد يجعلني كمنترجم عرضة لتهمة السّقوط في الرّكاكة. وليعلم القارئ دون دخول في التفاصيل وليطمئنّ فقط إلى أنّ

ما ذكر مقصود. أمّا موران سيّد القسم الثاني من الرواية فلن أعبر أفضل منه وهو يروي جزأه الخاصّ به لو قلتُ إنّه أراحني من مولوي وإنّ رحلة بحثه عن مولوي هي في الواقع رحلة تحوّل إلى مولوي.

أخيراً ومهما كنت وفيّاً لرؤيتي بأنّ الترجمة هي أن تجعل الكاتب كما لو أنّه يكتب نصّه بيده بالعربيّة وحريصاً كلّ الحرص على أن أظهر براعة في تشييد هذا الجسر، فإنّه من الجدير الاعتراف بأنّ مولوي بغرابتها وإحالاتها وكوابيسها الفلسفيّة أمكنها في غفلة منّي أن تثبت بأنّ الإنسان رحلة. رحلة تلف مُعجزته فيها أن يصير حالته في كلّ مرّة.

محمد فطومي

مكتبة  
t.me/t\_pdf



أنا في غرفة أمي. أنا من يعيش فيها الآن. لا أعلم كيف وصلتُ إلى هنا. في سيارة إسعاف ربّما. أنا على يقين بأنّي وصلتُ بواسطة عربة ما. مؤكّد أنّي تلقّيت مساعدة. لم يكن في استطاعتي القيام بذلك وحدي. الرّجل الذي يأتي لزيارتي كلّ أسبوع. لا بدّ أنّه هو الذي ألقاني. يقول لم أفعل. يُسلمني القليل من المال ويرفع الأوراق. الكثير من الأوراق. الكثير حقّاً. نعم هذا ما يحدث. ما زلتُ أعمل كذي قبل تقريباً. المشكلة الوحيدة هي أنّي لم أعد أجيد العمل. لكن يبدو أن لا أهميّة لذلك. أريد فقط التحدّث عن الأشياء التي بقيت لي. أن أودّع العالم وأن أنتهي كليّاً من مسألة الموت. لا يريدون. بلَى إن عددهم كبير على ما يبدو. لكنّ الذي يأتي هو نفسه لا يتغيّر. يقول لي: يمكنك القيام بذلك لاحقاً. حسناً. أترون لم تعد لديّ الرّغبة الكافية. حين يأتي لِجَنِّي الأوراق الجديدة يكون مُحتملاً بأوراق الأسبوع الماضي. مكتوب عليها رموز لا أفهمها. أصلاً أنا لا أعيد قراءتها. عندما لا أكون قد أنجزت شيئاً فإنّه لا يُقدّم لي شيئاً. يعاتبني مع أنّي لا أشتغل طمعاً في المال. لماذا إذن؟ لا أدري. لا أعلم الكثير صراحة. موت أمي مثلاً. هل ماتت قبل مجيئي أم إنّها لم تمت إلّا فيما بعد. أعني هل ماتت ميتة تستوجب دفنها؟ لا أدري. ربّما لم يتمّ دفنها بعد. مهما يكن من أمر فإنّ غرفتها قد آلت إليّ. أنا ما في فراشها وأتحرك داخل قلبها. لقد أخذتُ مكانها. يُفترض بي أنّي أزداد شبهاً بها. لا ينقصني سوى ابن. ربّما يكون لديّ ابن في مكان ما. لا أظنّ. لا بدّ أنّه مُسنّ مثلي تقريباً. أغلب الظنّ أنّها الخادمة. لم يكن حبّاً حقيقياً.

الحبّ الحقيقيّ منحه إلى أخرى. سترون. هأنذا أنسى اسمها. يُهيأ إليّ أحياناً أتّي عرفتُ ابني واعتنيت به. ثمّ أستدرك فأقول، مُستحيل أن أكون قد اهتممتُ بأحد. نسيْتُ أيضاً رسم الكلمات ونصف المفردات. يبدو أن كلّ هذا بلا أهمّية. كان بوّدي لو أنّ الأشياء عكس ذلك. إنّه إنسان طريف هذا الذي يأتي لزيارتي. يبدو أنّه يزورني كلّ يوم أحد. بقية الأيام هو مشغول تماماً. ظمؤه لا ينطفئ أبداً. هو الذي أخبرني بأنّ بدايتي لم تكن موفّقة وأنّ عليّ البحث عن بداية أخرى. أتمنّى حقّاً. لقد بدأتُ من حيث يتعيّن عليّ أن أبدأ. تفهمون عني. كأني أحمق مُسنّ. إليكم بدايتي الخاصّة. سيحفظونها رغم كلّ شيء لو أتّي فهمتُ جيّداً. لقد آذيتُ نفسي. ها هو ذا. لا بل هو. إنّه هو من تسبّب لي في ألم كبير. كانت تلك هي البداية. أنفهمون عني. فيما هي تقريباً النّهاية في الوقت الحاضر. هل أنا بصدد القيام بالأنسب في الوقت الحاضر؟ لا أدري. ليس هذا هو السؤال. إليكم بدايتي الخاصّة. يجب أن تكون لها دلالة ما داموا يحفظونها. ها هي ذي. هذه المرة وأخرى أعتقد ثمّ ينتهي كلّ شيء. وأنتهي من هذا العالم أيضاً. إنّه حدس المرّة قبل الأخيرة. سيُمحى كلّ شيء. لم أعد أمشي. الخرّس سيطر والأصوات خفّت. هكذا يحدث دائماً. حين يقترب المرء من بلوغ الذروة. الرّأس هو الذي لا يعود يتحمّل كما يُقال. سأقاوم هذه المرّة وأخرى ربّما ثمّ لا شيء بعد ذلك. بكثير من المشقّة نصوغ فكرة مماثلة. لأنّها بشكل أو بآخر فكرة. لذلك وجب إيفاء الحذر والانتباه إلى كلّ هذه الرّوايا المُعتمة. قائلين بعسر شديد إنّ الخطأ يكمن فينا. خطأ! إنّه اللفظ الذي استخدموه. لكن أيّ خطأ كان؟ ليس الوداع على كلّ حال. وما السّحر الذي في الأشياء الغامضة التي تحين مع أوّل مرور لها موعد الوداع. التوديع ضروريّ. إنّه الغباء بعينه أن لا تقول وداعاً في الآونة التي حدّدوها. إذا فكّرنا في المحيط وفي النّور الذي كان يُشرق في وقت مضى لا حرج، لكن أبداً لم يعد ذلك ممكناً. كيف تريدون أن يحدث ذلك. بماذا؟ لا أدري. أناس يمرّون أيضاً. أناس يصعب تمييزهم على وجه الدقّة. إنّها أشياء محبّطة.

هكذا ألفتني أرى «أ» و«ب» يمضي كل منهما صوب الآخر ببطء وبلامبالاة واضحة. حصل ذلك على طريق تتسم بعراء مفعج. أقصد دون سياج أو أسوار أو حواشٍ من أي نوع. في واحد من الأرياف حيث الحقول الشاسعة التي تلاحظ فيها أبقار تجتر وأخرى واقفة أو مفترشة قوائمها عند سكون المساء. لعلّي أبالغ قليلاً أو أجمل المشهد، لكن عموماً هي كذلك. تلوك وتبلع ثم إثر راحة وجيزة تستعد لاستقبال دفعة أخرى. وتر في الرقبة يتحرك فيستأنف المضغ من جديد. لكن لعلها مجرد ذكريات. الدرب القاسي الأبيض تبلل بندى المراعي الغضة التي تصعد وتنخفض على هوى التلوج. المدينة لم تكن بعيدة. كانا رجلين. يستحيل أن يخطئ المرء في شأنهما. أحدهما قصير والآخر طويل. في البداية خرجا من المدينة. خرج أحدهما ثم لحق به الآخر. بسبب الإنهاك أو لأنهما تذكراً أمراً ملحاً عادا أدراجهما. الهواء بارد فقد كانا يرتديان معطفيهما. يتشابهان لكن ليس أكثر من شبههما بالآخرين. لم يكن في مقدور أحدهما أن يرى الآخر حتى لو رفع رأسه وجاس بعينه بسبب رحابة المكان وبسبب الهضاب التي جعلت الطريق مُموّجاً. قليلة العمق لكنها كافية. نعم كافية. وجاءت اللحظة التي التقيا فيها عند الخندق نفسه. وفي هذا الخندق حدث بينهما اللقاء أخيراً. أن يكونا على معرفة سابقة ببعض. لا شيء يمكنه أن يتيح لي تأكيد ذلك. على وقع الضجة التي أحدثتها خطواتهما أو بتحذير من بعض الحدس الغامض رفعا رأسيهما وراح كلاهما يرمق الآخر مدة كافية لقطع مسافة خمس عشرة خطوة قبل أن يتوقفا. أحدهما في مواجهة الآخر. أجل. لم يتم لقاء مباشر بينهما لكنهما تبادلوا التحية بالإشارة من مسافة قريبة كما يفعل شخصان يتنزّهان في البادية لا يعرفان بعضهما. دون ما قد يجعل من الأمر حادثة استثنائية. لكن من يدري ربّما كانا يعرفان بعضهما. مهما يكن من أمر، كلاهما الآن يعرف الآخر وسوف يتذكره. أخمن. وسيُسَلّم عليه في أقصى نقطة من أعماق المدينة. سيحولان أبصارهما ناحية البحر. ذاك الذي، بعيداً، من جهة الشرق خلف الحقول ارتفع في السماء الممتعة.

سيخاطبان ببعض العبارات. بعد ذلك كل منهما سيعود من حيث أتى. «أ» في اتجاه المدينة و«ب» نحو المناطق التي لا يعرف عنها الكثير، أو أنه لا يعرف عنها شيئاً مطلقاً. لأنه يسير بخطى مرتبكة مترددة ويتوقف بين الحين والحين لينظر حوله كمثله من يسعى إلى تحديد علامات مرجعية في ذهنه. فربما كان عليه العودة على أعقابهِ يوماً ما. من يدري. الأجمات المخادعة أين ألقى بنفسه مرعوباً والتي لا شك في أنه عرفها من خلال إلقاء نظرة من بعيد عبر نافذة حجرته ربما. أو من أعلى قمة بناية يوماً فاض معه منسوب الحنين لديه حيث لا شيء مميز ليفعله فراح يبحث عن المواساة في العلوّ الشاهق. ودفع فعلاً ثلاث أو ستّ بنسات ليصعد سلماً لولياً لعمارة ينشد السطح. من ذلك المكان لا بدّ أنه أشرف على كلّ شيء. السهل. البحر وبالأذات تلك الأجمات التي لا أحد يسميها جبلاً. والتي تصبح نيلية اللون في بعض المواضع متأثرة بنور المساء ملتصقة الواحدة بجوار الأخرى حتى غيابها عن الأنظار، تشقها الضيعات التي لا نراها بل نتنبأ بوجودها بسبب تدني النغمات ثم بسبب علامات أخرى تستحيل ترجمتها إلى كلمات أو حتى التفكير فيها. لكننا لا نتنبأ بها كلّها حتى من ارتفاع شاهق، وغالباً هناك حيث لا نرى سوى جانب واحد وقمة واحدة يكون في الواقع هناك اثنتان. جناحان وقمتان تفصل بينهما ضيعة. لكنّه يعرف هذه التلال الآن. أي يعرفها بشكل أفضل. وفي حال تأملها مجدداً من بعيد فبعيون أخرى اعتقد. ليس هذا فحسب، بل ما في داخلها أيضاً. تلك المساحة الداخليّة التي لا يمكن مشاهدتها أبداً. العقل والقلب والمغاوير الأخرى أو الأفكار والأحاسيس يتخذن سببهم<sup>(1)</sup>. كلّ ذلك مُرتب على نحو مختلف. يبدو هراماً ويا له من أمر مثير للشفقة أن تراه يمضي وحيداً بعد سنوات عديدة. أيام وليالٍ لا تُحصى بل إنها تُسلم دون عدّ فريسة لإشاعة تُذاع منذ ولادتها وحتى قبل ذلك بكثير حائمة حول السّؤال الأكثر نهماً، كيف؟ كيف؟ تارة بصوت

منخفض كالهمس ومثل: «ماذا عن الشراب» التي ينطق بها نادل النزل تارة أخرى... ثم يأخذ بالانفتاح إلى درجة الاحمرار. كي يرحل وحده في نهاية المطاف متقللاً بين دروب مجهولة في قلب الليل ليس معه سوى عصا. عصا غليظة يتوكأ عليها كي يدفع بنفسه إلى الأمام. أو ليدفع بها الكلاب واللصوص عن طريقه كلما أمكن. نعم لقد حطّ الليل. لكنّ الرّجل بريء. براءته عظيمة. لا يخشى شيئاً. بلى هو يخشى. إنّما لم يكن في حاجة إلى أن يخاف شيئاً بعينه. لا أحد في وسعه إلحاق الأذى به أو على الأقلّ بمقدار ضعيف. لكنّه يجهل ذلك دون شكّ. أنا نفسي كنتُ سأجهله لو لا التفكير. كان يرى نفسه مُهدّداً في جسمه وصوابه. ربّما كان ذلك صحيحاً رغم براءته. تبتاً ما دخل البراءة هنا؟ وما علاقته بجنود المكر الذين لا يُحصى عددهم؟ الأمر ليس بهذا الوضوح. يعتمر مظلة مستدقة حسب ما يُخيّل إليّ. ضُعت. لقد ذكّرني بكلّ ذلك رغم أنّي لم أكن قادراً على أن أشبهه لو حملتُ قبة أو بطيخاً. رأيتُه يبتعد مهموماً يغمره الإحساس بالقلق. قلق لم يكن بالضرورة نابعاً منه. بل لعلّه يشكّل جزءاً منه. من يدري لعلّه قلقي أنا يلفّه هو. لم يُلاحظ وجودي. كنتُ جاثماً فوق المستوى الأكثر علوّاً في الطريق مستنداً على حجر بلوني. رماديّ. أن يكون قد شاهد الحجر فهو احتمال أستبعده. راح ينظر حوله. كنتُ قد لفتُ انتباهه إليه. كأنّي أنقش في ذاكرته طبيعة الطريق. كان في استطاعته رؤية الحجر السّابح في الظلال التي تخفّيتُ بها على طريقة «بلكا»<sup>(2)</sup> أو «سورديلو»<sup>(3)</sup> لا أذكر تماماً. لكنّ رجلاً يغلب الظنّ أنّه أنا لا يمكن أن يُمثّل علامة طريق. لأنّه... حسناً سأشرح. إذا توجّب عليه أن يعود من هنا تحت ظرف قاهر بعد أن يكون قد قضى فترة طويلة مهزوماً أو لأنّه تذكّر شيئاً نسيه أو ليحرق شيئاً، فإنّه سيبحث عن الحجر بعينه لا عن الصّدفة التي جعلت ظلّ الحجر يخفي جسماً متحرّكاً فارّاً من لحم

2- بلكا: بطلّة خياليّة في الثلاثيّة الروائيّة (عند مفترق العالم) لكتابتها فيليب بولمان.

3- سورديلو: راع إيطالي وبطل قومي عاش في القرن الثالث عشر ميلادي، خصّه الشّاعر الفكتوري روبرت برونينج بقصيدة شهيرة.

ينبض بالحياة. لا. مؤكّد أنّه لم يرني للأسباب التي ذكرتها ولأنّه في ذلك  
 المساء كان خاليّ الذّهن من تلك النّاحية. لم يكن اهتمامه منصّباً على  
 الأحياء، بل على كلّ ما لا يُغيّر من مكانه أو الذي حتّى إذا غيّر مكانه  
 فببطء يجعل طفلاً يسخر منه ناهيك عن رجل كبير في السنّ. مهما يكن  
 من أمر أقصد أن يكون قد رأيّني أم لا، سأظلّ أعيد بأنّي رأيته يبتعد. كان  
 في إمكانيّ أنذاك أن أمسك به. نعم أنا. لكن نيتي كانت النّهوض وتعقّبه  
 والانضمام إليه يوماً ربّما كي أتعرف عليه وحتّى تكون وحدتي أقلّ  
 وطأة. لكن رغم اندفاعي نحوه بكلّ روحي كنت بالكاد أراه عند أقصى  
 نقطة يسمح بها حبله المطاطي كما يُقال. ربّما بسبب العتمة دون أن أنسى  
 الأرض طبعاً، تلك التي تنبسط على طيات يختفي خلفها من حين إلى  
 آخر ليعاود الظّهور مرّة أخرى لكن خصوصاً أعتقد بسبب أشياء أخرى  
 تناديني فتتوق إليها روحي وتظلّ مشتّة بينها ذاهلة ومثليّة بالتّناوب من  
 غير أدنى فكرة عمّا يجدر بها أن تفعل. أتحدّث عن الحقول الآخذة في  
 البياض تحت الظّل وعن الحيوانات التي كفت عن التّجوال كي تقتمّص  
 حياة اللّيل وعن البحر الذي لن أقول عنه شيئاً. عن خطّ القمم الذي يزداد  
 حدّة. عن السّماء. تلك التي دون أن أنظر إليها أشعر بارتعاش نجماتها  
 الأولى. عن يدي التي فوق ركبتي وخصوصاً عن المُتجوّل «أ» و«ب». لم  
 أعد أذكر ذلك الذي عاد بهدوء إلى بيته. أجل نحو يدي التي في إمكان  
 ركبتي أن تشعر بارتعاشها والتي لا ترى منها عيناى سوى المعصم  
 وبياضها وظهرها نافر العروق. لكن لستُ هنا كي أتحدّث عن يدي هذه.  
 كلّ شيء في أوانه. لكن أوّد التكلّم عن «أ» أو «ب» الذي يتّجه صوب  
 المدينة التي غادرها للتوّ. لكن في العمق هيئته لا توحى بميزة مدنيّة  
 لافتة. يتنقّل بنوع من الخمول مُختالاً بصورة معيبة أو صائبة تبدو لي  
 مُعبّرة. لكن كلّ هذا لا يثبت شيئاً. لا يعكس شيئاً. ربّما كان صحيحاً أنّه  
 أتى من بعيد، من الجهة الأخرى للجزيرة وأنّه ربّما يقصد المدينة الأولى  
 في حياته أو أنّه يعود إليها بعد غياب طويل. كلب صغير يرافقه،

«بوميرانى»<sup>(4)</sup> على ما أظنّ. لا أعتقد. آنذاك لم أكن متأكّداً. حتّى اليوم لا يمكنني أن أجزم بذلك رغم أنّي أجهدتُ عقلي قليلاً. ربّما لأنّني لم أعد أتبعه. الكلب الصّغير يتبعه بشكل سيّئ كما هو شأن الكلاب البوميرانية عادة. يتوقّف. يحوم حول نفسه طويلاً. يصرف النظر أعني يُعرض تماماً. ثمّ يستأنف السّير من بعيد. انقباض المعدة لدى الكلاب البوميرانية علامة صحّة جيّدة. في لحظة مُعيّنة، مُضمرّة، لو رغبتُم. أنا من جهتي أرغب. يعود السيّد على أعقابهِ. يأخذ الكلب بين ذراعيهِ. يُحرّر السّيجار من بين شفّتيهِ ويدفن وجهه في الفرو البرتقاليّ. كان سيّداً، هذا جليّ. بلى كان بوميرانياً برتقالياً كلّما تعجّبتُ منه ازداد يقيني بالأمر. وحتّى لو سلّمنا بذلك. هل قدّم هذا السيّد من بعيد مكشوف الرّأس بصندل وسيجارة في الفم متبوعاً بكلب بوميرانى؟ ألم يكن يوحي بأنّه آتٍ من المتاريس بعد عشاء جيّد ليتنزّه ويأخذ كلبه في جولة سابحاً في الحلم والفساء كما يفعل الكثير من الحضريّين حين يكون الطّقس جميلاً. لكن ذلك السّيجار ألم يكن في الواقع محرقة أفواه ربّما. وذلك الصّندل المرصّع بالمسامير. الميّض من كثرة الغبار، وهذا الكلب، ما الذي يمنعه من أن يكون كلباً سائباً نلتقطه ونأخذه في الأحضان بدافع الشّفقة أو لأنّنا تسكّعنا طويلاً بمفردنا دون رفيق في هذه الطريق اللّانهائية وهذا الرّمْل والحصى والمُستنقعات والخلنج، وهذه الطّبيعة التي تكشف عن عدالة أخرى. عدالة تقتضي بأن يتّضح زميل سجنٍ كلّما أوغلنا في خوض الحوارات معه. نُقبّله. نحلبه. نرضعه. نتقاطع معه فنقرأ في نظراته الباعثة على الازدراء خشيةً من أن يُحرّم حميميّة العائلة. إلى أن يأتي اليوم الذي لن نتمكّن فيه مُجدّداً في هذا العالم الذي يبدو لك بلا أذرع من الإمساك بكلاب جربٍ بين ذراعيك، تحملها معك المُدّة الكافية لتُحبّها قبل أن ترمي بها. ربّما وصل إلى المُستوى رغم الظّاهر الذي

4- بوميرانى: سلالة كلاب اشتهرت بها منطقة بوميرانيا وهي إحدى مقاطعات روسيا سابقاً في شمال ألمانيا. له وجه حادّ الأنف يشبه الثعلب، أذناه مدبّتان وينحصر لونه تقريباً بين الأبيض والأسود والبرتقالي أحياناً.

يقول العكس. لقد اختفى. الشيء المُدخّن في يده. الرأس فوق الصدر. سأفسّر. لقد حولت ناظري مُبكراً عن تلك الأغراض الآخذة في الزوال. أن أقبض عليها في آخر لحظة. لا أبداً. لم يكن في وسعي. تحديداً من هذا الزاوية قلتُ إنه اختفى. كنتُ أفكر فيه بعينين هائمتين وهو يصغر ويصغر. قلتُ إنّي أفهم نفسي. أعرف أنّ في استطاعتي اللحاق به بما أوتيتُ من تسمّر. لم أكن في حاجة إلى أكثر من الإرادة. إلّا أنّي لم أفعل. ببساطة لأنّه الأمر الذي أرغب فيه أكثر من غيره. أن أنهض وأتوغّل في الطريق وأنطلق مُتعثراً في إثره. وأدوّخه. ليس نّمة ما هو أسهل. حين سيسمع صراخي سيلتفت وسيتظرني. أنا الآن في مواجهته تماماً. في مواجهة الكلب اللاهث بين عكازيّ. خائف قليلاً ولديه شعور بالشفقة ناحيتي. أبعث فيه إحساساً بالقرف نوعاً ما. منظرني لا يُعجب ورائحتي كريهة. ماذا أريد؟ آه ما هذه النّعمة التي أعرفها. المشحونة بالخوف والشفقة والزّعاف. أردتُ رؤية الرجل من قريب. أردتُ معرفة من الذي يدخن. وتأملُ الحذاء. أن أرفع المزيد من العلامات. إنّه طيّب. يقول لي كذا وكذا ويُخبرني بالكثير من الأشياء. من أين جاء. أين يذهب. أصدّقه. أعرف أنّها فرصتي الوحيدة لـ... فرصتي الوحيدة. أصدّق دائماً كلّ ما يُقال لي. لم أرفض سوى مرّات قليلة خلال حياتي الطويلة. أمّا الآن فقد صرتُ أزدرد كلّ شيء بنهم. كلّ ما أحتاج إليه حكايات. قضيتُ فترة طويلة لأعرف ذلك عن نفسي. على أيّ حال ما زلتُ غير متأكّد. وهكذا قرّرتُ التركيز على بعض الأشياء. أشياء أجهلها وتقلقني في الآن نفسه. حتّى إنّ بينها أشياء لم أعان منها. يا لها من لغة. كان في وسعي أيضاً أن أعرف منه مهنته التي يُزاولها. أنا الذي طالما اهتممتُ بالمهن. في الواقع لستُ ممّن يفعلون المُستحيل ليتحدّثوا عن أنفسهم. لاحقاً في لحظة مُعيّنة سأتكلم عن الأبقار وعن السّماء. سترون. إذن أخيراً تركني ورحل. كان مُتعبجلاً. لم يكن مظهره يدلّ على أنّه مُتعبجّل. كان يتنزّه وكنتُ قد لفتُ انتباهه إلى ذلك. لكن بعد ثلاث دقائق من محاورتي إياه صار متعبجلاً. وعليه الإسراع. أصدّقه. ثمّ بعد ذلك صرتُ لا أقول وحيداً. لا

أبدأ. لأنني لستُ من ذاك النوع. لكن كيف سأعبر. لا أدري. عدتُ إلى نفسي. لا ليس هذا فأنا لم أغادر نفسي. حرّ. هو ذا. لا أفهم بالضبط ماذا تعني هذه العبارة لكنني أسمعهم يستخدمونها. حرّ من ماذا؟ من عدم القيام بأي شيء؟ حرّ في المعرفة؟ معرفة ماذا؟ قوانين الوعي ربّما. وعيي بالذات. أو كيف يصعد الماء مثلاً كلّما غصنا في داخله. وأتينا حسناً نفعل عندما نمحو النصوص بدل تحجير الهوامش. أن نصقلها إلى درجة تصبح معها ناعمة وناصعة البياض ويظهر الوجه الحقيقي للحماقة. فائقة الغباء وبلا معنى أو هدف. حسناً أفعل إذن - حسناً نسيّاً على الأقل إذا توقفتُ عن الانزعاج من مرصد مراقبتي. لكن عوض المراقبة انتابني شعور بالضعف إزاء الالتفات بوجوداني نحو الآخر. نحو الرجل ذي العصا. الهمسات مرّة أخرى. جلب الصّمت هو دور الأجسام. أقول في نفسي من يدري لعلّه أراد ببساطة أن يستنشّق الهواء. أن يبدّد ضيقه. ويتمدّد ويخلي عقله بجعل الدّم يتدفّق في القدمين. ليضمن لنفسه ليلة رائقة واستفاقة سعيدة ويوم غدٍ ساحر. هل كان فقط يحمل حقيقة. لكن هذا النّسق وتلك النظرات القلقة وهذا الصّولجان. هل حقاً كانت في انسجام مع الفكرة القائلة بأنّه يقوم بجولة صغيرة. وهذه القبعة إنّها قبعة مدينة. صحيح أنّها عتيقة لكنّها قبعة مدينة من النوع الذي في وسع ريح ضعيفة أن تحملها بعيداً. إلّا إذا كانت مشدودة إلى الدّقة جيّداً بواسطة طوق أو خيط مطّاطي. أنزع قبعتي لأتأملها. رباط حذاء طويل كان دائماً يشدّها إلى عروتي. هو نفسه دائماً مهما تغيّرت الفصول. هذا يعني أنّي ما زلتُ على قيد الحياة. كم هو رائع أن أحيط علماً بذلك. اليد التي امتدّت إلى القبعة ما زالت تمسك بها. أبعدا عني قدر الإمكان وأجعلها ترسم في الفضاء خطوطاً متعرّجة. وأنا أراقبها تدور أرى من خلال شريط الأزرار بطان معطفي يُفْتَح ويُغلق. أفهم الآن لِمَ لا أضع أبداً زهرة في شريط الأزرار رغم أنّه فسيح كفاية ليستقبل باقة. أدخر الأزرار لقبعتي. قبعتي هي التي أوشحها بالزّهور. لكن لا عن قبعتي ولا عن معطفي أودّ التحدّث في الوقت الحاضر. سيكون سابقاً لأوانه. بلا شكّ سأتحديث

عنهما لاحقاً حين سيتعلق الأمر بإنجاز جرد لأموالي وممتلكاتي. هذا إذا  
 لم أفقدهما من هنا حتى ذلك الحين. لكن حتى لو فقدتهما فسيكون لهما  
 مكان مخصص في جرد الممتلكات. إلا أنني لن أفقدهما ما دمتُ في  
 سلام. عكازي أيضاً لن أفقدهما. لكن حتماً سأتخلص منهما يوماً. مؤكد  
 أنني في قمة أو على جانب ربوة خارجة عن المألوف. وإلا كيف أمكنتي  
 أن ألقى ببصري على العديد من الأشياء القريبة والبعيدة. الساكنة  
 والمتحركة. لكن ما الذي جاء بربوة إلى هذا المشهد المموج بالكاد.  
 وأنا. ما الذي جاء بي إليها. هذا ما سنحاول اكتشافه. في النهاية ليس  
 علينا أخذ ذلك مأخذ الجد. إذ يبدو أنها واحدة من النزوات التي تعج بها  
 الطبيعة. لعلّي في القاع أخلط بين المناسبات المختلفة والساعات. نعم  
 في القاع. والقاع أليس هو مسكني. ليس تحديداً نهاية القاع. بل في مكان  
 بين الزبد وبين الطين. «أ» ذات يوم في منطقة ما ثم «ب» ذات يوم في  
 منطقة أخرى ثم ثالثاً، أنا والصخرة، وهكذا بالنسبة إلى بقية العناصر.  
 الأبقار. السماء. البحر. الجبال. يتعذر عليّ التصديق. لا لن أكذب. أنا  
 أصمّ الكذب بسهولة. لم عليه أن لا ينطلي. لتتابع. لتصرف كما لو أنه  
 ينمو من الملل ذاته. لنؤثث. لنؤثث حتى نبلغ السواد الأعظم. الأكيد هو  
 أن الرجل ذا العصا لم يمرّ من هناك في تلك الليلة وإلا لكنتُ سمعته.  
 قليلاً ما أنام والقليل الذي أنامه أنامه في النهار. أوه ليس بصورة آلية  
 مضبوطة. خلال حياتي الهائلة جرّبتُ كل أصناف النوم. لكن الفترة  
 الحالية التي أحاول اكتشافها أنعس خلال النهار. غالباً في الصباح. لا  
 أحد يحدّثني عن القمر لأنّ ليلي يخلو من قمر. وإذا صادف وتكلّمتُ  
 عن النجوم فهو بالتأكيد من غير قصد. في تلك الليلة لم يكن لوقع  
 خطواته الثقيلة المتشكّكة مكان بين جميع الأصوات. ولا لصولجانه  
 الذي يضرب به الأرض بين الحين والحين فيزلزلها. كم هو مذهل أن  
 يكون المرء قد اتخذ قراره بعد فترة من التردّد لا طويلة ولا قصيرة. لا بدّ  
 أنه الأمر الذي يجعل عذاب الموت يتفاقم. لأنني لم أحسم. أي إنني لم  
 أتخذ قراراً حاسماً بناء على انطباعي الأوّل في شأن - مهلاً - في شأن

«ب». فالعربات والشاحنات التي تعبر قبل الفجر محدثة ضجيجاً كالرعد في اتجاه السوق مُحَمَّلة بالفواكه والبيض والزبدة والجبن، ربّما هي التي كانت تُقلِّه منهاكاً جداً أو محبطاً أو حتّى ميّناً. أو لعلّه وصل إلى المدينة متخذاً طريقاً آخر. بعيداً لا يتسنّى لي سماع ما يجري وسط الطريق، أو عبر مسالك تشقّ الحقول واطناً العشب بحذر وهو يقصف التراب الأصمّ تحت قدميه. هكذا أستحضر تلك الليلة البعيدة مُمزّقا بين همسات كياني الحائرة بصورة مُهذّبة وبين الأخباريات كثيرة الاختلاف (أكثر من هذا؟) عن كلّ ما يمكث ويرحل بين شمسين. لا صوت آدميّ ولا مرّة واحدة. لكنّ الأبقار كانت تنادي دون جدوى مُتوسّلة أن تُحلّب كلّما مرّ نزر من المزارعين. لم أر «أ» أو «ب» مُجدداً أبداً. لكنّي سأراهما بالتأكيد. لكن هل سأتعرف إليهما؟ وهل أنا واثق من أنّي لن أشاهدهما في المرّة المُقبلة؟ ثمّ ماذا أعني بأراهما وأراهما مُجدداً؟

لحظة صمت كالتي يدعو إليها قائد الفرقة وهو يضرب على لوحه. يرفع ذراعيه ثمّ يُسمع صوت تحطّم الأقفال. دخان. هراوات. لحم. شعر. المساء. من بعيد. حول شهوة أحد الإخوة. كلّ هذه الخرق أجيد حياكتها لأعطي عاري. أتساءل عمّا يعنيه كلّ هذا. لستُ عند ضرورة القيام بذلك. لكن فيما يتعلّق بشهوة أحد الإخوة سأقول بما أنّي أستيقظ بين الحادية عشرة ومنتصف النهار (أسمع صلوات التبشير الملائكية. بعد قليل سيشرعون في التذكير بالتجسّد) خلّصتُ إلى الذّهاب لرؤية أمّي. حتّى أخلّص إلى الذّهاب لرؤية هذه المرأة كان لا بدّ من أسباب ذات طبيعة استعجالية وهذه الأسباب، بما أنّي لا أعرف ماذا يتوجّب عليّ فعله ولا إلى أين يجب أن أذهب، تعتبر بالنسبة إليّ لعبة أطفال. منفردين - لو أردت أن أملا بها روحي إلى أن تصير كلّ مشاغلي الأخرى مرفوضة من تلقاء نفسها وتأخذني القشعريرة لمجرّد التفكير بأنّي سأمنع من الوصول إليهما. أقصد إلى أمّي. أنهض بالتالي. أسوي عكازي. وأنزل إلى الطريق أين أجد درّاجتي الهوائية (عجبا لم أكن أتوقّع هذا) في المكان

الذي يفترض أنني تركتها فيه. هذا يجعلني أستنتج أنني رغم الشلل الذي يكبلني كنتُ أركب الدراجة بسعادة تامة في تلك الفترة. إليكم كيف كنتُ أندبُ أمري. أربط عكازي إلى القضيب العلوي للهيكل. واحدة من كل جانب. أشد ساقَي المتصلبة (نسيْتُ أيهما فكلاهما متصلتان في الوقت الحاضر) إلى الأمام بينما أدوس بالأخرى. هي دراجة بلا سلسلة بعجلة حرة إن جاز التعبير. دراجتي الحبيبة لن أدعوك بغير دراجتي. لا أدري لماذا. أعيد النظر إليها عن طواعية. سأجد متعة في ذكر تفاصيلها. لديها قرن صغير أو لعلّه خرطوم يعوّض طابع الموضة في أيامكم. تشغيل القرن كان دائماً عملاً ممتعاً. ما يُشبه الإثارة. أذهب أبعد من ذلك فأقول إنه لو كان عليّ صياغة قائمة متوجّين للأشياء التي لم تدلق الكثير من الخراء على رأسي طيلة حياتي اللانهائية فإن استخدام القرن ستكون له مرتبة مُشرّفة. وفي المرات التي كان علينا فيها أن نفرق أنا ودراجتي كنتُ أعمد إلى اقتلاع القرن وحفظه قبالي. كان معي دائماً في مكان ما. وما عدم استخدامي له إلا لأنه أصبح أحرص. حتّى سيارت هذه الأيام ليست مزودة بقرون حسب ما أسمع أو على الأقل هي نادرة. عندما أصادف واحداً في الشارع من خلال نافذة مفتوحة لإحدى السيارات في حالة توقف، عادة أشغل قرني. حريّ بي أن أعيد كتابة كلّ هذا مُصرّفاً الأفعال في الزمن ما قبل الماضي. مُريح هو الحديث عن دراجات هوائية وعن قرون. يا لها من راحة. لسوء الحظّ لست هنا للحديث عن هذا، بل عن تلك التي وهبني الحياة من ثقب دبرها إن لم تخني الذاكرة. بدأ الإزعاج. أضيف إذن فقط بأنني أضطرّ كلّ مئة متر تقريباً إلى أن أريح ساقَي. السليمة والمُعطبة. ليست الساقان فقط. لم أكن أدفع بالبراز. لا ليس تماماً. أظّل ممطياً. القدمان تلامسان الأرض. اليدان على المقود والرأس مرخيّ على الذراع. أنتظر حتّى أشعر بالتحسّن يدبّ في أوصالي. لكن قبل مغادرة تلك المواقع الساحرة. مُعلّقاً بين الجبال والبحر. محمياً جيداً ببعض الرياح ومُشرعاً على كلّ ما يمكن أن يمنحه منتصف النهار في هذا البلد الملعون. بلد العطور والفتور، ألوم

نفسى كيف كتمت الصّرخة المفزعة للخير الذي يجري في الليل وسط القمح وفي البراري خلال الفصل الجيد بخلخله مهّدها. فوق كل ذلك ليس مسموحاً لي أن أعرف متى تبدأ الرحلة العجائبيّة قبل الأخيرة تلك، ذات الشكل الذابل المقيم بين الأشكال الدّائبة، والتي أعلنت بغير شكل المحاكمة آتي بداتها في الأسبوع الثاني أو الثالث لشهر جوان. يعني في الفترة الأكثر حرجاً على ما يُسمّى بنصفَي الكرة الأرضيّة والتي بسبب الشّمس المُستعرة والصفاء القطبيّ الذي يأتي ليتبول فوقنا عند منتصف كلّ ليل. عندها فقط أسمع الخير. أمّي تراني بسرور. يعني تستقبلني عن طواعية لأنّ زمناً طويلاً مرّ عليها وهي لا ترى شيئاً. سأبذل مجهوداً كبيراً لأحافظ على هدوئي وأنا أتكلّم عنها. كنّا طاعنين في السنّ. هي وأنا. لقد أنجبتني في سنّ صغيرة ما جعل منّا زوجاً من مسنين متواطئين بلا جنس أو صلة قرابة. ذوي ذكريات واحدة وأحقاد واحدة وتوقع واحد. لم تكن أبداً تناديني يا ابني. أصلاً لم أكن لأقبل منها ذلك. بل كانت تناديني «دان»، لا أدري لماذا رغم أنّي لا أدعى «دان». «دان» كان اسم والدي. لعلّها كانت تعتقد أنّي والدي. أنا أتخذها أمّاً لي وهي تتخذني أبا لها. أتذكر يا «دان» يوم أنقذنا ذلك الخطّاف. أتذكر يا «دان» يوم دفنت الخاتم. هذه عيّنة من حديثها معي. أذكر، أذكر. أعني أنّي بصورة ما على علم بما ترويه لي. وحتى لو لم أكن قد شاركت شخصياً في تلك الوقائع التي تذكرها. فلا مشكلة. أنا أناديه «ماج» إنّها وليدة فكرة تخامرني بأن الحرف «ج» سيتكفل بإبطال المقطع «ما». في الواقع هو لا يبطله فقط بل يصبق عليه أفضل من أيّ حرف آخر. وفي الوقت نفسه يُتاح لي أن أحقّق حاجة عميقة، وبلا شك غير معلنة وهو أن يكون لي «ما» أي «ماما» والجهر به في العلن. إذ قبل أن ننطق «ماج» نحن بالضرورة ننطق بـ «ما». و«دان» في منطقتي تعني أنّي... المسألة لم تكن مطروحة خلال الفترة التي كنت أعبت فيها بشرجي، أعني مسألة مناداتها «ماج» أو الكونتيّة «كاكا» فقد مضى وقت طويل وهي مُصابة بالطّرش كأصيص. أعتقد أنّها تقضي حاجتها الكبيرة والصّغيرة تحتها. لكنّ نوعاً من التّواضع يجعلنا

نتجنب الخوض في هذا الموضوع خلال حواراتنا. وكتيجة لذلك لا يمكنني الجزم بشيء. فيما عدا ذلك يمكن القول إنها مقادير قليلة لا قيمة لها. فقط ما اجتمع لدى عجوز من روث مبلل بشح شديد مدة يومين أو ثلاثة.

تنبعث من الحجرة رائحة الأمونياك. أوه لا ليس الأمونياك بل الأمونياك. الأمونياك. تعرفني من رائحتي. وجهها المُجعد المشعّر يضيء لأنها سعيدة بكونها اشتمت رائحتي. تستدير بصعوبة. مفاصلها تصدر صوتاً كصرير الرّفوف. ولا تعي ما تقول أغلب الوقت. أحد غيري كان سيُسحب من الإدراك وهو يتابع تلك المناغاة والنقر الذي لا يتوقف خلال فترات غيابها عن الوعي. لم آت لسماعها على أي حال. أدخل معها في اتصال بواسطة طرقات على الجمجمة. طريقة تعني نعم. اثنتان تعني لا. ثلاثة لا أدري ماذا تعني. أربعة نقود. وخمسة الوداع.

تعبت كثيراً كي أدرب هذيانها وسمعتها الخرب على هذه الشّفرة. لكنني نجحت. أن تخلط بين نعم ولا والوداع مثلاً لم يكن يعينني كثيراً. أنا نفسي أخلط بينها. لكن أن تخلط بين الطرقات الأربع وبين أمر آخر فهذا ما يجب تحاشيه بأيّ ثمن. أثناء فترة التدريب، إذن، كنتُ أغرز تحت أنفها أو أحشو ورقة بنكية في فمها. كم كنتُ ساذجاً. إذ يبدو أنها فقدت حسّ المقاسات مُطلقاً منذ زمن. كما فقدت أيضاً القدرة على العدّ أكثر من اثنين. تصوّروا أنّ العدّ من واحد إلى أربعة كان بالنسبة إليها أمراً بعيداً جداً. وعندما نصل إلى النّقرة الرّابعة كانت تظنّ أنها الثانية. تلاشت الأولى والثانية من ذاكرتها كأنهما لم يكونا. لم تشعر بهما. لا أفهم جيداً كيف يمكن لشيء لم نشعر به أن يُمحي من الذاكرة. الغريب أنّ هذا يحدث بصورة مُتكررة. لا بُدّ أنها تظنّني أقول لها لا طيلة الوقت. في حين أنّه أبعد ما يمكن أن يخطر لي. أوحى لي هذا التحليل بتكثيف البحث. أخيراً توصلتُ إلى طريقة أفضل لأقحم في ذهنها فكرة النقود. الطّريقة تتمثل في استبدال النّقرات الأربع من إيهامي بلكمة أو

أكثر (حسب الحاجة) على جمجمتها. هذا تفهمه. على أي حال لم آتِ لطلب المال. آخذ منها طبعاً. هذا يحدث دائماً. لكنني لستُ عاتباً على أُمِّي كثيراً. أعرف أنها كانت على استعداد لفعل أي شيء كي لا أتشكّل في بطنها ما عدا الأمور العظيمة بالتأكيد فهي لم تقم بها. وما فشلها الذريع في مقاطعتي سوى دليل على أنّ القدر يخبئ لي خندقاً لا صلة له أبداً بالرّفاهيّة. لكن النية سليمة وهذا هو الأهم. كلا هذا لا يكفي. من جهة أخرى أعترف لأُمِّي بالجهود التي قامت بها لأجلني. وأعترف لها المرّات التي رجّنتني فيها خلال الأشهر الأولى وكونها لم تدلّني سوى في الفترة الوحيدة الصّالحة في كامل تاريخي الهائل. وأعترف لها بالجميل أيضاً لأنّها لم تُكرّر التجربة، مُتّعِظة ممّا حصل لها معي. أو لمجرّد أنّها وُفّقت في اختيار الآونة التي يجدر التوقّف عندها. وإن خطر لي يوماً أن أبحث لحياتي عن معنى (من يدري) فمن هذه الزاوية سأبدأ النّيش. من جانب هذه العاهرة الوحيدة ومن جانب هذا التّداعي الذي يقرضني يوماً بعد يوم. من منهما أختار؟ قبل العودة إلى الأحداث سأضيف ما يتعلّق بمنتصف النّهار البعيد ذاك الذي جمعتني بهذه المرأة العجوز الطرشاء العمياء القاصرة المجنونة التي تناديني «دان» والتي أناديتها «ماج» والتي معها قمتُ بـ \_\_\_\_\_ لا يمكنني التلقّظ بشيء. أقصد يمكنني قوله لكنني لن أقول. نعم لا شيء أسهل من قوله لأنّ ذلك لن يكون صحيحاً. ماذا يبدو منها؟ دائماً رأس. أحياناً يدان ونادراً ذراعان. دائماً رأس. مغطّى بالشعر والتّجاعيد والقذارة واللّعاب. رأس يُظلم الهواء. طبعاً ليس هذا ما يعينني، أمّا كبداية صغيرة فأعتقد أنّها تنفع. إنّهُ أنا من يستلّ المفتاح من تحت المخدّة ويأخذ الأموال ويعيد المفتاح تحت المخدّة. لكنني لا آتي للمال. أعتقد أنّ هناك امرأة تأتي كلّ أسبوع. فأضع شفتيّ على تلك الإجابة الرّماديّة المُتقلّصة إِيخ! هل كانت تجد متعة في ذلك؟ لا أدري. هذيانها يتوقّف لحظة. ثمّ يُستأنف. لا بدّ أنّها تتساءل عمّا يحدث لها. ربّما هي تقول أيضاً إِيخ. أشتّم رائحة مريّة لا بدّ أنّها الأمعاء وعطور الأزمنة الغابرة التي علقت بها. لستُ أنقدها.

أنا نفسي لا تضوع مني روائح البخور العربي. هل أصف الغرفة؟ لا لن أفعل. سيكون هناك دائماً مُتسع لأقوم بذلك لاحقاً. من يدري لعليّ أفعل عندما أعَدَم كلَّ الحيل ويتراجع ذيلي داخل دُبْري وأتمل من شدة الخجل ولا يعود لي من ملجأ سواها. أمّا الآن ما دنا نعرف وجهتنا فلنذهب إليها. في البداية عادة يكون رائعاً شعورك بأنك تعرف وجهتك حتّى إنّ سعادتك قد تنتزع منك الرغبة في الذهاب. كنتُ أشعر بالحبور أنا الذي نادراً ما أشعر به. إذ ما الذي قد يجلبه لي، خصوصاً مع حركاتي التي أصبح اضطرابها في تزايد مُطرد.

أعياني الليل. أقصد جعلني أضعف. والشمس التي ما انفكت تميل نحو الشرق ستمتني أثناء نومي. كان عليّ أن أضع صخرة بيني وبينها قبل أن أغمض عيني. أخلط بين الشرق والغرب وبين القطبين أيضاً. أقلبها متعمداً. لم أكن في صحتي. صحتي عميق. إنه آنية حساء. ومن النادر أن لا أكون فيه. لهذا أعرج على الأمر. قطعْتُ بعض الأميال دون عقبات إلى أن بلغت أسفل السور. هناك نزلت من الرّبوّة حسب التعليمات. نعم لدخول المدينة والخروج منها تفرض الشرطة على الدّراجين النزول من الرّبوّة وعلى السيّارات أن تسير في السرعة الأولى وعلى العربات الثقيلة أن تسير بالخطوة. الغرض من هذه الوصفة اعتقد أنّه الآتي، معابر الدّخول إلى المدينة والخروج منها بطبيعة الحال دون استثناء ضيقة والرّؤية فيها محجوبة بسبب القباب العملاقة هنا وهناك. قانون جيّد. أنا أنصاع إليه كما ينبغي رغم عناء استخدام العكازين لأنقذم وأدفع الدّراجة في آن. يجب التفكير في حلّ لذلك. حتّى يتسنى لي أن أتخطى هذه المعضلة العويصة، أنا ودراجتي في آن واحد. لكن من بعيد نسبياً سمعتُ أحدهم يناديني. رفعتُ رأسي فوقعت عينيّ على ضابط بوليس. إنها طريقة الكلام الإهليلجية<sup>(5)</sup>. إذ لن يطول الوقت حتّى يتّضح عبر الاستقراء والاستنتاج، لا أدري. أعرف ما كانت تلك الهيئة تحديداً.

5- الإهليلجية: معادلة رياضية شكّلت أساساً في مجال العلوم الحالية.

ماذا تفعل هنا؟ قال. تعودت على هذا السؤال. صرت أفهمه بسرعة. أرتاح قليلاً، قلت. ترتاح، قال. أرتاح، قلت. ثم صرخ، هلاً أجبت عن سؤالتي.

هذا ما يحدث لي عندما تحاصرني الرّجفة. عندما أعتقد أنني أجبت عن الأسئلة التي تطرح عليّ فيما يتضح أنني واهم. لا يمكنني إعادة تركيب الحوار بتفاصيله. انتهى بي المطاف إلى فهم القضية، إنها طريقي في الرّاحة. سلوكي أثناء الرّاحة منفرج السّاقين فوق درّاجتي. اليدين على المقود والرّأس على الذّراعين في انتظار لا أدري ماذا. دون حياة أو تقدير النّظام. أشرت إلى عكازيّ بتواضع وشرعت في إحداث ضجّة عشوائية حول عاهتي التي تجبرني على الرّاحة كما يمكنني لا كما يجب عليّ. أظنّ أيضاً أنني فهمت أمراً آخر هو أنّه لا وجود لقانونين. واحد للعاديين وآخر للعاجزين. ثمة فقط قانون واحد يمثل له الجميع. الغنيّ والفقير. الشابّ والمُسَنّ. السّعيد والحزين هذا القانون هو الفصاحة. أوحيتُ بأنّي لستُ حزينا. تَبّاً ماذا أقول. أوراقك! قال. فهمتُ عبارته بعد لحظة. لا، قلت، لا. أوراقك! صرخ الضّابط. آه أوراقي. لكنّ الأوراق الوحيدة التي في حوزتي هي القليل من أوراق الصّحف لأعطني بنفسني. تفهمون. حين أذهب إلى الحمام. أعشق القيام بذلك كلّما أمكن. إنّهُ أمر طبيعي. أليس كذلك؟ مذعوراً أخرجتُ الأوراق ودسستها تحت أنفه. كان الطّقس جميلاً. اتّخذنا الطّرق الصّغيرة المُشمسة حيث يقلّ وجود المازة. أنا أقفز بواسطة العكازين وهو - بيديه المُخبّأتين داخل قفازين أبيضين - يدفع درّاجتي برفق. لم... لم أكن أشعر بالحزن. توقفتُ لحظة. أمررتُ إصبعي على قبة القُبعة. كانت حارقة. نعم كنتُ أحمل ذلك الشّيء فوق رأسي. وجوه مشرقة وهادئة لرجال ونساء وأطفال كنتُ أراها تنظر ناحيتنا. ظننتُ لوهلة أنني أستمع إلى موسيقى تأتي من بعيد. توقفتُ لأنصت إليها جيّداً. تقدّم! قال. أسمع، قلت. تقدّم! قال. لا يُسمَح لي بالاستماع إلى الموسيقى. يُخشى أن يتسبّب ذلك في تجمّع.

صفعني على قفائي. أحدهم لمسني. أوه لا. ليس على الجلد. المشكلة أن جلدي أحسن اللكمة القاسية للرجل من خلال القفازين.

في تلك الآونة الذهبية كنتُ أتقدم محاولاً تقديم أفضل أداء كما لو أنني إنسان آخر.

كانت حصّة راحة بين حصّة الصّباح وحصّة المساء. العقلاء بينهم كانوا ممدّدين في السّاحات أو جالسين أمام أبواب مكاتبهم مستمتعين بأنفاس الكسل الأخيرة. ناسين همومهم القريبة، غير مكترئين البتّة بأقاربهم. آخرون على عكسهم يتلهّجون الفرصة لرسم الخطط ممسكين برؤوسهم بكلتا اليدين. هل ثمة بينهم من وضع نفسه مكاني، ليشعر كم كنتُ ضئيلاً آنذاك كما أبدو، فيعرف مقدار القوّة الباعثة على الضّراط التي كانت عليها حبال تلك الضّالة. نعم جائز. بما أنني كنت أسحب نحو عمق مزيف، نحو ظاهر اتزان وسكينة مُزيّفين. ثمّ انطلقت مندفعاً بكلّ شروري وسمومي مطمئناً إلى أنني لن أخسر شيئاً. تحت السّماء الزّرقاء وتحت عين الحارس ناسياً تماماً أمر أمي، متحرّراً من تصرفاتي ذائباً في ساعة غيري. كنت أقول في نفسي مهلاً . مهلاً. وحين وصلت إلى المركز اقتادوني إلى أحد الموظّفين المدهشين. كان يرتدي زياً مدنيّاً. قميصاً بذراعين كاملتين وكان غائصاً في كنبه مريحاً ساقيه على المكتب. كان يحمل قبعة قشّ وفي فمه شيء رقيق ولين لم أتبيّن ما هو تحديداً. استطعتُ تسجيل تلك التفاصيل قبل أن يصرفني. استمع إلى تقرير مرؤوسه ثمّ شرع في التحقيق معي بنبرة تأديبيّة تبعث في المرء الرّغبة في الامتثال لها حسب رأيي. بين أسئلته وأجوبتي. أتحدّث هنا عن تلك التي تستحقّ الذّكر . كانت هناك فترات طويلة نسيّاً وصاخبة. لستُ معتاداً على السّؤال عن أمر ما حتّى أنني أحتاج بعض الوقت لأفهم الكلام الموجّه إليّ. الخطأ الفادح الذي أرتكبه على الدّوام هو أنني بدل التفكير برويّة فيما أسمعهُ للتوّ والذي سمعته جيّداً بفضل حاسة سمعي القويّة، رغم قدّمها، فإنني أسارع بالإجابة متفوّها بأيّ شيء يخطر لي خشية أن يجلب لي

صمتي غضباً محتملاً قد يبلغ أشده لدى مخاطبي. أنا خواف. قضيتُ كل حياتي خائفاً من أن يضربني أحدهم. السباب والشتائم أتحمّلهما بسهولة لكنني لا أفصح في اعتياد الضرب أبداً. أمر مضحك. البصاق أيضاً يجعلني أشفق على نفسي إلى اليوم. كل ما أطلبه هو أن يكون الآخرون لطفاء معي. أعني أن يتحكّموا في أعصابهم إزائي وأن لا يعاملوني بوحشية. عموماً نادراً ما كنت أفضل في إرضاء الآخرين. المشكلة هي أن المفوض كان يظهر سعادة كبيرة في تهديدي بمسطرة أسطوانية بصورة تجعله قادراً على التدرّج معي في حل معضلة فقداني جميع الوثائق. هذا على فرض أن هذه الكلمة تعني له شيئاً. لا شغل، لا مسكن، اسم العائلة الذي ضاع من ذاكرتي في الوقت الحالي، وكيف أتّي أحاول الوصول إلى أمي التي أمضيتُ عمري أتأرجح في مشجبتها. لا أعرف عنوانها. هذا صحيح. لكنني قادر على الوصول إليها ولو في العتمة. الحيّ؟ حيّ المسالخ دون شك أيها الأمير، فمن خلف نوافذها المغلقة بقوة تفوق قوة ثرثرتها كنت أسمع خوار الثيران. ذاك الخوار المرعب الخشن المرتعش عكس ذلك الذي يُسمع في المراعي. إنّه صوت خاصّ بالمدينة. بالمسالخ وأسواق المواشي. نعم بالتأكيد. بالقليل من التفكير المتقدّم ربما يمكنني التوصل إلى أن أمي كانت تسكن قريباً من المسالخ التي يُحتمل أنها هي نفسها الأماكن التي تباع فيها المواشي والتي كانت أمي تسكن قريباً منها. اهدأ، قال الموظف، إنّه الحيّ نفسه. الصّمت التي تلا تلك الكلمات الودودة استغرقتُ خلاله في المشاهدة عبر النافذة دون أن أرى شيئاً بصورة فعلية، فقد كنت مغمض العينين مستسلماً فقط لعذوبة اللون الأزرق والذهبي، خالٍ من الملامح لا شيء في حنجرتي أو حتّى في ذهني. حسناً، تقريباً. لأنني في تلك اللحظات تساءلتُ فيما إذا كنتُ راغباً في الجلوس بعد وقت طويل أمضيته واقفاً. مُستحضراً ما تعلّمته بخصوص هذا الموضوع كأن تكون وضعية الجلوس ليست معدّة لي أنا، بسبب ساقِي المتخشّبة وأتّي لا أملك غير وضعيتين. واحدة عمودية متديلاً بين عكازيّ، نائماً واقفاً والأخرى أفقية على الأرض مباشرة. مع ذلك فإنّ الرّغبة في

الجلوس تجتاحني من حين إلى آخر. تأتيني من عالم ضائع. والحق آتي  
لم أكن أنجح في مقاومتها رغم آتي إنسان حذر. أجل. تلك الرواسب  
يستشعرها ذهني بالتأكيد. تبدو له متحركة لا أدري كيف. مثل حصي  
صغيرة في قاع بحيرة في حين إن السماء المذهلة وهواء الصيف يحطآن  
بنقلهما على تفاحة آدم خاصتي ويتغلغلان بين قسماتي. وفجأة تذكرت  
اسمي، مولوي. اسمي مولوي. صرخت في ارتباك شديد. لقد حضرني  
بغته. لا شيء على الإطلاق يجبرني على تقديم تلك المعلومة لكنني  
قدّمتها كي أمنح الرضا دون شك. سمحوا لي بالاحتفاظ بالقبعة. لدي  
فضول لمعرفة السبب. هذا اسم أمك؟ قال المفوض. لا بُدّ أنه هو  
المفوض. مولوي، قلت، اسمي مولوي. هل هذا هو اسم أمك؟ قال  
المفوض. نعم، قلت. خطر لي ذلك في لحظتها. وأمك؟ قال المفوض.  
لم أفهم. هل اسمها مولوي هي أيضاً؟ قال المفوض. هل اسمها مولوي؟  
قلت. نعم، قال المفوض. نعم أجبت. أفكر. اسمك هو مولوي؟ قال  
المفوض. نعم، قلت. وأمك، هل اسمها مولوي هي أيضاً؟ أفكر. أمك  
قال المفوض اسمها ———. دعني أفكر صرخت. في النهاية أعتقد  
أن هذا هو ما حدث. ففكر، قال المفوض. هل اسم أمي هو مولوي؟ دون  
شك يجب أن يكون اسمها مولوي هي أيضاً، أجبت. أظن أنهم أخذوني  
إلى قاعة الاحتفاظ. هناك طلبوا مني الجلوس. شرحتُ مازقي باختصار.  
فحصلت على رخصة للتمدد على مقعد جماعي أو أن أظل واقفاً على  
الأقل مستنداً إلى الجدار. القاعة مظلمة وكان هناك أناس متعجلون  
يعبرونها في كل اتجاه. مجرمون. رجال شرطة. رجال قانون. قساوسة  
بالإضافة إلى صحفيين فيما أعتقد. كل ذلك كان مُظلماً. أشكال مظلمة  
تعبر فضاءً مظلماً. لا يتبهنون إلى وجودي. أنا أيضاً. لكن لو كان الأمر  
كذلك حقاً كيف أمكنني معرفة أنهم لا يتبهنون إلى وجودي وكيف  
أمكنني أن أردّ عليهم تجاهلهم إيتاي ما داموا لم يلاحظوا وجودي. لا  
أدري. لقد فعلتها وهذا هو المهم. لقد سجلتُ ضدّهم نقطة وكفى. ثم  
فجأة ظهرت أمامي امرأة ضخمة ترتدي الأسود. البنفسجي بالأحرى.

أتساءل إلى حدّ هذه اللحظة إن كانت المرأة مرشدة اجتماعية. قدّمت لي وعاءً في صحن لا مثيل له مليئاً بعصير رمادي اللون يُفترض أنّه شاي مُحلّى مخلوط بالحليب. لم يكن هذا كلّ شيء. فألقى جانب الصّحن والوعاء كانت هناك قطعة خبز جاف تقف منتصبّة بصورة غير مُستقرّة جعلتني أهجس بأنّها ستسقط حتماً. ستسقط. كنتُ أقول في نفسي كأنّ مسألة سقوطها من عدمه مسألة لها قيمة. بعد لحظة كنتُ أنا نفسي أمسك بيدين مرتعشتين كومة صغيرة من الأشياء المختلفة الحارقة حيث الصّلب والطريّ والسائل متجاور، دون أن أفهم كيف انتقلت إليّ تلك الأشياء. سأخبركم بأمر. حين تُقدّم لك المُساعدات الاجتماعيّات شيئاً يلهيك عن الالتفات بعينيك عن طيب خاطر. الأمر الذي يمثل هوساً بالنسبة إليهنّ، وحاولت الابتعاد فإنّ الواحدة منهنّ تكون على استعداد لملاحقتك حتّى آخر الأرض وفي يدها كيس للقيء. الخلاصيّات<sup>6</sup> ليسوا أفضل أبداً. مقابل الحركة السخية ليس هناك استعراض بتاتاً. فيما أعلم. نطأ طيّ الرأس، نمدّ يدين مرتعشتين ومقلقلتين ونقول شكراً. شكراً سيّدتي. شكراً سيّدتي الكريمة. الذين لا يملكون شيئاً لا يحقّ لهم أن لا يحبّوا الخراء. فاض السائل وترنّح الوعاء مصدراً صوت أسنان تصطك. طبعاً لم تكن أسناني لآتي لا أملك أسناناً. الخبز المبتلّ بدأ يميل أكثر فأكثر. عندما بلغ قلقي ذروته رميت بكل شيء بعيداً عني. لم أدعها تسقط من يدي قذفتها بكل ما أوتيت من قوة بيدين متشتجتين على آخرهما لتتحطّم على الأرض أو على الحائط. لن أروي ما حصل بعد ذلك لآتي ضقت ذرعاً بهذا المكان وأريد أن أخرج. في ساعة متأخرة من المساء قالوا لي إنّ في إمكانيّ المغادرة وأعطوني تعليمات بأن أحسن التصرف مستقبلاً. كنت واعياً بخطئي. أعرف الآن لم أُلقي عليّ القبض. لم يعد ذلك خافياً بفضل الخلل في أجوبتي أثناء التحقيق. لكنني مندهش من السرعة التي

6- الخلاصيّات: عموماً الخلاصيون في الديانة المسيحية هم المؤمنون بأنّ الإنسان في آخر المطاف سينعم بالخلاص من عذاب الربّ.

أطلقوا بها سراحى. بتلك البساطة مُنحت حريتي - على اعتبار أنها الحرية - دون أدنى عقوبة. هل كانت هناك عناية في الأعلى ترعاني؟ هل فرضت على المفوض رغماً عنه وبطريقة ما أن يهب لنجدتي؟ هل اتصلوا بأمي أو بأحد سكان الحي ليتثبتوا من أقوالي؟ هل رجحوا أنه لا داعي من التدخل لتأديبي؟ معاقبة شخص مثلي بصورة آلية ليس أمراً لاثقاً. قد يحدث. لكن المحكمة لا تنصح بذلك. من الأفضل للمرء أن يلتمس المغفرة من الأعوان. لا أدري. إذا كان حمل الوثائق ضرورياً إلى هذه الدرجة فلم لم يصروا على أن أتملكها؟ هل لأن ذلك مكلف فيما لا أملك أموالاً؟ في هذه الحالة لم يحتجزوا دراجتي؟ ربما ما كان ليحوز ذلك دون إذن من المحكمة. كل هذا غير مفهوم. الأمر الوحيد المؤكد هو أنها المرة الأخيرة التي سأرتاح فيها بتلك الطريقة ساقاي مرتكزتان على الأرض بفحش. الذراعان على المقود ورأسي مهمل وعشوائي فوقهما. كان ذلك محزناً حقاً. ومُحزناً أيضاً بالنسبة إلى أبناء مدينة يحتاجون بشدة إلى التشجيع في عملهم وإلى الاكتفاء فقط برؤية الفرح واستعراضات القوة والجرأة من حولهم وإلا صاروا مهددين بالانهيار آخر النهار. في حدود قدراتي الجسميّة ليس عليهم سوى أن يعلموني كيف أتصرف وسأفعل. لا أبدو شيئاً فأنا أتحسن. لقد كنت دائماً ذكياً وحيوياً. أما العزيمة فهي لعبي. أنا أفيض عزيمة من النوع العصبي الذي يبيده المصابون بالقلق عادة. حتى إن مجال مكتسباتي اتسع كثيراً إذا قارنتُ خطواتي الأولى بالأخيرة التي أديتها السنة الماضية. وإن كنتُ قد تصرفْتُ كخنزير طوال الوقت فإنّ الخطأ ليس خطئي بل خطأ رؤسائي لأنهم يؤدّبونني من زاوية التفاصيل فحسب، دون أن يطلعوني على روح النظام. هكذا يفعلون في المدارس الثانوية الأنجلوسكسونيّة. وفي المبادئ التي ينبع منها السلوك الجيد وطرق قفز الأزمات دون أن تظهر عيوبك هنا أو هناك ودون أن تخطئ في حقّ هذا أو ذاك. والارتقاء بالنفس إلى الأصل انطلاقاً من وضعيّة معيّنة. كانوا ربّما منحوني الفرصة لأعود دائماً إلى القواعد الأولى لنظرية التحليل بدل أن يشيعوا بين الناس أن اللياقة تقصّر

فقط على عدم معالجة الأنف بالإصبع أو عدم وضع اليد تحت الخصيتين أو عدم استعمال مناديل الأنف أو الفظاعة التي في حفلات التبول المنعشة. نعم في هذا الصدد ليس لديّ سوى مبادئ تزداد سلبية، تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. هذا يعني أنني كنت في العتمة أغلب الوقت. وأن تأملاتي التي ما لبثتُ أجمعها طيلة القرن كانت تدفع بالشك إلى درجة ارتسم معها جلياً مساري نحو أسلوب العيش المثالي رغم الفضاء الضيق. لكن فقط لأنني لا أعيش فعلياً أفكر في أشياء كهذه وفي الآخرين. إنه فقط في قلب الطمأنينة التي يمنحها التحلل يسعني أن أتذكر تلك العاطفة الممتدة الملتبسة التي تُسمّى حياتي والتي أقيّمها كما يُشاع أن الله يُقيّمنا. بوقاحة ربّما كنتُ أفعل. التحلل حياة هو أيضاً. أعلم ذلك. أعلمه. لا تتعبوني، الفرق بينهما هو أننا مع التحلل لا نكون مكتملين. هذا لا يمنع إمكانية أن أتحمّل يوماً ما بالطّيبة الكافية لأخوض معكم في شأن هذا النوع من الحياة. يوماً ما أكون فيه قد عرفتُ أنني بمجرد معرفة الأشياء لستُ أمارس سوى الوجود، وأنني لم أعرف شيئاً على الإطلاق بمعرفتي كلّ ذلك. وأنني لا أفعل شيئاً حقيقياً غير الصّراخ بصوت مرتفع. بطريقة مكتومة لكن في كلّ الأحوال على نحو منفتح. إذن لنصرخ. يُفترض أنّه يجلب الفائدة. نعم لنصرخ. هذه المرّة وأخرى ربّما في وقت لاحق. لنصرخ عالياً بأنّ الشّمس الغاربة قد مالت على الواجهة البيضاء للمركز. يذهب في الظنّ أننا في الصّين. ظلّ معقّد يرسم. إنه أنا ودراجتي. رحتُ اللعب. أديتُ حركات ولوّحتُ بقبعتي. كنتُ أدفع بدراجتي إلى الأمام والخلف وأنا أنفخ في البوق. استدرتُ إلى الجدار العالي. يراقبوني من خلف التّوافذ المُشبّكة. أشعر بعيونهم فوقِي. طلب منّي الساعي المتصبّ أمام البوابة الرّحيل. سأهدأ من تلقاء نفسي. في النهاية لم يكن الظلّ مسلماً أكثر من الجسم ذاته. طلبتُ من الموظّف أن يشفق عليّ ويساعدني. لم يفهم. ندمتُ على الطّعام الذي قدّمته لي المرشدة. أخرجت من جيبي حصاة ورحتُ أمصّها. كان ناعماً بسبب صقل العواصف له ولكثرة ما امتصصته. حصاة كروية صغيرة. إنها كفيّلة بتهدّثني. تنعش وتحبّط

الشعور بالجوع وتخدع العطش. قدم الموظف نحوي. بطني هو الذي أثار حفيظته. هو أيضاً لا بُدَّ أنهم يراقبونه من خلف التوافذ. كان هناك ضحك في مكان ما. في داخلي أيضاً كان هناك من يضحك. أمررت ساقى المريضة من الجهة الأخرى للإطار المعدني. ابتعدت. نسيت وجهي. توقفت عن التفكير. من الصعب أن أفكر وأنا أدوس. لو فكرت أثناء السير فمن المؤكد أنني سأفقد توازني وأسقط. أتحدث بصيغة الحاضر. يسهل الحديث في الحاضر عن الماضي. لا تُلْقُوا بالاً إِنَّه الحاضر الميثولوجي. أغرق في جبل من الخرق لمجرد أن أذكر بأن هذه الأشياء بلا معنى. استأنفت المسير في ذلك الدرب الذي لا أعرف ماذا أفعل فيه تحديداً. بوصفه فقط طريقاً. مساحة مُشرقة أو داكنة مستوية أو محدبة لكن دائماً عزيزة عليّ إلى حدٍّ يبعث على التفكير. إِنَّه الطريق نفسه حيث الصّخب المُلازم للشيء الذي ينساب وللغبار الذي يلقي التحية عندما يكون الطّقس جافاً.

هأنذا بمحاذاة القناة غير مستوعب أنني غادرت المدينة. القناة تعبر المدينة. هذا أعرفه، بل أكثر من ذلك أعرف أنني اثنتان. لكن ماذا عن هذه الأسيرة وهذه الحقول إذن؟ لا تتزعج مولوي. فجأة أبصرت. إنها ساقى اليمنى. الصلبة في تلك الفترة. وأنا أجوس بنظراتي درب اللّهاث رأيتُ قطع أحمر رمادية فتية في طريقها إليّ من الجانب الآخر. وتناهدت إلى مسامعي صرخات غضب وضربات مكتومة. وضعت ساقى على الأرض كي أمنح نفسي بشكل أفضل فرصة مشاهدة البارحة وهي تقرب بلطف لم يتموّج له الماء. كان قارباً. حمولة خشب ومسامير في طريقها إلى أحد النجارين بلا شك. تقاطعت نظراتي مع نظرات أحد الحمير. خفضت بصري نحو خطواته الأنيقة الواثقة. كان مرفقاً (قائد عبّارة الموتى)<sup>(7)</sup> فوق ركبته ورأسه في كف يده. بعد كلّ ثلاثة أو أربعة أنفاس

7- قائد عبّارة الموتى: في الأسطورة الإغريقية، قائد عبّارة الموتى هو المكلف بنقل أرواح الموتى إلى الجحيم في قاربه.

من غليونه كان يبصق في الماء. الشمس تلقي بالوانها على الأفق. مزيج  
من الكبريت والفسفور. أمضي نحوها. أخيراً نزلت عن السرج والتحقت  
قفزاً بالخندق، هناك تمددت بجانب درّاجتي. تمددت على طولي. البدان  
معقودتان في شكل قاطع ومقطوع. فوقني تدلى الزعرور البري الأبيض.  
لسوء الحظّ أكره رائحته. وسط الخندق كان العشب سميكاً وعالياً.  
نزعت قبعتي وسحبت الأغصان الطويلة المورقة ناحية وجهي. اشتمت  
رائحة الأرض. رائحة الأرض كانت في العشب الذي ألصقته بوجهي  
كصفائر منعني من الرؤية تماماً. أكلت القليل منه. وعاد اسمي إلى  
ذاكرتي بشكل غير مفهوم. كما عاد إليّ أيضاً أنني قرّرت الذهاب لرؤية  
أمي صبيحة هذا اليوم السّاحر. أسبابي؟ نسيته. لكنني أعرفها. أظنّ أنني  
أعرفها. لم يظّل سوى أن أجدها كي أطير إلى أمي بجناحي الضرورة.  
جناحي دجاجة. نعم كلّ شيء يصبح سهلاً بمجرد أن نعرف لماذا. سؤال  
بسيط لكنّه سحريّ. معرفة مكن القداسة أمر والنذر أمر آخر. أيّ أخرق  
في وسعه أن يندّر. بالنسبة إلى التفاصيل - هذا إذا كانت التفاصيل مهمّة  
- ليس عليك أن تيش، ففي إمكاننا دائماً أن نطرق الباب الصّحيح على  
النحو الصّحيح. عموماً أردت القول إنك لست في حاجة إلى تعويذة.  
ربّما ليس ثمة شأن هام خلاف وصيّة ما بعد الموت. لا حاجة ليكون  
المرء مأكراً كي يعثر على مُسكّن يهوّن على الموتى حياتهم. في هذه  
الحالة ماذا أنتظر كي أدرا موتي الخاصّ؟ ستأتي. ستأتي، أجل. أسمع من  
موقعي الجعجعة التي ستخفّ من حدّة كلّ شيء حتّى لو لم أكن من  
يطلقها. من هنا حتّى ذلك الحين لا طائل من اعتبار أنفسنا راحلين. لسنا  
كذلك. ما زلنا نتلوى. الشّعر ينبت والأظفار تطول والأحشاء تفرغ. كلّ  
متعهد الموتى ماتوا. أحدهم سحب الستائر. بأنفسنا قمنا بذلك ربّما.  
دون إصدار أيّ ضجيج. أين الذباب الذي ما انفكوا يحدثوننا عنه. سندرك  
أننا لسنا نحن من مات. بل الآخرون جميعاً. عندئذ نهض لنذهب إلى  
الأم التي تعتقد أنّها على قيد الحياة. هكذا خيل إليّ. لكن قبل ذلك عليّ  
الخروج أولاً من هذا الخندق. سأختفي بمحض إرادتي. موغلاً أكثر

فأكثر تحت وطأة الأمطار. يوماً ما سأعود بلا شك. أو سأصاب بالإحباط نفسه من يدري. مؤكداً أنني سأمنح الثقة لسأقي لأجل ذلك كما لا بد أن ألتقي المفوض ومساعديه يوماً ما. حتى لو طرأ عليهم تغيير كبير. لست أحاول التأكيد على أنهم هم بأنفسهم. لا نسينوا فهمي. قطعاً سيكونون أنفسهم حتى لو طرأ عليهم تغيير كبير. لأنك إذا خيمت داخل أحد ما أو استخدمته فسيكون ذلك بمثابة، كيف تُقال. لا أدري. أن لا ترغب في القول. أن لا تعرف ماذا تريد أن تقول. أن لا تقدر على قول ما تظن أنك ترغب في قوله. ثم من جهة أخرى أن تتكلم دون توقف تقريباً. هذا ما يهمني أن لا أفقد سيطرتي عليه في خضم الكتابة. تلك الليلة لم تكن تشبه الليالي الأخرى. لو كانت تشبهها لدرتُ بالأمر. لأن تلك الليلة التي قضيتها على ضفاف القناة... كلما تذكرتها لا أجد شيئاً. لا وجود لليلة بتمام المعنى. فقط مولوي في خندق. يخيم عليّ صمت رهيب. وتحت جفنيّ نشأت ليلة صغيرة أو ربما هي حيث تألفت بقع متوهجة تارة ومنطفئة تارة. مقفرة تارة ومأهولة تارة أخرى كما لو أنها شعلة فضلات القديسين. قلت ليلة. لكن ربما هناك ليالٍ أخرى. لنخن! هيا لنخن الأفكار الخائنة. في الصباح. كان صباحاً. ولقد تقدّم الوقت. كنت غافياً كعادتي وقد صخب الجوّ خارج الخندق عندما عثر عليّ أحد الرعاة. كنت نائماً. أفقت على نظرائه فوق. كان إلى جانبه كلب يلهث. ويحدّق فيّ لكن بتركيز أقل من صاحبه. فقد كان من حين إلى آخر يعضعض مواضع من جسمه بحق. من المحتمل أن القراء يشاركون إياها. هل ظنّ بأنني خروف أسود عالق في هذا الشوك الأخضر وهو الآن في انتظار أن يتلقى أمراً من سيده بإخراجي؟ لا أظنّ. لا تنبعث مني رائحة الخرفان. كان بودّي لو أن الرائحة المنبعثة مني هي حقاً رائحة الخرفان أو حتى التيوس. الأشياء الأولى التي أفتح عيني عليها أراها بوضوح وأفهمها شرط أن لا تكون صعبة. ثم في رأسي وعيني مطر رقيق بدأ بالتساقط كما لو أن مصدره مرش. هذا هو المهم. وسرعان ما عرفت أن الذي أمامي أو بالأحرى الذي فوق راعي وكلبه. فوقني نعم. إذ لم يبرح الطريق. ودون

عناء مَيَّزَتْ بَكَمَ القطيع الذي من المؤكد أنه بات قلقاً لغياب من يهزمه.  
 على غرار ذلك لا يبدو لي الكلام في ذلك التوقيت منغلقاً حتّى إنّي سألت  
 بثقة وهدوء، إلى الحقول تأخذهم أم إلى المسالخ؟ هكذا فقدتُ حسَّ  
 الاتجاهات كما لو أنّ السؤال فعلاً يتعلّق بالاتجاهات. لأنّه حتّى إن كان  
 متّجهاً إلى المدينة ما الذي يمنعه من أن يحيط بها أو أن يخرج من بوابة  
 أخرى كي يفوز بمراع مريحة إضافية ولو ابتعد ماذا كان سيعني ذلك؟ لا  
 شيء. فالمسالخ ليست في المدن فحسب. ثمّة منها في كلّ مكان. في  
 البادية مثلاً، كلّ جزّار هو مسلخ وحقّ ذبح حسب مشيئته. لكنّ إمّا أنّه لم  
 يفهم أو أنّه لم يشأ أن يجيئني. لم يجب بل غادرني دون كلمة واحدة.  
 موجهة إليّ أقصد. لأنّه تكلم مع كلبه الذي أصغى إليه بانتباه وبأذنين  
 واقفتين. جنوت على ركبتيّ، لا هذا لا يستقيم. لقد استقيمت واقفاً أراقب  
 القافلة وهي تبتعد. أسمع الراعي يصفرّ وأراه يقلّد الطواحين بطنينه، أمّا  
 الكلب الذي لولاه لسقط القطيع في القناة فراح يلفّ حول نفسه دون  
 توقّف. كلّ هذا رأيته من خلال غبار لامع ولاحقاً من خلال الرّذاذ أيضاً.  
 ذاك الرّذاذ الذي اعتاد كل يوم أن يتركني وجهاً لوجه مع نفسي ويحجب  
 عني كلّ الأشياء الأخرى ويحجبني عني. هدا التشويش. إمّا أنّ الخراف  
 لم تعد قلقة أو بسبب ابتعادها. لعلّي لم أعد أسمع بوضوح كما كنتُ أفعل  
 منذ قليل. أستغرب ذلك كثيراً. لأنّي أتمنّع بسمع مرهف يضعف فقط  
 قليلاً عند الفجر. وإذا حدث ولم أسمع لمُدّة ساعات فلاسباب أجهلها أو  
 لأنّ كلّ شيء حولي صامت. في حين إنّ الأمر يختلف مع النّاس  
 المستقيمين لأنّ ضجيج العالم لا يتوقّف أبداً بالنسبة إليهم. هكذا  
 استقبلت يومي الثّاني. هذا إذا لم يكن الثّالث أو الرّابع. كانت بداية سيّئة  
 لأنّ هاجساً سيطر عليّ وخلف لديّ حيرة مقيّنة متعلّقة بمصير الخرفان.  
 لقد كان بينها خرفان صغيرة وأتساءل إن كانت قد وصلت إلى مرعى  
 هزيل أو ما إذا كانت قد سقطت بجماجم محطّمة تحت ضربات الفأس  
 وسط كومة من السيّقان النّحيفة. في البداية على رُكبها ثمّ على جوانبها  
 الصّوفيّة. لكنّ للمشاعل الصّغيرة مزاياها أيضاً. إلهي ما هذا البلد الرّيفي.

ذوات الأربع في كل مكان. ليس هذا فقط بل هناك الماعز والأحصنة على سبيل الذكر لا الحصر. أشعر بأنّها تراقبني لتعيّني عن مواصلة الطريق. لا حاجة لي بذلك. لكنّي لن أغفل عن الهدف من وراء الجهد الفوري الذي أقوم به. الالتحاق بأمّي في أسرع وقت ممكن. ودون أن أخسر لحظة واحدة وقفت في الخندق ودعوتُ لنجديّ كلّ الأسباب التي تجعلني أمضي في رحلة للحاق بأمّي. وحتى لو كنتُ قادراً على فعل ذلك دون تفكير طويل، لأنّي لا أعرف الأمر إلّا بعد قيامي به، فإنّ ذهابي إلى أمّي لا يُعدّ ضمن قائمة اهتماماتي. لاحظوا أنّ قدميّ تقوداني أبداً إلى أمّي دون أن يصدح في رأسي إنذار من الأعلى في هذا الشأن. أوقاتٌ لذيدة. لا شك في أنّها كذلك في نظر أيّ كان ما عداي أنا. أنا لا أهنئ نفسي على القليل من الشمس بل لأنّي أتجنّبها. الإيجي<sup>(8)</sup> الذي في داخلي المتعطّش للحرارة والنور أنا أقتله. أقتله منذ الصّباح الباكر. الظلال الشّاحبة للأيّام الممطرة تنسجم أكثر مع مزاجي. لا ليس هذا أيضاً، ليس لديّ لا ذوق ولا مزاج، لقد فقدتهما منذ زمن. أردتُ القول إنّ الظلال الشّاحبة إلخ تخفيّني بشكل أفضل دون أن أبدوا لافتاً بصورة معيّنة. مموّه رغماً عنه، هذا هو مولوي من زاوية ما. وخلال الشّتاء أتحصّن بمعطفي المحشو بقصاصات من أوراق الصّحف ولا ألملم أشلاليّ إلّا عندما تستيقظ الأرض. الاستيقاظ الحقيقيّ. في أفريل. الملحق الأدبي للتأيمز مثاليّ من هذه الناحية. متماسك وغير قابل للاختراق في كلّ الظروف. الصّراط لا يُمزّقه. ماذا بأيدينا أن نفعل. الغاز يخرج من أعماقي. أنا عند ضرورة التلميح إلى الأشياء التي ليس لها وزن والتي لها وزن على حدّ السّواء رغم التّفور الذي تُخلّفه لديّ. في مرّة أحصيتُ عددها. ثلاث مئة وخمس عشرة ضربة خلال تسع عشرة ساعة. يعني بمعدّل أكثر من ست عشرة ضربة في السّاعة. في النّهاية هذا ليس مهولاً. أربع ضربات كلّ ربع ساعة. لا يُعدّ هذا شيئاً. أقلّ من ضربة كلّ أربع دقائق. أمر لا يُصدّق.

8- نسبة إلى سكان ساحل بحر إيجة.

لستُ سوى ضراط صغير. لقد أخطأت في التعرّيج على الموضوع. شيء خارق بالفعل أن تساعدك الرياضيات على معرفة نفسك. أصلاً مسألة المناخ هذه لا تعنيني فأنا أتأقلم مع كلّ الصّلصات. تجدر الإشارة فقط إلى أن الشمس تشرق خلال الصّباح حتّى العاشرة إلى العاشرة والنّصف. في تلك الفترة السّحبُ تغشى السّماء وينزل المطر إلى غاية المساء. عندها تطلّ الشمس وتغرب. والأرض المبتلّة تأتلق وتنطفئ بسبب خفوت الضياء. هأنذا فوق السّرج من جديد. وفي قلبي المخبول قلق مريض سرطان مضطر لدخول عيادة طبيب الأسنان. لآتي أجهل إن كنتُ أسلك الطّريق الصحيحة، نادراً جداً ما تكون الطّرق ملائمة لي. لكن إذا تعلّق الأمر بالذهاب إلى أمي فإنّ طريقاً واحدة تؤدّي إليها أو واحدة فقط من بين الطّرق تؤدّي إليها. أبداً جميعها. أجهل إن كنت أسلك إحدى الطّرق المؤدية إليها وهذا يزعجني كما هو شأن الدّعوات إلى الحياة. لكم بعد كلّ هذا أن تتخيّلوا مدى ارتياحي وأنا أرى على بعد مئة متر جَمي عائلتي. مع اجتيازي لها وجدت نفسي في حيّ غريب عنيّ أنا الذي يعرف المدينة جيّداً. إنّها المدينة التي ولدت فيها والتي لم أبتعد أكثر من خمسة عشر أو عشرين ميلاً لهول ما تمارسه عليّ من جاذبيّة لا أجد لها تفسيراً. لم أتمالك نفسي من التّساؤل إن كنت حقاً في مدينتي التي وهبني اللّيل والتي تؤوي أمي في مكان ما أو آتي أخطأت السّبيل فوقعت على مدينة أجهل عنها حتّى الاسم. لم يسبق أن وطئت قدمي مدينة أخرى عدا مدينتي التي ولدت فيها. هذا لا يعني أنّي لم أقرأ - حين كنتُ أجيد القراءة - قصص سفر كتبها مسافرون أوفر منّي حظّاً تتحدّث عن مدن أجمل من مدينتي، أجمل دائماً حتّى في ظلّ انعدام وجوه للمقارنة. هذه المدينة التي لم يتح لي أن أعرف اسم واحدة غيرها، أجدني أبحث عن اسمها في ذاكرتي. ليس لديّ من نيّة أخرى في حال عثرت عليه سوى أن أوقف أحد المارّة قائلاً بهيئة مكشوفة، المعذرة هل هذه هي «س»، و«س» يمثّل اسم مدينتي. يُخيّل إليّ دائماً أنّها تبدأ بحرف «ب» أو «پ». بالرّغم من هذا المؤشّر أو ربّما بسبب عدم صحّته فإنّ بقيّة الأحرف تاهت عني. مضى

عهد طويل وأنا أعيش بعيداً عن الكلمات. تفهمون. إذ يكفي أن أرى  
مدينتي مثلاً - لأنها مدينتي في آخر المطاف - كي أتمكن من... تفهمون.  
يتعذر عليّ قول ذلك. هذا شبيه بشخصيتي التي كانت في الغالب نكرة  
بشكل يصعب اختراقه. تعرّضنا إلى ذلك من قبل أظنّ. وهكذا بالنسبة  
إلى بقية الأشياء التي يتشوّش لها عقلي. نعم. حتّى في تلك الفترة حيث  
كانت الأمور تتلاءم، موجات وجزيئات، فإن أصل الأشياء أنها دون اسم  
والعكس صحيح. أذكر ذلك لكن ماذا أعلم الآن عن تلك الفترة. الآن  
وقد نزلت عليّ الكلمات ذات المعنى المتجمّد ومات العالم أيضاً بجن  
مشوب بثقل رهيب. أعرف علي الأقلّ ما تعرفه الكلمات والأشياء المميّنة  
وهذا مكسب في حدّ ذاته. بدايةً ووسط وخاتمة كما في الجمل المسبوكة  
جيداً وفي سوناتا الجثث. أن أقول هذا أو ذاك أمر لا أهميّة له فعلاً. أن  
تقول هو أن تخلق. الغثّ والسمين. نحن لا نبتكر شيئاً جديداً. نعتقد أنّنا  
نفعل. أنّا هربنا. نحن فقط نتمتم بدروسنا. كلامٌ حفظناه ونسيناه. نبكي  
على طريقتنا حياة بلا دموع. ثمّ تبّاً. لنزّ. لمّا تأكّدت أنّي لن أنجح في تذكر  
اسم مدينتي قرّرتُ التوقّف على حافة الرّصيف وانتظار عابر ظريف له  
هيئة مؤدّبة. أرفع قبّعتي وأسأله، ما اسم هذه المدينة من فضلك؟ لأنّه  
حالما يسقط الاسم سأعرف حالاً إن كان ما أبحث عنه أم لا. وهكذا  
أكون قد حسمت. حظّ عاثر غامض أعاق مضيّ في القرار الذي اتّخذته  
للتوّ. في الواقع هكذا يحدث معي دائماً. ما إن اتّخذ قراراً حتّى يحدث  
طارئ يفسد عليّ تنفيذه. هذا ما يفسّر تعطلّ قراراتي مقارنة بالفترة التي  
كنتُ فيها قادراً على الكلام والتي بدورها كانت أسوأ قليلاً من التي  
سبقتها. لكن في الحقيقة (في الحقيقة!) لم أقرّر شيئاً بشكل خاصّ فيما  
يتعلّق بالمواضيع التي تحتاج إلى قرارات. كنت دائماً أنغمس في الخراء  
دون علم بمن خريّ على من أو من هو الجانب الأصحّ لي بينهما. وحتّى  
هذا القرار لم ينجح في منحني الرّضا. وإن لم أشفَ تماماً من ذلك فهذا  
ليس لأنني لم أشأ. يبدو أنّ واقع الأمر هو أنّنا لا نملك إلّا أن نتمنّى لنهياتنا  
أن تكون مثلما كانت البداية. ولو بمقدار أقلّ. لم أكن بعدُ قد وضعتُ

الخطة في رأسي. لاحقاً انتهت إلى آتي صدمتُ كلباً بقوة. انتهت لاحقاً. سقطتُ على الأرض بصفاقة لا تُغتفر. أكبر بكثير من كونهم أخلوا سبيل الكلب. وبدل البقاء على العتبة انطلق صوب الرصيف المقابل لينط حول سيّده. الاحتياطات كالقرارات تماماً، يجب التعامل معها بحيلة. لا بُدّ أنّها السيّدة. تظنّ أنّها لم تترك شيئاً للصّدف فيما يتعلّق بسلامة كلبها في حين إنّها لم تفعل شيئاً سوى تحدّي الطّبيعة برمتها. مثلي أنا ونواباي المجنونة لتوضيح الأمور. وعوض أن أزحف بدوري مستغلاً تقدّمي في السنّ وإعاقتي أزمّت الأمور بمحاولتي الهرب. ثمّ سرعان ما تمّت ملاحظتي من قبل حقوقيين من الجنسين ومن كلّ الأعمار. فقد لاحظتُ ليحى بيضاء وزغباً بريئاً تقريباً. كادوا فعلاً يشرعون في طحني لمّا تدخلت السيّدة. قالت بنبرة جوهريّة، أخبرني بها لاحقاً وصدّقتها، اتركوا هذا الشّيخ وشأنه. لقد قتل «تيدي». إنّها مسألة منتظرة. أحبّ «تيدي» كطفلي لكنّ المسألة ليست خطيرة كما قد يبدو. لآتي فعلاً كنتُ في طريقي لأخذه إلى البيطري لينهي معاناته ف «تيدي» عجوز أعمى وأطرش ومُدْمَر بالروماتيزم ويفعلها تحته في كلّ الأوقات ليلاً نهاراً سواء في المنزل أم في الحديقة. هذا الشّيخ المسكين جنبني مصاريف لا يتحمّلها موردي الوحيد، جراية الحرب التي تركها لي الرّاحل. مات لأجل الوطن الذي يقول إنّّه وطنه والذي لم يمنحه امتيازاً واحداً خلال حياته ما عدا المواجهات والعصيّ في العجلات. تفرّق الحشد لكن السيّدة واصلت، حسناً ستقولون إنّّه أخطأ بمحاولته الفرار. صحيح. لكنّ مؤكّد أنّكم لاحظتم غياب عقله وآته لا يملك السيطرة على نفسه لأسباب نجهلها وربّما من الخجل لنا جميعاً معرفتها. أتساءل إن كان يعي تماماً ما أقدم عليه. يفوح من كلامها الضّجر إلى درجة أنّي تأهّبت لمواصلة طريقي، عندها برز لي شرطيّ المدينة المحتوم. ضرب بثقل على المقود بقائمه المشعرة الحمراء. لاحظتُ ذلك بنفسي وكان له فيما يبدو الحوار التّالي مع السيّدة، لقد سحق كلبك أليس كذلك؟ هذا صحيح أيّها الضابط وماذا بعد؟ لا يمكنني أن أستمّر في نقل هذه المبادلات الحمقاء، سأقول فقط

إِنَّ ضابطة المدينة قد أخلى المكان هو أيضاً. لم يكن صوته قوياً وهو  
 يدمدم بآخر كلماته قبل أن يرحل متبوعاً ببقيّة السذج الذين لم يعد لديهم  
 أمل في أن تنقلب الأحوال على رأسي بشكل كارثي. التفت فقط قائلاً،  
 ارفعي كلبك حالاً. اتخذتُ وضعية المغادرة لِمَا أحسستُ أنني حُر. لكنّ  
 المرأة، السيّدة «لوي». يجب أن أذكر ذلك الآن. أو «لوس» لم أعد  
 أعرف. اسم من نوع «صوفي»، شدّنتني من ذيلي، وقالت كما لو أنّها تكرر  
 على مسامعي جملة نظقت بها، أيها السيّد أحتاج إليك. وبسبب تعبير  
 وجهي الذي دون شكّ خائني فبدا لا إرادياً أنني فهمتُ ما تعنيه، فإن المرأة  
 قالت، ما دام فهم هذا فلا بُدّ أنّه سيفهم البقيّة. لم تكن مخطئة، ففي غضون  
 لحظات وجدت نفسي أمتلك أفكاراً ووجهات نظر أوحّت لي بها السيّدة.  
 على غرار ما دمتُ قتلتُ كلبها من واجبي أن أساعدها على حمله إلى  
 البيت ودفنه. إنّنا لا نفعل دائماً ما لا نحبّ أن نفعل. أبدو في نظرها لطيفاً  
 رغم هيئتي الدميمة. ستستلّي بإسعافي ولا أدري ماذا أيضاً. أوه نعم. يبدو  
 أنني أحتاج إليها أيضاً. هي في حاجة إليّ كي أساعدها على مواراة كلبها  
 التراب وأنا في حاجة إليها لا أدري لأيّ سبب. من واجبها هي دون غيرها  
 أن تطلّعي عليه. لأنّه تلميح لا يمكنني أن أغضّ عنه الطّرف باحتشام كما  
 فعلتُ مع البقيّة. لا حرج لديّ في أن أقول لها بأنّي لستُ في حاجة لا إليها  
 ولا إلى أيّ أحد آخر. ربّما بالغتُ لأنّي أحتاج إلى أمي. وإلا لِمَ أجنهد  
 للوصول إليها. لعلّه واحد من بين الأسباب التي أجتنب الخوض فيها قدر  
 الإمكان. فأنا أفصح دائماً أو كثيراً أو قليلاً جداً ما يؤلمني لشدة هوسي  
 بالحقيقة. لن أغيّر هذا الموضوع الذي لا شيء يضمن لي أن تُتاح لي  
 فرصة الخوض فيه مجدداً بسبب الغيوم التي ما تنفكّ تتلبّد، إلّا عندما  
 أسير إلى أنني أحياناً في الفترة التي كنتُ فيها أتكلّم، كنتُ أتحدّث كثيراً  
 ظناً منّي أنني أتحدّث قليلاً جداً. وأتحدّث قليلاً جداً ظناً منّي أنني أتحدّث  
 كثيراً جداً. أريد القول إنّّه بفضل التفكير أو الأحرى مع مرور الوقت  
 اتّضح أنّ إفراطي في التحوّل هو انعدام كلّ شيء والعكس صحيح. انقلاب  
 غريب لا شيء يعالجه غير الزّمن أليس كذلك. بعبارة أخرى مهما كان

شكل ما أقوله فهو إمّا غير كافٍ أو بالكاد يكفي. حسناً لم أكن أصمت البتّة. مهما قلت وكيفما قلته لم أكن أصمت. يا له من تحليل إلهي. أرجو أن يساعدكم على معرفة أنفسكم ويكون لكم منطلقاً لمعرفة أبناء نوعكم إن كنتم تعرفون من بينهم البعض. وحين أقول إنّي لا أحتاج إلى أحد فلا اعتبر قد قلت الكثير بل جزءاً متناهيّاً في الصغر ممّا يجدر قوله. ممّا أجيد قوله. ممّا يجدر كتمانته. في حاجة إلى أمّي. نعم، أبداً لا يوصف انعدام الحاجة وأنا أهلك. أعني أنّه كان عليها إخباري بالأسباب التي تجعلني في حاجة إليها. عدتُ للحديث عن «صوفي». كان عليها القيام بذلك بما أتى سمحتُ لنفسي بمقارعتها في هذا الشأن. لو شقيتُ لتوصّلتُ إليها بلا شك. لكن الشقاء. آه شكراً لستُ ممن يشتري الشقاء. لقد ضقتُ ذرعاً بهذا الشارع. لا بُدَّ أنّه شارع نظراً إلى أولئك المستقيمين الذين يمرون. والذين يترقبون وتلك الأقدام والأيدي التي تعنصر وتحمل وتحذر الارتطام بأيّ شيء، وتلك الأفواه التي لا تجرؤ على الصّراخ إلّا بتعقّل وهذه السّماء التي تنزف متعبة من بقائها في الخارج مُحاصرة ومرثية. أحدهم حرّك الكلب بطرف عكازه. كان كلباً أصفر تماماً. لقيط بلا شك. وإن كنتُ أفرّق بصعوبة بين كلب ابن حرام وكلب من سلالة عريقة. لا بُدَّ أنّه نألم في موته أقلّ ممّا نألمت أنا جرّاء السقوط. ثمّ إنّهُ ميّت الآن. وضعناه فوق السّرج. وذهبنا به لا أدري كيف، يُساعد أحداً الآخر على إبقاء الجثة متّزنة، أتصوّر. كان علينا اقتياد الدّراجة والتقدّم بأنفسنا وسط الحشد السّاخر. منزل «صوفي». لا. لا أقدر على مناداتها بهذا الاسم. سأحاول مناداتها «لوس». «لوس» ببساطة. منزل «لوس» لم يكن بعيداً. أوّه لم يكن قريباً على أيّ حال. لدى وصولي إليها نلتُ حسابي. نعتقد فقط أنّنا ننال حسابنا. إنّما ينذر أن يحدث معنا ذلك حقّاً. لم أنل حسابي لعلمي بأنّي وصلت. لو أتيتُ قطعْتُ ميلاً آخر لنلتُ حسابي بعد ساعة. ها نحن ذا. هل عليّ أن أصفّ المنزل؟ لا أظن. لن أفعل شيئاً. هذا كلّ ما أعرفه في الوقت الحاضر. ربّما لاحقاً ورويداً وأنا أكتشفه. و«لوس»؟ يصعب أن نقطع. لنعجّل بدفن الكلب أولاً. هي من حفرت تحت

الشجرة. عادة يدفن الناس كلابهم تحت شجرة. لا أفهم لماذا. أقصد  
 لدي تفسيرى الخاص بي في هذا الشأن. هي التي حفرت مع آتى أنا  
 الرجل. إنها ساقى. ربّما أمكنني أن أحفر بمجرّفة لكن بواسطة رفش فلا.  
 بالرفش هناك ساق تتحمّل الثقل والأخرى تُطوى وتمدّد كي تغرز في  
 عمق الأرض. في حين إنّ ساقى المريضة، لا أدري أيّهما، لا يهّم. لم يكن  
 في وسعها أن تضغط على الرفش لأنّها قاسية ولا أن تصلح لي دعامة  
 لأنّها كانت ستهوى. في الواقع أنا لا أملك سوى ساق واحدة. معنويّاً  
 كنت دائماً وأبداً أحادي الساق. كان سيسعدني أكثر لو أنّهم بتروا لي  
 ساقى من أصل الفخذ. وقطعوا لي بالمناسبة إحدى الخصيتين. كنت  
 سأصير أكثر خفة. ولم أكن لأحتجّ بتاتاً. لأنّ خصيتي تتأرجحان حتّى  
 منتصف فخذي متدلّيتان من جبل هزيل. لم يكن هناك فائدة من هذه  
 الإشارة التي لا أودّ أن تكون لي من ورائها فائدة. بالعكس كنت دائماً  
 أرغب في أن تختفي خصيتاي. إنّهما الشاهدتان الوحيدتان الأقدمان على  
 رحلتي الطويلة. ستتهمني بأنّي خدعتهما، وستشكراني من أعماق  
 كيسهما المفطّس. اليمنى متدلّية أكثر من اليسرى أو العكس. لم أعد  
 أعرف شيئاً عن إخوة السرك. الأخطر هو أنّهما تعيقاني أثناء السير  
 والجلوس كما لو أنّ ساقى المريضة وحدها لا تكفي. وعند ركوبي  
 الدراجة تتأرجحان في كلّ مكان. كان إذن من مصلحتي التخلص منهما.  
 تكفّلت بإزالتهما بنفسى بواسطة سكّين أو جزّازة أغصان. هل كان خوفاً  
 لما رحّلت أرتجف لشدة الوجع الجسمانيّ والجروح المتعفّنة. قضيت  
 حياتي خائفاً من الجروح المتعفّنة. أنا الذي يُفترض أنّ شيئاً لا يعقّني  
 لأنّي كنت دائماً حامضاً. حياتي. حياتي. أحياناً أتحدّث عنها كمهزلة  
 مستمرة إلى الآن. أخطئ دائماً لأنّها انتهت وهي مستمرة في آن. لكن  
 مهلاً. في أيّ زمن وجب تصريف الأفعال ذات الصّلة؟ أينها الساعة التي  
 تتقدّم. الساعاتي يدفن كثيرين قبل موته. يا صاحبة الدواليب اللؤلؤية. التي  
 ستروي يوماً أشياء عن الربّ على نمط الشّعري. لكن في قرارة نفسي يجب  
 أن أكون متعلّقاً بكُرتي الفشار تلك، أن يشدّني الأثر الذي تركاه تماماً

كالأبوم صور جدّتي. على كلّ لم تكونا هما من حال دوني ودون الحفر. كانت «لوس» هي التي تحفر فيما أنا أحمل الكلب بين ذراعيّ. كان ثقيلًا وباردًا لكنّه لم يكن قد بدأ يتن بعد. رائحته كريهة، لكن كريهة لأنّه كلب هرم لا لأنّه نفق. ربّما في المكان نفسه حفر هو أيضاً من قبل. دفناه كما هو دون صندوق أو لفّة من أيّ نوع كأني أخضر مُصفرّ بسلسلته وطوقه. هي من وضعه في الحفرة. أنا لا يسعني أن أنحني أو أركع بسبب عجزّي، ولنفرض أن هذا حدث ناسياً ظرفي مثلاً، فلا نُصدّقوا شيئاً. لا يمكن أن يكون أنا. لا بُدّ أنّه شخص آخر. لا يسعني سوى رميه في الحفرة. بكلّ سرور كنتُ سأقوم بتلك المهمّة. غير أنّي لم أفعل. هناك أمور خالية من الحماس نتطوّع عن طيب خاطر للقيام بها، ولا شيء في الظاهر يعيق قيامنا بها لكن مع ذلك لا نفعل. هل ستحرّر؟ للتّثبت. لكن ما هي مساهمتي في عمليّة الدفن تلك؟ هي من أنجزت الحفرة وهي من وضعت الكلب داخلها وهي من طمرتها بعد ذلك. كنتُ فقط حاضراً. ساهمتُ بحضوري كما لو كان موكب دفني. وهو كذلك فعلاً. كانت شجرة صنوبر. إنّها الشجرة الوحيدة التي أميّزها. أمر عجيب أن تختار لدفن كلبها الشجرة الوحيدة التي أميّزها متأكّداً تماماً. الإبر الخضراء المرتوية توحى بأنّها من حرير مرصّع بنقاط صغيرة حمراء فيما بدا لي. كان هناك قراد تحت أذني الكلب. عيناوي مدرّبتان على التقاط أشياء كهذه. دُفنتُ معه. عندما انتهت من الحفر ناولتني الرّفش وتراجعت. ظننتها ستبكي. حانت لحظته. لكنّها على العكس ضحكت. ربّما كانت تلك طريقتها في البكاء. أو ربّما أخطأت التقدير فلعلّها تبكي فعلاً بصوت يشبه القهقهة. لستُ جيّداً في مجال البكاء والضّحك. لن ترى «تيدي» الذي أحبّته كطفل. أنساءل إن كان لديها نية دفن كلبها لِمَ لم تستدع البيطريّ ليعده على عين المكان. هل كانت حقاً في طريقها إليه عندما اعترضت سبيلي؟ أم إنّها ادعت ذلك فقط كي تخفّف من شعوري بالذّنب. العبادة في البيت تكلف أكثر بطبيعة الحال. في الصّالون قدّمت لي أكلاً وشراباً. مؤكّد أنّهما جيّدان. للأسف لا أحبّ المأكولات الجيّدة كثيراً. لكنّي تخمّرت

عن طيب خاطر. ربّما كانت تعيش في ضيق، لكن هذا لا يُلاحظ. أحسستُ به فوراً. لمّا انتهتُ إلى عسر عملية الجلوس لديّ قَرَبْتُ مِنِّي كرسيّاً أضع عليه ساقي القاسية. وهي تخدمني كانت تروي لي حكايات لم أفهم واحداً بالمتة منها. نزعت عني قَبْعَتِي. أخذتها لتعلّقها من رباطها دون شك. وبدت مندهشة حين خيَّب الرِّباط حماسها. كان لديها بيبغاء جميل جداً. كلّ الألوان المحبّدة كانت فيه. فهمته أكثر من سيّدته. لا أقول إنّي فهمته أكثر ممّا تفهمه هي، بل أقول إنّي أفهمه أكثر ممّا أفهمها هي. كان يردّد من حين إلى آخر، عاهرة الخراء الغبيّة. لا بدُّ أنّه انتمى إلى عائلة فرنسيّة قبل أن يؤوّل إلى «لوس». تُغيّر الحيوانات المالك. لا يقول أشياء أخرى. بلى. يقول أحياناً، تَبّاً! لا يمكن أن يكون من علّمه العبارة فرنسيّاً. تَبّاً! ربّما توصّل إليها وحده. لا أستغرب. «لوس» تحاول أن تلقّنه كلمة «بريتي بولي». أظنّ أنّه قد فات الأوان. كان يسمعها مائل الرّأس. ثمّ يقول، عاهرة الخراء الغبيّة. يُلاحظ أنّه يقوم بمجهود. ستقوم بدفنه هو أيضاً يوماً ما. في قفصه ربّما. أنا أيضاً لو بقيت معها لدفتني. لو حصلت على عنوانها سأكتب إليها بأن تأتي لدفني. نِمْتُ. أفقْتُ عارياً في فراش. لقد تهوّرْتُ إلى درجة أنّها قامت بتنظيفي. الرّوائح التي تنبعث مِنِّي تشي بذلك. اتّجهت نحو الباب. مقفل بالمفتاح. ثمّ نحو النّافذة. مُشبّكة. لم يكن اللّيل قد حلّ تماماً. ماذا يبقى كي يجزّب المرء بعد الباب والنّافذة؟ المدخنة ربّما. بحثت عن ملابسي. عثرت على محوّل فأدرته. دون فائدة. أيّ حكاية هذه! مع ذلك بقيت في المجلّ غير مكترث. وجدت عكازيّ متكتّين على الكنبه. سيبدو عجيباً كوني قمت بكلّ تلك الحركات دون مساعدتهما. أجد هذا غريباً. عادة لا نتذكّر فوراً من نحن حالما نستيقظ. فوق الكرسيّ وجدتُ زهرية ليل<sup>(9)</sup>، في داخلها منديل ورقيّ. لم يُترك شيء للصدفة. أنقل تلك اللّحظات بكثير من التفاصيل الدقيقة لأنّ هذا سيفرّج عني ما سيأتي. أشعر بذلك. قَرَبْتُ كرسيّاً من الكنبه. جلست على

9- زهرية الليل: استعمل مولوي هذه العبارة تعبيراً عن السهارة.

هذا وأرحتُ ساقِي على ذاك. الغرفة كانت مختنقة بالكراسي والكتبات. يحومون حولي في الظلام. كان هناك أيضاً موائد ومقاعد وخزانات. مهمة. إحساس غريب بالاحتفاظ بتلاشي مع النهار خصوصاً وأن الثرياً كانت مضاعة. فقد شغلتُ الموصل وتركته هكذا. تنقصني شعرات في وجهي. انتبهتُ إلى ذلك وأنا أتحتسّس وجهي بيد قلقة. لقد خلّق وجهي واقتلّع اللّجام الذي كانت تشكّله لحيتي. كيف استطاع نومي أن يقاوم كل هذه الألفة. نومي خفيف عادة. بعض الإجابات تخطر في هذا الصّمت. لكنني أجهل أيها صحيح. ربما كانت جميعها سيّئة. لحيتي لا تنبت سوى في الذقن والرقبة. في الأماكن التي ينبت فيها شعر لدى آخرين لا ينبت لي شيء إطلاقاً. لقد قلّمت لحيتي كما هي وربما صُبغت أيضاً، لا شيء يُثبت العكس أو ينفيه. ظننتُ أنني عارٍ في الكنبه والحقيقة هي أنني ارتدي قميص نوم خفيف جداً. ينبغي أن يخبروني بأنهم سيقدّمونني أضحية عند الفجر كي يبدو الأمر في نظري طبيعياً. كم نحن حمقى. خمنّتُ أيضاً أنهم عطّروني بالخزامى ربّما. معرفتي بالعطور متواضعة. قلتُ في نفسي ماذا لو أنّ أمك رأتك في هذه الهيئة. أحبّ المعادلات ما يكفي. بدت لي أمي بعيدة. بعيدة عني. الغريب هو أنني أقرب إليها من الليلة السابقة إذا صدقت حساباتي. بقي هل هي حقاً صائبة حساباتي؟ أمّا إن كنت في مدينة أخرى لا توجد فيها أمي فهذا يعني أنني خسرت الأرض. لا بدّ أنني نمتُ فقد ظهر قمر ضخم من خلال النافذة. قضيّان يقسمانه إلى ثلاثة أجزاء. الجزء الأوسط ظلّ محافظاً على صورته فيما الجزء الأيمن راح يتقدّم على حساب الأيسر. القمر يتحرّك من اليسار إلى اليمين أو أنّ الغرفة تتحرّك من اليمين إلى اليسار. أو الاثنان يتحرّكان معاً في آنٍ واحد. أو يتحوّلان من اليسار إلى اليمين والغرفة أقلّ سرعة من القمر. أو من اليمين إلى اليسار والقمر أقلّ سرعة من الغرفة. هل يجوز الحديث عن يمين ويسار في ظروف كهذه؟ تحولات شديدة التعقيد بصدّد الحدوث. هذا مؤكّد لكن مع ذلك كم هو بسيط أن يدخل ضوء أصفر كبير من خلف القضبان مجدّفاً ببطء فيلتهمه الجدار القاتم إلى أن يحجبه تماماً. هكذا ارتسمت

رحلته الهادئة على الجدار في شكل بقع مخططة من الأعلى إلى الأسفل وخلال لحظات ارتجفت بعض الوريقات. إن كانت وريقات. واختفت بدورها تاركة إياي في العتمة. كم هو صعب ضبط النفس أثناء الحديث عن القمر. إنه أحرق. ينبغي أن يكون دبره هذا الذي يرينا إياه طوال الوقت. تجدر الإشارة إلى أنني كنت مهتماً بالفلك فيما مضى. لا أحب أن أنكر ذلك. ثم اهتممت بالجيولوجيا التي ساعدتني على تجزية الكثير من الوقت. بعدها بالأنثروبولوجيا التي سببت لي القرف مدة قصيرة وبمجالات أخرى مثل البسيكولوجيا التي كنت أتعلق بها وأصرف النظر عنها، لأتعلق بها ثانية كلما ظهرت فيها اكتشافات جديدة. ما يشدني إلى الأنثروبولوجيا هو قدرتها على الإنكار وضراوتها في تعريف الإنسان على غرار الرب أي من النواحي التي لا يساوي فيها شيئاً. غير أنني لم أنجح سوى في جمع أفكار مشوشة مختلطة لمعرفتي المتواضعة بالناس ولجهلي التام لما قد يعنيه أن يكون المرء ———— أووه! لقد جربت كل شيء. في الأخير آل للسحر شرف الاستقرار تحت أنقاضي. واليوم وأنا أتأمل، يمكنني التقاط بعض المخلفات. لكن على الأغلب هو مكان دون شكل أو حدود. غامض حتى من ناحية المواد المستخدمة لبنائه، دون الحديث عن مواضع الأشياء وطريقة ترتيبها. الشيء المخطم لم أستطع تمييز ماهيته. ولا ما الذي كان ولا ما إذا كان له أثر من الأساس، هل كان خليطاً راسخاً بين أشياء خالدة. إن صح التعبير. على أي حال هو مكان لا سر فيه. تخلى عنه السحر لأنه بلا سر. وإن كنت قد قصدته عن طواعية فمؤكد أنني قصدته عن طواعية أكثر من مضيي إلى مكان آخر. مندهشاً ومطمئناً. أعني كما في الحلم. إنما أبداً. أبداً. إنه مكان من النوع الذي تجد نفسك فيه دون أن تدري كيف حدث ذلك. ولا تغادره بمشيئتنا ولا نجد فيه متعة بل بأقل انعدام متعة كما هو الشأن بالنسبة إلى الأماكن التي تغادرها بشكل مؤلم، تلك الأماكن المأهولة بالأسرار، المؤثرة بأسرار معروفة. أصغيت فاستمعت إلى نفسي ألمي عالماً متجمداً يفقد أثرانه تحت وطأة نهار ضعيف هادئ كافٍ ليبصر فيه المرء. تفهمون.

ومتجمّد هو بدوره وسمعت همساً بأنّ كلّ شيء يتقوّس ويعاني كأنّه ينوء بحمل ثقيل. لكن هنا ليس ثمة أعباء ثقيلة. والأرضية أيضاً غير جديرة كفاية - كالنهار تماماً - بالبلوغ بك إلى نهاية لا يجب أن تكون. إذ أيّ خاتمة للوحدة حيث الصّفاء الوحيد لا يشبه رباطة الجأش بل تلك الأشياء المائلة الزاحفة. بسبب انهيارات لا تنتهي تحت سموات دون ذاكرة صباحية أو أملاً مسائياً. تلك الأشياء. أشياء من أين تأتي؟ ممّ صُنِعت؟ يبدو أن لا شيء يتحرّك هنا ولا هو تحرّك من قبل ولا إمكانية ليتحرّك لاحقاً. ما عداي. أنا أيضاً لا أتحرّك دائماً فقط أرى وأظهر أمام نفسي كي تراني. عالم منتهٍ رغم أنّه يبدو خلاف ذلك. نهايته هي التي تحفره. النهاية فيه شرط من شروط البداية. واضح؟ أنا أيضاً انتهيت منذ دخلته. عيناى مغمضتان. معاناتي توقفت وانتهيت أنوء بأحمال لا قبل لأيّ حيّ بها. وما زلت أسمع الصّغير البعيد ذاك الذي صمت منذ زمن بعيد وها أنا أخيراً أسمعه. ما زلت أتعلّم منه الكثير. لكنّي لم أعد أسمعه في الوقت الحاضر لأنّي لا أحبّ هذا الصّغير البعيد بل أخشاه. صوت ليس كالبقية نسمعه حين نكون على استعداد لذلك وفي وسعنا أن نخرسه كلما ابتعدنا أو حين نسدّ آذاننا، يصخب، يصخب في الرّأس ولا أحد يعرف كيف أو لماذا. نسمعه بالرّأس، الأذن تعجز عن سماعه. ليس في مستطاعنا إيقافه. يتوقّف بمفرده لو أراد. أن أسمعه أو أن لا أسمعه لا أهميّة لذلك. أنا دائماً في الاستماع إليه والرّعد لن يتركني وشأني إلّا عندما يتوقّف. لا شيء يجبرني على التحدّث في ذلك إلّا إذا أصبح أحد شؤوني وهذا ليس شأنى الآن على الأقلّ. ما يهمني الآن هو أن أنتهي من حكاية القمر هذه التي ظلّت مفتوحة. وإن كان لا بُدّ أن أنتهي من الأمر بشكل أسوأ ممّا لو كان رأسي كلّ لي فسأبذل قصارى جهدي لأنتهي منه في مجمل الأحوال. بقليل من التّفكير أتوصّل إلى أنّ هذا القمر يملأني بالذهول، بالدهشة إن أردتم. نعم رحتُ أفكر فيه على طريقتي بلا مبالاة، وبرز لي ثانية على نحو ما داخل رأسي فنذّ عني رعب شديد. لم أتأخّر في القيام باكتشاف ما، بعدما بدا لي أنّ مسألة ظهور القمر تستحقّ أن أحشر

أنفي فيها. اكتشافي أو لنقل ما ظلّ عالقاً في ذاكرتي من اكتشافات هو التالي، هذا القمر الذي مرّ مختلاً خلف نافذتي بالأمس وقبل الأمس والذي قبله رأيت شابة نحيفة مستلقية على ظهرها كرقاقة. وقلت لنفسي ها قد راق للقمر الجديد أن يقذف بنفسه في دروب مجهولة تؤدّي إلى الجنوب. ألا يعتبر ذلك تأخيراً بالنسبة إلى رجل ذاهب لرؤية أمّه في الغد. لحسن الحظّ أنّ كلّ شيء يرضخ لمشية القديس «روح» كما يُقال. وإذا لم أقرن هذا الظرف بموضعه فهذا لأنّه من الصّعب الجمع بين الظرف وموضعه. فقط يجب أن نحسن الاختيار بين الأشياء التي لا تستحقّ الذكر وبين التي لا تستحقّ الذكر بصورة أقلّ حدّة. لأننا إذا أردنا الإشارة إلى كلّ شيء فلن نخلص أبداً إلى نتيجة، وهنا بالضبط تكمن المعادلة، أن ننهي أمراً أو أن ننتهي منه. أوه! أعلم ذلك جيّداً. حتّى لو ذكرنا بعض الظّروف الحاليّة وليس كلّها لن أنتهي أكثر فأكثر! لكن على الأقلّ نكون قد غيرنا الغائط، أن نفتفي غائطاً أبعد قليلاً من وقت إلى آخر، وإن تشابه الغائط وهو أمر مستبعد، لا مشكلة بالعكس أمر جيّد أن نغيّر الغائط. أن نرحل كما لو أننا عابرون. وماذا لو أخطأنا، ونخطئ. أقصد ونحن ننقل ظروفاً كان من الأفضل كتمانها ونسكت عن البعض الآخر للعلة نفسها لكن دون سبب كما هو الشأن بالنسبة إلى هذا القمر الجديد. إنها أشياء تحدث عادة بنية طيبة، بنية ممتازة. هل مرّ إذن بين ليلة الجبل، ليلة لصوصي وبين وما أنا فيه وقت أكثر ممّا افترضتُ، خمسة عشر يوماً تامّاً أو تقريباً. في هذه الحال، ماذا حصل للخمسة عشر يوماً التامة أو تقريباً وفيّم انقضت؟ وكيف مهما كان مضمونها أن أطرح إمكانية إدراجها في التسلسل المعقّد للأحداث التي أرويهها؟ ألا تكمن مصلحتي في أن يكون القمر الذي رأيت يومين إلى الورا ليس قمراً جديداً كما ظننت أو أن يكون القمر الذي شاهدته من منزل «لوس» أبعد ما يكون على الاكتمال كما بدت لي الأمور، وأنها لم تعكس في الحقيقة سوى الرّبع أو - أخيراً - هما قمران في الواقع بعيدان واحدٌ جديد وآخر مكتمل، يتشابهان من حيث دائرتيهما إلى درجة أنّ العين تجد صعوبة في رصد الفرق بينهما وأنّ كلّ ما يخرج

عن هذه الفرضيات هو دخان ومجرد أوهام. عموماً بفضل هذه الاعتبارات  
تهدا نفسي وأجد الطمأنينة الروحية التي تساوي ما تساويه في مواجهة  
أذى الطبيعة. وعادني أن النوم هو الذي سيطر فعلاً وأن ليالي كانت دون  
قمر وأن القمر لم يكن له أي دخل في ليالي، حتى إن ذلك القمر الذي  
رأيت يتسكع من خلال النافذة أحياناً على ليالي أخرى، على أقمار أخرى  
وأنني لم أره فعلاً. كنت نسيئاً من أنا (كل الأسباب وجيهة) وربما تحدثت  
عن نفسي كما كنت سأفعل وأنا أتحدث عن غيري. يحصل لي هذا  
وسيحصل لي لاحقاً أن أنسى من أكون، وأن أمضي في الأحداث كما لو  
أني أراقب نفسي بعيني غريب. أرى السماء مختلفة إذن عما هي عليه  
والأرض أيضاً مكسوة بألوان غير ألوانها. يبدو أن ما أنا فيه نقاهة، لكن لا  
شيء من هذا يحصل. مسروراً أنصهر في نور الآخرين، ذلك الذي كان  
يوماً لي. لا أقدر. عندما يحل الغياب يجب أن تكون هناك عودة. هذا كل  
ما أعرفه. البقاء لن يكون ملائماً. المغادرة أيضاً. في اليوم الموالي طلبت  
ملابسي، راح الخادم يذيع الخبر وعاد بخبر يقول إن ملابسني أحرقت.  
تابعت تأمل الغرفة. كانت دون تدقيق مكعباً مثالياً. عبر النافذة العالية،  
لمحت أغصاناً. كانت تميل بلطف لكن ليس في كل الأوقات. ارتعاش  
مباغت فقط من حين إلى آخر. الثريا كانت تضيء، لاحظت. ملابسني،  
قلت، عكازي. نسيئاً أنهما كانا مسندين إلى الكنبه. غادر الغرفة هذه  
المرّة تاركاً الباب مفتوحاً. من فرجة الباب رأيت نافذة أكبر من باب مظلم  
يفضي إلى كل الاتجاهات. عاد الخادم وقال لي إن ملابسني أرسلت إلى  
المصبغة لتُلمع. حمل إليّ عكازي، يفترض أن يشير ذلك استغرابي، لكن  
على العكس بدا لي طبيعياً. أخذت واحدة ورحت أضرب الأثاث، ليس  
بقوة. فقط ما يكفي لقلبه دون إلحاق الأذى به. عددها نقص مقارنة بالليلة  
الماضية. في الواقع كنت أدفعها أكثر ممّا كنت أضربها. كانت مجرد  
طعنات بالسيف وضربات جزم ما سدّت إليها. وطبعاً هذا لا يعني أن ما  
كنت أفعله يسمّى زحزحة رغم أنه أقرب إلى الزحزحة منه إلى الضرب.  
لكن لما تذكرت من أنا ألقيت بالعكاز فوراً. تجمّدت وسط الغرفة وقرّرت

أن لا أطلب شيئاً وأن أتوقف عن التظاهر بالحق. لأنه إن أردت ملابسى وأؤمن حقاً أنني أريد ملابسى ليس هذا سبباً لأنقلب غاضباً لو رفضوا طلبى. عندما وجدت نفسى بمفردى ثانية استأنفت تأمل الغرفة وكنت بالفعل قد أوشكت على العثور على ممتلكات أخرى حين دخل الخادم. قال إن ملابسى فى طريقها إليّ. وانهمك فى ترتيب الأثاث المقلوب وإعادته إلى مكانه وهو ينظفها فى الوقت نفسه بمنفضة ريش تكوّنت فى يده فجأة. ثم سرعان ما تدخلت لمساعدته بكل ما أوتيت من قدرة لآبين بآتي لست غاضباً من أحد. وما عجزى عن القيام بأشياء كثيرة إلا بسبب ساقى القاسية، وأن هذا لا يمنعني من تقديم المساعدة ما أمكنني. كنت أسارع كالمخبول خطوة بخطوة معه إلى إعادة الأثاث إلى مكانه بدقة متناهية. ثم أعقد ذراعى خلف ظهري لأجل جودة التقييم وأنب لأدخل تغييرات غير محسوسة. ثم وأنا أجمع أجزاء قميص النوم، سدّدت للأثاث ضربات حيوية هذه المرة. بعد ذلك الاستعراض الذي لم أقدر على مقاومته جمدت فجأة وسط الغرفة. لكن لما تكهنت أن الخادم يستعد للمغادرة اقتربت منه وقلت، درّاجتي. لبثت أعيد الجملة إلى أن أعطاني مؤشراً بأنه فهمني. هذا الخادم الشامخ ذو العمر غير القابل للتحديد لا أدري إلى أيّ سلالة ينتمي. لم يكن ينتمي إلى البيض على كل حال. كان شرقياً ربّما. أمر مبهم. شرقيّ. طفل من الشرق. يرتدي سروالاً أبيض وقميصاً أبيض وصداراً أصفر كأنه غزال بأفقال ذهبية وصنادل. من النادر أن أعني بما يرتديه الناس بهذا الصفاء، وأنا سعيد لكوني قادراً على تعميم الفائدة. هذا يُفسّر، فطيلة الصّباح والمسائل كلّها متعلّقة بالملابس. ملابسى. وقلت لنفسي على نحو متسامح، انظروا إلى هذا السيّد المطمئن داخل ملابسَه في حين أرقل أنا داخل قميص نوم غريب عني. ربّما هو لامرأة فقد كان وردياً وشفافاً ومزخرفاً بالشرائط والطّيّات والدانتيل. على العكس لم أكن قادراً على التمعّن في الغرفة بشكل جيّد. في كل مرة استأنف فيها التأمّل تبدو لي قد تغيّرت وهذا يُسمّى سوء النّظر فيما توصّل إليه العلم إلى حدّ اليوم. الأغصان أيضاً بدا لي أنّها غيّرت مكانها. كأنها

خُصِّتْ بسرعة مدارية. والنافذة الكبيرة المظلمة لم تكن الباب الثابت الذي يُفضي إلى كل الاتجاهات. فقد تحرّك نحو اليمين أو نحو الشمال لا أدري. بصورة تجعله يستقبل داخل إطاره جزءاً من الحائط الأبيض الذي كان في وسعي أن أعكس عليه ظلالاً ضعيفة وأنا أقوم ببعض الحركات. لكن لتنفّ، لا بُدَّ أن هناك تفسيراً طبيعياً لكل هذا. إذ يبدو أن موارد الطبيعة لا تنفذ. إنه أنا من كان غير طبيعيّ لينسجم بسهولة في نظام الأشياء هذا ولأحتفي برفقته. إنّما كان من عادتي مراقبة الشمس وهي تطلع من الجنوب وأن لا أعرف أين أمضي لشدة ما أن كلّ شيء يسير بشكل عشوائي ودون عواقب. ما من أحد خلفته ورائي ولا من يرافقني. أن يخرج أحدهم للبحث عن أمّه في ظروف كهذه، يجب الاعتراف بأنّه أمر غير لائق. أقلّ لياقة من الذهاب إلى عائلة «لوس» صدفة دون إرادة أو نية مضمرة أو إلى المركز أو إلى أيّ مكان ينتظرني. أشعر بذلك، حين قدّم لي الخادم ملابسي ملفوفة في ورقة، لاحظتُ أن القبعة لم تكن هناك. فقلت، قبعتي. عندما فهم غاب وأحضرها. لا شيء ينقص إذن عدا الرباط لشدّ القبعة إلى العقدة. لكنّي يئست من أن يفهمه فلم أضف كلمة واحدة. يمكن العثور على رباط قديم في أيّ مكان، إنه ليس أمراً مستحيلاً. ولا هو بالشيء الخالد. كما هو الشأن بالنسبة إلى الملابس بأنّهم معنى الكلمة. أمّا الدّراجة فكان لديّ أمل في أن أجدها في انتظاري في مكان ما عند الأسفل. بل طمعتُ في أن تكون متكئة على العتبة. مستعدة لتقلّني بعيداً عن هذا المكان الرّهب. ثم إنّي لا أرى موجباً للّجوء إلى التلميح مجدّداً وأن نفرض مشقة أخرى على أنفسنا فيما هناك سبيل لتجنّبها. خطرت لي هذه العبارات بسرعة معيّنة، فتّشت جيوبي الأربعة أمام الخادم ولاحظت أن محتواها لم يكن تاماً. حصاة المصّ لم تكن موجودة، يمكن العثور على واحدة في شواطئنا شرط أن نعرف أين نبحت، وارتأيت أنّه من الأفضل أن لا أتفوّه بكلمة بهذا الخصوص، إذ لا أعتقد بعد ساعة من النقاش أنّي سأجني نتيجة أكثر سخاء من إحضاره من الحديقة. أحجارها غير قابلة للمصّ بتاتاً. اتّخذت هذا القرار فوراً، أمّا عن بقية الأشياء

المختفية فلمَ قد أتحدث عنها بما أتني لا أعرف ما هي تحديداً. ربّما  
 انتزعت مني في المخفر أثناء إيقافني، أو فقدتها عندما سقطتُ أو ربّما في  
 وقت آخر. غير مستبعد أن أكون قد فقدتها عن طريق التخلص منها رمياً.  
 إذ يحدث أن أرمي بكلّ ما في حوزتي بأمر من مزاجي. ما فائدة الحديث  
 إذن، وقررتُ أن أعلن بأنّي فقدتُ سكّيناً. سكّيناً جميلاً. أتقتن دوري  
 فحصلتُ على سكّين خضر لا يصدأ لكنّه لم يأخذ مني وقتاً طويلاً حتّى  
 جعلته يصدأ. يفتح ويغلق بواسطة زرّ في أعلى المقبض. سعيّتُ لأحصل  
 عليه مقابل كلّ سكاكين الخضر التي عرفتها والتي كانت مجهزة بشفرة  
 حادة اكتشفتُ لاحقاً أنّها عاجزة عن صدّ أيّ شيء مهما كان. ما سبّب لي  
 جروحاً لا تُحصى على طول أصابعي العالقة بين القرن الإيرلندي الأصلي  
 (يُقال) وبين النصل الخشن، المُحمّر من الصدأ الذي لا يسبّب جروحاً  
 في نهاية الأمر بل رضوضاً، وما استغراقي طويلاً في الحديث عن هذا  
 السكّين إلّا لأنني حملته دائماً معي بين ممتلكاتي وما تحدّثت عنه هنا في  
 هذا المكان إلّا لأنني لستُ متأكداً من القيام بذلك في وقت لاحق. ولو  
 قدّر لي أن أقوم بمجرد لممتلكاتي، سأكون دائماً مرتاحاً في الأوقات التي  
 أحتاج فيها إلى أن أكون مرتاحاً، حدسي يخبرني بذلك، إذ مع ما خسرته  
 طيلة حياتي من الطبيعي أن أتوسّع بصورة أقلّ مع ما بقي لي. هذا غنيّ عن  
 البيان، وإن كان ظاهري لا يدلّ كثيراً عن كوني أبنى هذا المبدأ، فلاّته  
 يخونني أحياناً، يختفي كأنّه لم يبدّر مني يوماً. جملة مجنونة لكن لا يهمّ.  
 هذا لأنني لا أميز كثيراً ما أنا بصدد فعله. ولا لماذا. إنّها أشياء بات إدراكي  
 لها يتدهور شيئاً فشيئاً. ليس لديّ ما أخفيه، لمَ قد أخفي أمراً ولماذا وعلى  
 من؟ أعلّيكم أنتم الذين لا شيء يخفي عنكم؟ ثمّ إنّ الإفصاح يملؤني. لا  
 أدري. يستحيل عليّ التعبير. بالنسبة إليّ في هذه الآونة بعد كل هذا الزّمن  
 الذي مرّ. تفهمون أنّي لا أتوقّف أبداً أمام معرفة أيّ مبدأ رجحت كفته  
 أخيراً. وبصورة سلبية مهما فعلتُ. أقصد ما قلتُ. ستسير الأمور على  
 الوتيرة نفسها، نعم الوتيرة نفسها والنمط نفسه، وما دمتُ أتحدّث عن  
 مبادئ لا وجود لها فما عسى أن أفعل لأجلها. لا شيء. لا بدّ أن هناك ما

يمكن القيام به في هذا الشأن. فأن يقوم المرء بالشئ نفسه دائماً، هذا لا علاقة له بالثبات على مبدأ واحد، هذه أيضاً لا يمكنني تغييرها، ثم كيف يمكن إثبات الثبات من عدمه، وكيف أصلاً يخطر لنا أن نرغب في ذلك. كلا. كل هذا لا يستحق أن نتوقف لأجله، مع ذلك نتوقف. نتوقف غير واعين بالقيم، أما الأشياء التي تستحق فنحن لا نقف عندها، نهملها للأسباب نفسها أو ربما من باب الحكمة، علماً أن قصص القيم ليست معدة لكم أنتم، أولاء الذين لا يعرفون تماماً ما الذي يفعلونه ولا لماذا، أنتم الذين تستمرون في جهل ذلك تحت دواع أتساءل ما هي، أتساءل حقاً ما هي. لم أتعرض في حياتي لفكرة أفزع من القيام بأمر أجهل ما هو ولا لِم أقوم به، وهذا لا يثير غرابتي لأنني ببساطة لم أجربه، فقد كنت سأتوصل إلى نتيجة أفزع بكثير من التي تراودني حقيقة لو انسقت للإغراء الذي وراء الحصول عليها. هذا ما أعرفه عن نفسي على الأقل، ما أملكه. ما أنا عليه يكفيني. كفاني دائماً. أما بالنسبة إلى حبي المستقبل الصغير، أنا مطمئن ولست على استعداد لأضجر. ارتديت ملابس بعد ما أقمعت نفسي بأن شيئاً لم يتغير فيها، أي إنني لبست بنطلوني وقبعتي ومعطفي وحذائي، حذائي يصل إلى المستوى حيث من المفترض أن تكون ربلتي، لو كان لي ربلتان، ويزر حتى المتصف، منتصف الأزرار لو كان فيه شريط أزرار ومربوط حتى منتصفه أيضاً، لقد رافقني دائماً، ثم تناولت عكازي وغادرت الحجرة. انقضى اليوم بأكمله في هذه الحماقات، وها هو ذا الغسق من جديد، عند نزول الدرجات تفحصت النافذة التي كنت أشاهدها عبر الباب، كانت ترسل النهار إلى السلم. يوم داكن وعنيف. وكانت «لوس» في الحديقة منهمكة في تهذيب قبر الكلب، كانت تزرع العشب فوقه كما لو أن العشب لم يكن لينبت وحده، مُستغلة انخفاض الحرارة، لما رأنتي جاءت نحوي بود، وقدمت لي الأكل والشراب. ظللت واقفاً أبحث بعيني عن دراجتي، كانت تتحدث وسرعان ما أحسست بالتخمة ورحت للبحث عن الدراجة. تبعتنى. انتهى بي الأمر في اتجاهها وقد التهمها دغل رخو حتى منتصفها، ألقى بعكازي على

السَّرج والمَقود وأخذتها بين ذراعيّ بنية إدارة عجلاتها إلى الأمام وإلى الخلف قبل ركوبها والابتعاد إلى الأبد عن هذا المكان الملعون، عبثاً، لم تتحرّك العجلات، كأنّ مكابحها مشدودة بقوة، الأمر الذي لا يُمكن أن يُفسّر عنادها لأنّها لا تملك مكابح من الأساس، فجأة انتابني شعور بالتعب، رغم أنّها كانت ساعة حيويّتي القصوى، رميتُ بالدراجة في الدّغل واستلقيتُ على الأرض غير مكترث بالرطوبة، لم أصدّق الندى يوماً، انتهزت «لوس» فرصة ضعفي وقرفت بجانبي وراحت تقدّم لي عروضاً اعترف أنّي أصغيتُ إليها بنوع من التسلية، إذ لم يكن لديّ ما أفعله عدا ذلك، أو الأحرى لم أكن قادراً على فعل شيء آخر، ثمّ لا شكّ في أنّها دسّت لي في جعتي مادة سبّبت لي الوهن، سبّبت لمولوي الوهن، إلى الحدّ الذي صرّت معه لا أكثر من شمع يذوب، من بين اقتراحاتها التي أملتُها عليّ ببطء حريصة على تكرار كل فصل، عدّة مرّات، خلصتُ إلى الأمور التّالية، وهي الأهمّ في الواقع، ليس من حقّي منعها من الإشفاق عليّ، هي بالمثل أيضاً، أقيم عندها وأعتبر نفسي في بيتي، سيكون لي بصورة لاثقة ما أكل وأشرب وأدخن إن أردتُ وستسير حياتي دون هموم، سأعوّض على نحو ما الكلب الذي خسرتُه والذي يعوّض بدوره الطّفل، أساعد في المنزل وفي الحديقة متى شئتُ لو رغبتُ في ذلك، لا أخرج إلى الشارع لأنّي بمجرد الخروج لن أتمكّن من العودة، اختار إيقاع الحياة الذي يناسبني، ساعة يقظتي، موعد نومي، مواعيد الأكل التي ترضيني، ما إذا كنتُ أحبّ النظافة أم لا، الاغتسال، الملابس اللّائقة إلخ... لستُ مرغماً على شيء مُطلقاً، قالت إنّها كئيبة، أيّ كآبة لديها مقارنة بكآبتي؟ كلّ ما ترجوه هو أن أبقى في منزلها، معها، أن تتأمّل هذا الجسم الرّائع من حين إلى آخر في مواقفه، ذهابه وإيابه، كنت بين الحين والحين أقاطعها لأسألها في أيّ مدينة أنا، لكن إمّا أنّها لا تفهمني أو أنّها تتعمّد إبقائي في الجهل، لم تكن تجيب عن هذا السّؤال، بل واصلت خطابها عائدة بصبر لامتناهٍ إلى ما كانت تقوله ثمّ برويّة وبلطف شرعت في عرض المزايا التي كنتُ سأبني مقاومتني على غيابها، والتي

حدثت أنها أكثر ما يستهويني، إلى أن ساد العدم فيما عدا صوتها الرتيب،  
 الذي يقطع سكونة الليل والذي يزداد سمكاً، وكانت رائحة التراب الندية  
 ورائحة زهره تضرع عطراً شديداً لم أميزه في حينه لكنني ميزته فيما بعد  
 على أنه عطر خزامي، هناك شعّب منها في كل أرجاء الحديقة فـ «لوس»  
 تحبّ الخزامي، لا بدّ أنها باحت لي بذلك ولا كيف أمكنني أن أعرف؟  
 تحبّها أكثر من جميع الزهور والحشائش، بسبب رائحتها وسنابلها  
 ولونها. كان عليّ الحفاظ على حاسة الشم كي أتذكر «لوس» حالما أستم  
 رائحة الخزامي بفضل آلية الاقتران المشهورة، أرّجح أنّها تقطف الخزامي  
 لدى نضوجها، تجفّفها وتوزّعها على أكياس تضع منها في خزائنها لتعطير  
 مناديلها وجسمها ومنزلها. من حين إلى آخر كنتُ أسمع الساعة تدقّ  
 بالأجراس والتقر بصفة مطوّلة ثم فجأة بصفة مقتضبة، ثم من جديد بصفة  
 مطوّلة، لتفهموا الوقت الذي قضيته مستلقياً، واستغرقت «لوس» لتوقع  
 بي، صبرها وطاقة تحمّلها الجسدية لأنّها خلال ما مرّ من وقت ظلّت  
 مقرّصة وقاعدة، بالقرب مني بينما كنتُ أنا ممدداً على العشب مرّة على  
 ظهري ومرّة على بطني ومرّة على الجانب ومرّة على الجانب الآخر، لم  
 تتوقّف عن الكلام ولم أكن أفتح فمي إلّا لأطلب من بعيد، أبعد فأبعد،  
 أضعف فأضعف، في أيّ مدينة نحن. لعلّها كانت واثقة من نفسها، كانت  
 على وعي بأنّها بذلت قصارى جهدها لإقناعي وأنّ المزيد من الإلحاح  
 لن يفيد في شيء، المهمّ أنّها نهضت وذهبت إلى حيث لا أدري، لأنّي  
 مكثتُ في مكاني نادماً قليلاً. ففي داخلي كان هناك دائماً مهرّجان، لنقل.  
 الذي لا يطلب شيئاً عدا البقاء حيث يوجد، وآخر يظنّ أنّه سيكون في  
 حال أقلّ سوءاً في مكان آخر، أي إنّي كنتُ دائماً ألقى العناية في هذا  
 المجال، أنا أمنح هذين المتواطئين التعيسين فرصة التدخّل بالتناوب  
 لأحملهما على الوعي بخطئهما. وتلك الليلة لم تكن مسألة قمر أو أيّ  
 نوع لآخر من الضياء، بل كانت ليلة إصغاء مندورة للحفيف والتهنّدات  
 التي تهدهد حديقة النزهة المؤلّفة من سيقان وبتلات وأوراق خجولة  
 وهواء يجري بشكل مغاير عما هو عليه في الخارج حيث ثقل الإكراهات،

وعلى خلاف نهار الحراسة والعقاب وحيث هناك أشياء أخرى غامضة ليس من الهواء ولا ممّا ينشره في شيء، لعلّه الضجيج البعيد المتكرر الذي تصدره الأرض والذي من المؤكد أنّ الأصوات الأخرى تخفيه، لكن ليس إلى الأبد. لا أحد حقيقة ينتبه إلى هذا الصوت القادم من الأرض، عندما نصيح السمع ساعة يبدو أنّ كلّ شيء قد صمت. وهناك ضجيج آخر، ضجيج حياتي التي جعلت منها هذه الحديقة حيث تشبّك أرض الهوّات والصّحارى حياتها. نعم، يحدث أن أنسى لا فقط من أنا بل وأيضاً ما أنا، وأن أنسى أن أكون، لم أعد إذن تلك اللعبة المُقفلة التي عليّ أن أكون مُصبراً في داخلها، بل سوراً يعلو ويمتلئ أغصاناً وسيقاناً رصينة ودعاعات مثلاً، دعاعات مئة منذ أمد طويل وقريباً ستُحرق، إجازات ليلية ومحض انتظار للشمس وأيضاً صرير الكوكب الذي يملك الآن مكاناً جيداً لأنّ الشمس تندرج نحو الشّتاء، الشّتاء وحده قادر على قشرتها الساخرة، تلك التي كنتُ دائماً بالنسبة إليها السّكينة العابرة، ذوبان الثلوج الذي لا يُغيّر شيئاً، وهول البدايات. لكن هذا لا يحدث معي في كلّ حين، جلّ الوقت أظّل داخل علبتي التي لا تعرف فصولاً أو حدائق، وهذا أفضل، لكن هنا يجب أن نحترز، علينا أن نطرح الأسئلة على أنفسنا، مثلاً تلك المتعلقة بما إذا كنّا موجودين بعد، إن كانت الإجابة بالنفي فمتى ينتهي كلّ هذا، وإن كانت نعم فحتى متى سيدوم ذلك؟ عن الأشياء التي تمنعك من فقدان خيط الحلم. أنا أتساءل عن طواعية السّؤال تلو الآخر، لا شيء إلا لأتملّ من الأسئلة. لا ليس عن طواعية بل عن قصد، كي أصدّق أنّي ما زلتُ هنا، إنّما لا يعني لي كثيراً كونى ما زلتُ هنا، أسْمِي هذا تفكيراً، أفكر دون توقف تقريباً، لا أجرؤ على التوقف، ربّما لهذا السّبب ما زلتُ بريئاً، كانت براءتي دائماً معبّرة ومقصومة الأطراف، وكنتُ دائماً سعيداً بها، نعم سعيداً كفاية. شكراً كفاية كما قال لي يوماً صبيّ التقطتُ له كعكة، لا أدري لِم فعلتُ ذلك. لا شيء يُجبرني، بل ربّما فضّل أن يلتقطها بنفسه. أو ربّما لم يكن يجدر من الأساس التقاطها. ثمّ لا ننسى المجهود الذي كلّفني التقاطها بسبب ساقى القاسية. الكلمات

حُفرت في ذاكرتي إلى الأبد، بلا شك لآتي فهمتها، من الوهلة الأولى،  
 الأمر الذي نادراً ما يحصل، لا لأن سمعي ثقيل، أبداً، فأذناي مرهفتان  
 والضجيج الذي لا يحمل معنى معلوماً في طياته أتلّقه أفضل من أيّ كان.  
 ما كان ذاك إذن؟ خلاً في الإنصات ربّما، لا يتردّد صدهاء إلا مُحطّماً عدّة  
 مرّات أو أنّه لا يتردّد إلا عندما نشاء نحن ذلك. عند مستوى أقلّ من  
 الجدال إن كان هذا قابلاً للإدراك، وهو قابل للإدراك فعلاً ما دمتُ قد  
 أدركته، نعم، أسمع الكلمات، بل أسمعها بشكل جيّد جداً، أسمعها مرّة  
 أولى ومرّة ثانية، وأحياناً مرّة ثالثة، كما لو أنّها أصوات نقيّة متحرّرة من  
 كل دلالة. ربّما لهذا السبب فإنّ الحوار بالنسبة إليّ يشكّل عمى لا يوصف  
 والكلمات التي أنطق بها غالباً ما ترتبط بجهد يتطلّب الذكاء، في أحيان  
 كثيرة يُحدث ذلك في داخلي وقعاً شبيهاً بطنين الحشرات. وهذا ما يُفسّر  
 كونني مقلّاً في الكلام، مُشكّلي مع الفهم لا تقف عند ما يقوله لي  
 الآخرون، بل تتجاوز ذلك لتشمل ما أقوله أيضاً. صحيح أنّنا مع القليل  
 من الصبر سينتهي بنا الأمر لتتفق مع بعضنا. لكن نتفق حول ماذا؟ أنا  
 أسألكم، نتفق حول ماذا ولأيّ غاية؟ بالنسبة إلى الشائعات والمؤلّفات  
 أعتقد أنّي أردّ الفعل إزاءها بالطريقة نفسها دون هاجس الخروج بعبارة.  
 عيناياً أيضاً، الصّالحة منهما أقصد، لا أظنّها موصولة بالشبكيّة جيّداً، فأنا  
 أسيء وسم الأشياء التي تنعكس عليها بصفاء. ودون الحاجة إلى القول  
 بأنّي أرى العالم عاليه أسفله (كم كان ذلك أسهل) مؤكّد أنّي أراه على نحو  
 مبالغ فيه دون أن أكون ذوّاقاً أو فتاناً ليتسنّى لي ذلك. وبما أنّ عيناياً واحدة  
 من عينيّ تعمل بشكل مقبول، فأنا أسيء تقدير المسافة بيني وبين العالم  
 وغالباً ما أتقدّم بيد ممدودة إلى الأمام نحو ما هو في غير متناولها، وأرتطم  
 أحياناً بأجسام صلبة بالكاد تُرى في الأفق. لكن يبدو أنّي أبلّيتُ دائماً  
 كذلك، حتّى عندما كانت كلتا عينيّ سليمتين، ربّما أكون مخطئاً فقد  
 مضى زمن طويل على تلك الفترة من حياتي، ولا أحتفظ منها سوى  
 بذكريات أكثر من مُشوّهة، ثمّ بدفع التفكير أعمق قليلاً، يمكنني الجزم أنّ  
 محاولاتي في تمييز الطّعم والرائحة ليست أفضل حالاً فأنا أستمّ وأندوّق

دون معرفة ما الذي بين يديّ ولا إن كان لذيذاً أو رديئاً ونادراً ما يصلني الشعور نفسه بشكل متكرر. أعتقد أنّي مشروع زوج رائع. عاجز عن أن يملّ زوجته أو يخونها إلّا بدافع التسلية. يستحيل عليّ الآن أن أخبركم لم بقيت مع «لوس»، مدّة ليست بالهيّنة، أقصد ربّما بقليل من المعاناة أقدر أن أفعل بلا شكّ، لكن لمّ قد أفعل؟ لأثبت بطريقة صلبة أنّي ما كنتُ البتّة لأقوم بشيء آخر؟ ألهذا وحده قد تؤول بي الأمور بشكل قاتل؟ أحيثُ صورة ذلك الشّيخ «غولانكس»<sup>(10)</sup>، الذي مات شاباً والذي منحني حرّية تأويل السّواد المحيط بسفينته، بسفينة أوديسيوس (أوليس) فبات الصّواب هو أن أغرق نفسي تحت الجسر عند الشّروق، تحت، هي الحقيقة منذ البداية، إنّها الحرّية الأسمى التي لا تجوز إلّا للذي لا يملك روح الرّواد الطلائعيّين. وعلى متن مؤخّرة السّفينة المنحنية فوق الموجة أنظر إلى الأخدود المغرور الذي لا طائل منه في عينيّ عيد مبتهج بحزن مثلي. على ظهر سفينة لا تقلّني إلى أيّ مكان ولا تأخذني إلى أيّ غرق. لقد أمضيتُ إذن أوقاتاً جيّدة لدى «لوس». ضبابيّ أن نقول بأنّها كانت أوقاتاً طيّبة، هي أشهر ربّما، لعلّها سنة، أعرف أن الطّقس كان حارّاً يوم رحيلي تماماً كما كان يوم قدومي لكن هذا لا يعني شيئاً من جهتي، حيث يكون الطّقس حارّاً أو بارداً أو لطيفاً على امتداد السّنة، تلك التي لا ترقى فيها الأيام المرتفع بسلاسة. أبداً لا تفعل. ربّما تغيّرت تلك الأمور منذ ذلك الزّمن، أعرف فقط أن الطّقس الذي رحلتُ فيه يشبه الطّقس السائد يوم مجيئي، هذا إذا سلّمنا بأنّي مُخوّل لمعرفة الطّقس الذي أتيت فيه. على مدى فترة طويلة عشتها في الخارج في كلّ الظّروف حتّى إنّني أفرق بينها جيّداً، جسمي يميّز بينها، بل يبدو أنّ لديه أوقاتاً يفضّلها على غيرها، أعتقد أنّي أشغل غرفاً كثيرة، الواحدة تلو الأخرى أو بالتداول، لا أدري،

10- غولانكس: فيلسوف بلجيكي مات بالطاعون سنة 1969 عن سنّ تناهز الـ 45. تخيل غولانكس أنّ سفينة أوليس - أوديسيوس - المهملة والمنهالكة قد وقع استبدال كلّ أجزائها حتّى آخر مسمار فيها، وطرح السّؤال الفلسفيّ هل بالتالي نكون قد ألغيناها من الوجود أم إنّها ستظلّ دائماً سفينة أوليس التي نعرفها.

في رأسي هناك العديد من النوافذ. أنا متأكد من ذلك. لكن ربّما هي واحدة فقط تُفتح بصورة مختلفة في وجه هذا الكون. المنزل لا يتحرّك، ربّما هذا ما أقصده حين أتكلّم عن غرف عديدة. المنزل والحديقة كانا ثابتين بفضل لست أدري أيّ مأكينة تعويض تقف وراء ذلك. وأنا. أنا حين أكون في فترة هدوء، فما أفعله أغلب الوقت هو البقاء مُستمرّاً إذن، وحين أتحرّك فأنا أفعل ببطء شديد كما لو أنّي داخل قفص خارج الزمن كما يُقال في الأوساط التلمذية، بالطبع خارج الفضاء أيضاً. فأن تكون خارج أحدهما دون الآخر فهذا لا ينفرد به من هم أخبث منّي. أنا الذي لم أكن خبيثاً يوماً، بل أبله على الدوام، لكن قد لا أكون محقّقاً تماماً، وكلّ تلك النوافذ التي تُفتح داخل رأسي حين أميل بذاكرتي نحو تلك الفترة، كانت موجودة حقّاً وما زالت توجد رغم أنّي لم أعد هناك. أعني أنّي بصدد مشاهدتها، أفتحها وأغلقها أو أنّي مختبئ في ركن من الغرفة بصدد الاندهاش من الأشياء التي تحيط بها. لن أهوي بثقلي على فترة قصيرة تدعو إلى السخرية في مجملها، فقيرة ومُحملها رديء، لأنّي لا أساعد في المنزل ولا في الحديقة وليست لديّ فكرة عن الأشغال التي تُنجز، ليل نهار والتي يصلني ضجيجها مكتوماً وجافاً أيضاً، ثم صوت الهواء أحياناً، الهواء المطرود بقوة فيما يبدو، والذي هو ببساطة صوت احتراق. أجد الحديقة على المنزل، استثناساً بالحكم الذي كوّنته على امتداد ساعات طويلة أفضيها فيها، فأنا أقضي جزءاً كبيراً من اليوم ومن الليل سواء كان الطقس جميلاً أو سيّئاً. كان هناك رجال يتداولون عليها باستمرار، منشغلين بلست أدري أيّ أعمال، الحديقة تبقى دائماً على أصلها يوماً بعد يوم، صورة مجرّدة للتغيرات المنجزة، عن الدّورة المعتادة للولادة، حياة وموت. وسط هؤلاء الرجال كنتُ أهيم كورقة ميتة، كالنابض حيناً وممدّداً حيناً آخر، كانوا يتخطّونني بحذر كأنّي روضة زهور صغيرة ثمينة. في النهاية أظنّ أنّهم يقومون بذلك حفاظاً على الحديقة كي لا تفقد ألقيها. اختفت درّاجتي مجدّداً، أحياناً تراودني فكرة التفتيش عنها لأراها ثانية لأكون فكرة عن حالتها، أو لأذهب بها في نزهة في الممشى والممرّات

التي تربط بين مختلف أجزاء الحديقة، لكن بدل محاولة إطفاء رغبتني، أظّل هكذا أراقبها تذوي وريداً، إلى أن تتلاشى في الأخير، كما في التعبير الشهير الذي يروي انكماش جلد الحمار. مع فارق وحيد هو أنّ ما يحدث معي يحدث بصورة أسرع، لأنّ ثمة على ما يبدو طريقتين للتعامل مع الرغبات، الحركية والتأملية، ومع أنّ كليهما يفضي إلى النتيجة نفسها إلا أنّني أفضل الثانية. قضية مزاج بلا شك. يحيط بالحديقة جدار عالٍ رُشقت على سطحه شظايا زجاج في شكل زعانف، لكن كان هناك على غير المتوقع كوة واضحة تفتح على الشارع، لم تكن الكوة مقفلة بالمفتاح، أنا شبه متأكد أنّي فتحت تلك البوابة وأعدتُ غلقها مرّات عديدة ليلاً ونهاراً لأرى إن كان هناك من يجتازه من الجانبين. كنتُ أضع أنفي في الخارج ثم سرعان ما أدخله، ملاحظات أخرى، أبداً لم أر شتاءً في هذه المحمية، وكلمة محمية لا أعني بها الحديقة فقط كما يُفترض بلا شك بل المنزل أيضاً، رجال باستثناء «لوس» بطبيعة الحال، ما أراه وما لا أراه لا يعني الكثير كما هو معلوم لكن لا بأس من الإعلان عنه. نادراً ما كنتُ أرى «لوس»، لم تكن تظهر لي أبداً، من باب الرصانة ربّما، خشية أن تروّعني، لكن أعتقد أنّها تتجسّس عليّ كثيراً، مختبئة خلف الشجيرات أو الستائر، أو كامنة في غرفة في الطابق الأول، مسلّحة بمنظار مقرب ربّما. ألم أقل إنّها تأمل قبل كلّ شيء في مراقبتي أثناء ذهابي وإيابي، وإني لستُ هنا إلا لأنعم بالراحة؟ ولترى جيّداً هناك ثقب القفل والأبواب المحشورة في تشابك النباتات، باختصار كلّ ما من شأنه أن يحول دونها ودون الانتباه، وفي الوقت نفسه لا يتيح النظر للشيء إلا في شكل مقاطع مُعيّنة، أليس كذلك؟ نعم إنّها تدقّق في تفاصيلي، قطعة قطعة، ولا شك أبعد من ذلك هي تلاحقني في نومي، نعاسي ويقظتي والصباح الذي أنامه. من هذه الناحية بقيتُ مخلصاً لعاداتي، أقصد النوم في الصباح إذا نمتُ، إذ يحدث أن لا أنام أياماً عديدة دون أن أشعر بأدنى انزعاج. فأمسي كان بمثابة نعاس طويل، لا أنام في الموضع نفسه أبداً. لكن تارة أنام في الحديقة لأنّها شاسعة وتارة أنام في المنزل لأنّه شاسع أيضاً، كبير بحق، هذه

البعثرة في أماكن النوم، ومواعيدها، لا بُدَّ أنَّها تملأ «لوس» بالرضا وتُضي لها وقتها بشكل رائع، أتصور. فقط لا طائل من التركيز على تلك الفترة من حياتي. سأصدق يوماً أنَّها حياة لشدة ما كرَّرت الكلمة، إنَّها أساليب الدَّعاية، تلك الفترة من حياتي تجعلني أفكر، لو فكَّرتُ، في الهواء المحصور في قناة ماء. أضيف فقط أنَّ هذه المرأة، استمرت في تسميمي على نار هادئة بدسَّ لا أدري أيَّ مائة ساقية في شرابي أو أكلي أو الاثنين معاً، وبالتناوب، يوماً في هذا ويوماً في الآخر. اتَّهام خطير أصرَّح به الآن لكنِّي لستُ أطلقه من عدم، ولا بدافع الحقد، ليس بدافع الحقد أبداً أنَّ اتَّهمها بدسَّ مساحيق وسوائل شرييرة دون طعم في أكلي. وحتى لو كان لها طعم ما الذي كان سيتغيَّر، كنْتُ سألتهما الشَّراهة نفسها تماماً. ذلك اللُّوز التَّن مثلاً، لم يكن البتَّة ليفقدني شهيتي. شهيتي! لتحدَّث عنها قليلاً، يا لها من أمر خارق شهيتي هذه. اكتسبتها صغيراً جداً، أكل كعصفور. أبتلع بلهفة يوسم بها الأكلة الكبار على وجه الخطأ، لأنَّ الأكلة الكبار يأكلون ببطء وينسق منتظم، هذا ما يجعل منهم أكلة كباراً. أمَّا أنا، فأهجم على الصَّحن الوحيد أبتلع نصفه أو ربعه في لقمتين كحوت مفترس، أعني دون مضغ، ثمَّ لِمَ تريدون مِنِّي أن أمضغ؟ بعد ذلك أدفع عني الصَّحن بعيداً، بتقرَّز. ربَّما ذهب في الظنَّ أنَّي أكل كي أعيش، وبالطَّريقة نفسها أزدرد خمساً وستَّ آيات جعة ثمَّ لا أشرب شيئاً مدَّة أسبوع. ما رأيكم؟ نحن ما نحن عليه، أليس كذلك؟ إجمالاً على الأقلَّ. إمَّا لا شيء لنفعله أو القليل جداً. أمَّا الموادَّ التي كانت تخدع بها مختلف أنظمتي، فلا أدري إنَّ كانت محفَّزات أو محبطات. في الواقع من وجهة نظر السِّينيستازيا كما سمعتهم يردِّدون، أشعر أنَّي قريب من عاداتي، لنقل - مهلاً حذارٍ يبدو أنَّي سأفقد السَّيطرة - إنَّي أشعر بتوتُّر مزلزل إلى درجة أفقد معها الإحساس إنَّ لم أقل الوعي، فأصبح في قاع خدر رحيم تجوبه بروق فظيعة، أقول هذا كأنَّه أمر مُشرف. ماذا في وسع أتباع «لوس» القيام به إزاء اتزان مشابه. خاضعين لدفق متناهٍ الصَّغر لإطالة اللذَّة أكثر وقت ممكن. أن يظلَّ الأمر كذلك. لا. لا يمكنني التحمُّل، فعمدْتُ بين

الحين والحين إلى أن أقوم بفقرة مستقيمة في الهواء خطوتين أو ثلاثاً  
 على الأقل، أنا الذي لا أقفز أبداً، كان ذلك بمثابة التحليق. يحدث معي  
 أيضاً أمرٌ أقل إثارة، وهو أن أتهاوى تاركاً جسمي يختر فجأة، بينما أسير  
 مستنداً على دعامة على طريقة دمية متحركة قطعوا عنها الخيوط، ثم أظل  
 ملقى على الأرض فترة منزوع العظم تماماً، نعم يبدو لي هذا أقل غرابة  
 لأنني معتاد على حالات الوهن، لكن مع هذه التجربة الجديدة يمكنني  
 التنبؤ بما سيحصل خلال ثوانٍ وأشعر بأنني آخذ استعداداتي كما كان  
 سيتصرف مصاب بالصرع حَدَس اقتراب نوبة. أردتُ القول لعلمي بأنني  
 سأسقط، أتمدّد أو أستند جيداً وأنا قائم ببراعة ليس في وسع شيء أقل  
 قوة من زلزال زحزحتي. وأنتظر. إنّما هذه الاحتياطات لم أكن أكلف  
 نفسي عناء القيام بها دائماً، غالباً كنتُ أفضل السقوط على النوم أو الثبات  
 بين الدعامات. في حين إنّ السقوط الذي كنتُ أمارسه عند «لوس»، لم  
 يكن لديّ في شأنه متسع من الوقت لتجنبه. مع ذلك كانت تباغتني. كان  
 من بين دوافعي الأكبر تفهّمها لقفزاتي، لما كنت طفلاً أذكر أنني قفزتُ. لا  
 السخط ولا الألم كانا قادرين على تحفيزي كي أقفز، حتى عندما كنتُ  
 طفلاً، هذا إن كنتُ مخوَّلاً للحديث عن تلك الفترة، صحوّني كنتُ أكلها  
 كيف ومتى وأين يلائمني، لم أكن أطلبها أبداً، كانت تأتيني حيث أنا في  
 طبق. ما زلتُ أرى الطبق، يمكنني استحضار صورته متى شئتُ. مستديرٌ  
 بحافة صغيرة لمنع سقوط الأشياء، ومغطّى بالورنيش الأحمر. مشروخ  
 في عدّة مواضع. كان صغيراً كما يُفترض بطبق معدّ لحمل صحن واحد  
 وقطعة خبز. القليل الذي آكله أحشوه بيدي في فمي، والقوارير التي  
 أفرغها في جوفي أثناء الولايم كانت تأتيني مستقلة في سلة. لكن تلك  
 السلة لم تكن تترك لديّ أيّ انطباع لا سيّ ولا جيّد، ولا يمكنني وصف  
 المادّة التي صُنعت منها، ولا كيف. أحياناً عندما يحدث لسبب أو لآخر  
 البحث عن المكان الذي قدّم لي فيه الزاد، أعجز عن إيجاد مرّة أخرى لو  
 خطر لي الاستهلاك، فأنبري أبحث في كلّ مكان بمتعة أحياناً لأنني أعرف  
 الأماكن القابلة لاستضافتي، لكن في أحيان أخرى تذهب محاولاتي

سدى. أو آتِي كُنْتُ أَفْضَلَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ عَنْ مَشَقَّةِ الْبَحْثِ، فَلَمْ أَكُنْ أُبَحِّثُ وَأَنَا أَجْهَلُ إِنْ كُنْتُ سَأَجِدُ أَمْ لَا. أَوْ عَذَابِ طَلَبِ طَبَقٍ وَسَلَّةِ أُخْرَيْنِ فِي الْمَكَانِ نَفْسَهُ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ. مَتَحَسَّرْتُ عَلَى حِصَاةِ الْمَصِّ، وَحِينَ أَقُولُ مِثْلًا إِنِّي أَفْضَلُ أَوْ أُنْدَمُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ فِي الْإِعْتِقَادِ أَنِّي أَرْجَحُ كِفَّةَ الشَّرِّ أَوْ أَنِّي أَسْلَكُهُ لِأَنَّ ذَلِكَ خَطَأٌ، لَكِنْ بِمَا أَنِّي لَا أَعْرِفُ تَمَامًا مَا عَلَيَّ الْقِيَامُ بِهِ أَوْ تَجَنُّبَهُ فَسَتَجِدُنِي أَقُومُ بِمَا أَقُومُ بِهِ وَأَتَجَنَّبُ مَا أَتَجَنَّبُهُ دُونَ أَنْ تَسْأَوْنِي شَكُوكَ فِي مَجِيءِ يَوْمٍ، رُبَّمَا مَا زَالَ بَعِيدًا جَدًّا، أَجِدُ نَفْسِي فِيهِ مُجْبِرًا عَلَى التَّكْوِصِ عَلَى عَقْبِي وَالْعُودَةِ إِلَى مَا فَعَلْتَهُ أَوْ أَلْغَيْتُهُ. قَدْ أَصْبَحَ شَاخِبًا وَجَمِيلًا بِفَعْلِ الْإِبْتِعَادِ الطَّوِيلِ، وَأَنَا أَجْرٌ بِنَفْسِي نَحْوَ لَوْثَةِ الرِّفَاهِيَةِ، لَكِنْ يَجْدُرُ الْقَوْلُ إِنْ صَحَّتْ مِسْتَقَرَّةٌ تَقْرِيبًا عِنْدَمَا كُنْتُ عِنْدَ «لَوْس»، أَعْنِي أَنَّ مَا هُوَ مُخْتَلٌ لَدَيَّ أَخْذَ يَتَدَهَوْرُ شَيْئًا فَشَيْئًا كَمَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ لَكِنْ أَبَدًا لَمْ تَظْهَرِ أَلَامٌ جَدِيدَةٌ أَوْ قُرُوحٌ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً مِنْ قَبْلِ، طَبْعًا بِإِسْتِثْنَاءِ تِلْكَ الَّتِي يَتَسَبَّبُ فِيهَا تَطَوُّرٌ أَوْ ضَاعَ الْإِفْرَاطُ وَالْقُصُورُ لِلَّذِينَ مَا انْفَكَّا يَعَاشِرَانِي. فِي الْوَاقِعِ يَصْعَبُ عَدَمُ الْجُزْمِ فِي مَوْضُوعٍ كَهَذَا. لِأَنَّ الْفَوْضَى الَّتِي تَنْتَظِرُنِي مِثْلَ سَقُوطِ إِصْبَعِ قَدَمِي الْيَسْرَى، لَا، بَلِ الْيَمْنَى، لَا أَعْرِفُ تَمَامًا مَتَى سَأُجْنِيهَا. أَوْه! بِذَوْرٍ شَوْمٍ رَغْمَ أَنْفِي. كُلُّ مَا يَسْعَنِي قَوْلُهُ بِالتَّالِي، وَسَأَبْذُلُ قِصَارَى جَهْدِي كَيْ لَا أَقُولَ أَكْثَرَ مِنْهُ، هُوَ أَنَّ شَيْئًا لَمْ يَطْرَأْ عَلَى الصَّعِيدِ الْمَرْضِيِّ خِلَالِ إِقَامَتِي عِنْدَ «لَوْس». لَا شَيْءٌ صَادِمًا أَوْ مَقْلَقًا أَوْ غَيْرَ مُتَوَقَّعٍ. لَا شَيْءٌ خَارِجًا عَنْ قُدْرَتِي عَلَى التَّنَبُّؤِ، لَا شَيْءٌ مَقَارَنَةً بِخَسَارَتِي الْمَفَاجِئَةِ لِنُصْفِ أَصَابِعِ قَدَمِي. إِنَّهُ أَمْرٌ خَرَجَ عَنْ قُدْرَتِي عَلَى التَّوَقُّعِ وَفَاقَ قُدْرَتِي عَلَى الْفَهْمِ، أَقْصَدُ فِيمَا يَخْصُ تَحْدِيدَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَشَاكِلِي الْآخَرَى. أَفْتَرِضُ أَنَّ السَّبَبَ هُوَ افْتِقَارِي لِلْمَعَارِفِ الطَّبِيعِيَّةِ، كُلُّ شَيْءٍ مُرْتَبِطٌ بِجَنُودِ الْجِسْمِ. لَكِنْ لَا دَاعِيَ لِمَطْطِ الْحِكَايَةِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ مِنْ وَجُودِي لِأَنَّهَا لَا تَعْنِي شَيْئًا مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِي، إِنَّهُ السُّوءُ الَّذِي مَا أَنْفَكَ أَنْتَفَعَ مِنْ وَرَائِهِ، وَالَّذِي لَا يُجْنِي مِنْهُ غَيْرَ الْفَقَاقِعِ وَالْحُودُودِينَ. لَنْ أَضِيفَ إِذَنْ سِوَى بَعْضِ الْمَلَاخِظَاتِ، أَوَّلُهَا هِيَ التَّالِيَةُ، «لَوْس» امْرَأَةٌ مَسْطُوحَةٌ بِجِسْمٍ عَادِيٍّ إِلَى حَدِّ يَبْعَثُ عَلَى التَّسَاوُلِ، الْآنَ فِي هَذَا الْمَسَاءِ الشَّبِيهِ بِآخِرِ أَيَّامِ إِقَامَتِي

معها، إن كانت رجلاً أو مزدوجة الجنس على أقل تقدير، وجهها كان أشعر، أو لعلّي أنا من يتخيّله كذلك لصالح الحكاية، لم أنظر إليها إلا نادراً، المسكينة مثلي تماماً لا تقع عليها العيون، وصوتها، ألم يكن أجش على نحو مثير للريبة؟ هكذا تبدو لي الآن، لا تنزعج مولوي، رجل أم امرأة، ماذا قد يغيّر ذلك؟ دائماً لا أستطيع منع نفسي من طرح السؤال نفسه. هل كان في وسع امرأة أن توقف سعيي نحو أمّي؟ بلا شك، أبعد من ذلك، لقاء كهذا بيني وبين امرأة، هل كان ممكناً. لامستُ بعض الرجال، لكنّ النساء؟ حسناً لم أعد أرغب في إخفاء الأمر أكثر من ذلك، لقد لامستُ واحدة. لستُ أتحدّث عن أمّي لأنّي لم ألامسها فحسب، ثم علينا من فضلكم تركها في منأى عن هذه المسائل، سأتحدّث عن أخرى كان من الممكن أن تكون هي أمّي بل جدّتي أظنّ لو لم تقرّر الصدفة مصيراً آخر، إنّ المرأة التي جعلتني أعرف الحبّ، أظنّ أنّها حظيت باسم «روث»، لا أجزم، ربّما كان اسمها «إديث»، كان لديها شقّ بين فخذيهما. أوه. لا لم يكن كوعاً كما تخيلتُ ذلك دائماً، كانت فتحة. أضع، بل هي التي تضع عضوي الذي يُفترض أنّه فحل داخلها، دون ألم، وأدفع باستماتة إلى أن أقذف، أو أصرف النظر، أو تتوسّل إليّ بأن أتحنّ عنها. لعبة أغبياء حسب رأيي ومتعبة بمرور الوقت، لكنّي كنتُ أنزلها منزلة الفضيلة إيماناً منّي بالحبّ، هي قالت لي ذلك. كانت تستدير وتنحني بسبب (الروماتيزم)، فأتيتها من الخلف، كانت تلك هي الوضعية الوحيدة التي تتحمّلها بسبب آلام ظهرها، أنا وجدتُ الوضعية طبيعيّة للغاية، واستغربتُ كثيراً لما أكّدت لي أنّ في مستطاعنا تغييرها، أنساءل ماذا كانت تعني بالضبط، ربّما في النهاية كانت تقحمني داخل شرحها. سيّان. ألا ترون معي؟ لكن هل الحبّ الحقيقيّ يوجد في الشرج؟ هذا ما يرهقني. هل حقاً عرفتُ الحبّ؟ كانت امرأة مسنة بشكل لافت هي أيضاً. تتقدّم بخطوات ثقيلة متوكّئة على عصا من خشب البان، لعلّها كانت رجلاً هي أيضاً. في تلك الحالة كيف كنّا نجتنب ارتطام خصائنا بعضها ببعض ونحن نهتّز، وربّما كانت تمسك بخصيتيها بكفّ يدها كي لا

تؤذيها. كانت تحمل تنورة ضرّاطة. شرائط مزخرفة، وملابس داخلية أخرى لا أعرف اسمها، كان كلّ ذلك يُكشف بسبب الهيجان والحفيف الذي نصدره، ثم يحدث الارتباط وفق دفعات بطيئة من فوق. حتّى إني لم أكن أرى شيئاً عدا قفاها الأصفر، كنتُ أحاول الزحف نحوه لأعضّه بفعل الغريزة. تمّ التعارف بيننا في فلاة، أميّزها بين أرض مع أنّ الأراضي الشاسعة تتشابه جميعاً. أجهل سبب وجودها هنا. كنتُ أقلب الرّبالة بارتخاء تامّ، وأنا أقول في نفسي - ففي هذا السنّ يجب أن تكون لديّ بقايا أفكار عامّة - ها هي ذي حياتي، لم يكن لديها وقت لإضاعته، أمّا بالنسبة إليّ، فلم يكن لديّ ما أضيعه، لأعرف الحبّ كان في وسعي أن أجامع عترة. كانت لديها شقّة أنيقة، لا ليست أنيقة، إذ قد نوجج لديكم الرّغبة في انتزاع ركن فيها، وعدم مبارحته أبداً. أعجبتني، كانت مليئة بالأثاث الصّغير، وتحت ضرباتنا اليائسة كان الرّغد يتقدّم نحونا على عجالات. يصل إلى مستوانا ويسقط حولنا، كانت فوضى شيطانية عارمة. العلاقة بيننا لم تكن خالية من العطف، فقد كانت تقصّ بيد مرتعشة أظفار قدمي، وكنتُ أدلكّ عجيزتها بمرهم «البنجاي». أنشودتنا لم تدم طويلاً، «إديث» المسكينة. لعلّي سارعتُ بنهايتها، هي من أخذ المبادرة على أيّ حال في تلك الأرض المترامية الأطراف، لمّا أمررت يدها فوق قضيب. بدقّة أكبر، كنتُ منهمكاً في قلب القمامة، بنية التقرّز من فكرة آتي جائع، حين حشرت عصاها بين فخذي وشرعت في إطراء أجزائي. كانت تقدّم لي المال بعد الانتهاء من مضاجعتها، أنا الذي كنتُ على استعداد لأعرف الحبّ، وأنطوّر فيه بشكل تطوّعي. لم تكن امرأة عملية. كنتُ سأفضّل على ما يبدو ثقباً جافاً وأقلّ اتّساعاً، كان سيعينني ذلك كثيراً على تكوين فكرة أسمى عن الحبّ، في النهاية نحن بخير مع الإبهام والسّبابة لكن بخير بشكل مختلف ولا حيلة للحبّ أمام طوارئ مشابهة. ليس عندما نكون بخير. فدائماً حين يكون العضو المعتبر في بحث عن قشرة يحكّ نفسه عليها ويتعمّد بمخاطها وحين لا يُفلح في إيجادها فإنّه يحافظ على نورّمه دون أن يفقد صوابه. عندها فقط ينشأ الحبّ الحقيقي الذي ينأى

بنفسه عن القضايا السافلة بإضافة القليل من طبّ الأقدام والتدليك الذي لا علاقة مباشرة له باللذة التي تعرفونها فلن يعود لديّ شكّ في نقاء الحبّ. إنّها اللامبالاة نفسها التي تلقّيت بها خبر موتها ذات ليلة وأنا في بيتها. لامبالاة خفيفة بسبب عاطفة فقدان مصدر مداخليلي. ماتت وهي تأخذ حماماً فاتراً كما جرت العادة قبل استقبالي، كان ذلك يلبّتها. آه، حين أفكر كيف كان عليها الانتظار قليلاً كي تكون بين ذراعيّ، انقلب الحوض وساح الماء في كلّ مكان ووصل إلى الجارة السفليّة التي أعلمت. لم أكن قبل الآن أعتقد أنّي أعرف هذه الحكاية. لا بُدّ أنّها امرأة لأنّ العكس كان سيُفْتَضَح في الحيّ. صحيح أنّه بالنسبة إلى كلّ ما له علاقة بالمسائل الجنسيّة كنّا دائماً منغلقيّن في منطقتنا، لا أدري كيف تتمّ الأمور هذه الأيام. احتمال قويّ أن يكون إيجاد رجل حيث يجب أن نجد امرأة مستبعد ومنسيّ من قبل القلّة التي لديها علم بالأمر. كما يُحتمل أن يكون الجميع على دراية ما عداي. لكن هناك أمر يضايقني حين أطرح على نفسي الأسئلة فيما يتعلّق بهذا الموضوع، هل مرّت حياتي دون حبّ؟ أم إنّني عرفته حقّاً مع «روث»، ما أوّكده هو أنّي لا أنوي إعادة التجربة خصوصاً مع الحُدس الذي لديّ بأنّها تجربة مثاليّة وفريدة من نوعها، مكتملة ونادرة. يهمني أن أحتفظ بذكريات لا يشوبها التهكّم في قلبي الذي يأخذ في الرّكض من حين إلى آخر وراء اللّذة المزعومة التي تمنحها الثّقوب الوحيدة. لا تحدّثوني عن الخادمة. لقد أخطأت بالتعريض على ذكرها. كانت تجربة أسبق في حياتي. مولوي أو الحياة دون خادمة. كلّ هذا لأشير إلى أنّ لقائي بـ «لوس» وكوني حككْتُ نفسي عليها بطريقة ما لا يعني شيئاً فيما يتعلّق بجنسها. أودّ الاستمرار في التصديق بأنّها امرأة عجوز. أرملة مهجورة ويايسة، وأنّ «روث» هي امرأة أخرى فقد كانت أيضاً تحدّث عن الرّاحل زوجها واستحالة تلبّيته لرغباتها المسعورة. هناك أيام مثل ذلك المساء، تختلط في ذاكرتي فلا أرى فيها غير عجوز جافّة واحدة مسطّحة ومكلوبة بفعل الحياة. والرّبّ يسامحني لأنّي أذيع أسرار ارتياحي العميق. إنّ صورة أمّي تلحق بصورهنّ أحياناً، أمر لا

يُحْتَمَلُ وَلَا يَبْعَدُ كَثِيرًا عَنِ الْإِحْسَاسِ بِالصَّلْبِ. لَا أُدْرِي لِمَاذَا وَلَا يَهْمَنِي  
أَنْ أَعْرِفَ مَاذَا يَعْنِي ذَلِكَ. أَخِيرًا رَحَلْتُ عَنْ «لُوس» فِي لَيْلَةِ حَارَّةِ خَانَقَةِ،  
لَا هَوَاءَ فِيهَا. لَمْ أَوْذَعُهَا، رُبَّمَا كَانَ عَلَيَّ الْقِيَامُ بِذَلِكَ كَأُضْعَفِ الْإِيمَانِ. مِنْ  
جَهْتِهَا لَمْ يَكُنْ فِي مَتَابِلِهَا اسْتِبْقَائِي بِغَيْرِ الشَّعْوَةِ. لَا بُدَّ أَنَّهَا رَأَتْني أَغَادِرُ.  
أَنْهَضُ، أَتَنَاوَلُ عَكَازِيَّ وَأَنْطَلِقُ فِي مُوَاجَهَةِ الْهَوَاءِ مَتَّخِذًا مِنْهُمَا مَرْتَكِزًا  
لِلْمَضِيِّ قَدَمًا. لَا بُدَّ أَيْضًا أَنَّهَا رَأَتْ الْبَابَ يَوْصِدُ خَلْفِي. فَهُوَ يُغْلَقُ مِنْ تَلْقَاءِ  
نَفْسِهِ بِفَضْلِ نَابِضٍ مُوَصُولٍ بِهِ. لَقَدْ أَدْرَكْتُ دُونَ شَكِّ أَنِّي ذَهَبْتُ. فَهِيَ  
تَعْرِفُ مَاذَا يَعْنِي أَنْ لَا أَكْتَفِي بِوَضْعِ أَنْفِي فَقَطْ فِي الْخَارِجِ وَأَدْخِلُهُ بَعْدَ ثَانِيَةِ  
وَاحِدَةٍ. لَمْ تَحَاوَلْ مِنْعِي لَكِنَّهَا رُبَّمَا جَلَسَتْ بِجِوَارِ قَبْرِ الْكَلْبِ الَّذِي هُوَ  
قَبْرِي بِشَكْلِ أَوْ بَأْخَرِ وَالَّذِي لَمْ تَنْثُرْ فَوْقَهُ بِذُورِ الْعُشْبِ كَمَا تَصَوَّرْتُ بَلْ  
أَزْهَارًا صَغِيرَةً مِنْ كُلِّ الْأَلْوَانِ، وَنَبَاتَاتٍ مُتَسَلِّقَةٍ مُنْتَقَاةٍ بِعُنَايَةٍ بِصُورَةٍ تَجْعَلُ  
مِنْ بَعْضِهَا تَتَوَهَّجُ حِينَ يَنْطَفِئُ الْبَعْضُ الْآخَرُ. أَحْسَسْتُ بِذَلِكَ. تَرَكْتُ لَهَا  
دِرَاجَتِي الَّتِي قَرَّرْتُ التَّوَقُّفَ عَنْ حَبِّهَا مَتَّهَمًا إِيَّاهَا بِأَنَّهَا آلَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ وَأَنَّهَا  
هِيَ السَّبَبُ فِي كُلِّ الْمَآسِي الَّتِي تَعَرَّضْتُ إِلَيْهَا حَدِيثًا. كُنْتُ رُبَّمَا أَخَذْتُهَا  
مَعِي لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ مَكَانَهَا أَوْ حَتَّى مَا إِذَا كَانَتْ تَصْلُحُ لِلسَّيْرِ. لَكِنَّهَا أَشْيَاءُ  
أَجْهَلُهَا. كُنْتُ خَائِفًا وَمَشْغُولًا بِالتَّرْدِيدِ بِصَوْتِ خَافَتِ، هَيَّا أَهْرَبْ مُوَلُوي!  
خَذْ عَكَازَكَ وَاهْرَبْ! لَقَدْ تَطَلَّبْتُ فَهْمِي لِلصَّوْتِ وَقَتًا طَوِيلًا لِأَنِّي أَسْمَعُهُ  
مِنْذُ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ، لَعَلِّي كُنْتُ أَفْهَمُهُ بِالْمَقْلُوبِ لَكِنِّي فَهَمُّتُهُ وَهَذَا فِي حَدِّ ذَاتِهِ  
إِنْجَازٌ جَدِيدٌ. بَدَأَ لِي أَيْضًا أَنْ رَحِيلِي لَيْسَ نَهَائِيًا بِالضَّرُورَةِ وَأَنَّهُ رُبَّمَا فِي  
إِمْكَانِهِ أَنْ يَعِيدَنِي بِفَعْلٍ حَلْقَةٍ مُعَقَّدَةٍ لَا شَكْلَ لَهَا إِلَى إِقَامَةِ «لُوس» يَوْمًا مِنْ  
الْأَيَّامِ وَأَنِّي لَسْتُ أَعِيشُ نَهَايَةَ الطَّرِيقِ عَلَى أَيِّ حَالٍ. فِي الْخَارِجِ كَانَ هُنَاكَ  
رِيحٌ. كَانَ عَالِمًا آخَرَ وَبِمَا أَنِّي أَجْهَلُ تَمَامًا أَيْنَ أَنَا وَأَيُّ اتِّجَاهٍ عَلَيَّ أَنْ  
أَسْلُكَ فَقَدْ سَلَّمْتُ نَفْسِي لِلرَّيْحِ تَحْمِلُنِي حَيْثُ تَذْهَبُ. مُعَلِّقًا بَيْنَ عَكَازِيَّ  
رَحْتُ أَدْفَعُ بِنَفْسِي إِلَى الْأَمَامِ، كُنْتُ أَشْعُرُ بِالرَّيْحِ تَسَاعِدُنِي، تِلْكَ الرَّيْحُ  
الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَمْ أُدْرِ مِنْ أَيِّ حَيٍّ كَانَتْ تَهَبُّ. أَمَّا النَّجُومُ فَلَا تَحْدُثُونِي  
عَنْهَا، كُنْتُ أُمَيِّزُهَا بِشَكْلِ سَيِّءٍ رَغْمَ دُرُوسِ الْفَلَكَ الَّتِي تَلْقَيْتُهَا. احْتَمَيْتُ  
بِأَوَّلِ مَاوِي صَادَفَنِي إِلَى غَايَةِ طُلُوعِ الْفَجْرِ لِأَنِّي كُنْتُ عَلَى عِلْمٍ أَنَّ أَوَّلَ

شرطي سيصادفني سيسدّ طريقي وسيسألني السّؤال ذاته الذي لم أجد له إجابة أبداً. لا يمكن أن يكون مأوى بمعنى الكلمة فبعد قليل سيأتي رجل ليطرمني منه. رغم أنّ المكان يسع كلينا. أظنّ أنّه حارس ليليّ، كان موكولاً إليه مهمّة حراسة لا أدري أيّ أشغال حفر. رأيتُ مجرمة. أفق الهواء، كما يُقال، يجب أن يكون بارداً. استقرّ بي المقام عند درجات سلّم منزل فقير، إذ لم يكن له باب أو أنّ الباب لا يُفتح. لا أدري. قبل الفجر بدأ ذلك المنزل الفقير يُخلّى، أناس ينزلون الدّرجات. التّصقّت بالجدار. لا أحد انتبه إلى وجودي. لم أتعرّض إلى الأذى. أنا أيضاً خرجتُ إلى المدينة عندما بدا لي الخروج آمناً. ورحتُ أبحث عن معلم أعرفه يسمح لي بالقول أنا في مدينتي. وأنّي كنتُ فيها طوال الوقت. استفاقت المدينة ونشطت. ومنذ البداية بلغ الضّجيج مستوى مُحترماً. لكن وأنا أناملّ بنائيتين عاليتين التفتّ حولي وانزلتُ بينهما. فقط بعض النّوافذ الصّغيرة من الجانبين. واحدة في كل طابق. متقابلة ومتناظرة. إنّها نوافذ العيادات بلا شكّ. من حين إلى آخر هناك أشياء تفرض نفسها على المرء بفعل نظريّة البدهة، يحدث ذلك بصورة خارجة عن إرادتنا ودون أن نعرف لماذا. الممرّ لم يكن يفضي إلى شيء، إذن هو ليس معبراً بل طريقاً مسدوداً. عند نهايته كانت هناك دعامتان للتّعزّيز، لا ليست هذه هي العبارة. واحدة تقابل أخرى مغمورتان بالقاذورات والبراز. براز كلاب ومعلّمهم، بعضه جافّ والبعض لا يزال رطباً. آه وتلك الصّفحات التي لا أحد سيقروّها. أو ربّما لا أحد قرأها. ينبغي أن يكون المكان مرتعاً للجماع وتبادل العهود في اللّيل. انزويتُ في أحد الأركان واستندتُ إلى الجدار. كنتُ أفضل الاستلقاء، على كلّ لا شيء أجبرني على عكس ذلك. في الوقت الحاليّ اكتفيتُ بالاستناد إلى الجدار، قدماي متباعدتان، في وضعية انزلاق، لكن لديّ نقاط ارتكاز أخرى، طرفا العكازين. بعد دقائق عبرتُ السدّ نحو الضّفة الأخرى حيثُ رجّحتُ بأنّ وضعي سيكون أفضل وارتحتُ بالطريقة نفسها، وضعية الضّلع المقابل، ولو هلة أحسستُ حقاً أنّي أفضل. ثم سرعان ما تأكّدتُ بأنّي واهم. بدأ بالهطول رذاذ خفيف

وانترعتُ قُبعتي لأبللُ جمجمتي المُجعدة المتصدّعة المُحترقة. المحترقة! انترعتها أيضاً لأنّها تؤلمني في رقبتني بفعل ضغط الجدار. كان لديّ إذن سببان لنزعها. سببان ليس أكثر. سبب واحد لم يكن ليدفعني لاتخاذ القرار فيما أظنّ، رميتها غير مُكترث بحركة سخية فعاتت إليّ سيراً على حبلها أو رباطها لا أدري. وبعد وثبات صغيرة همدت بمحاذاة أحد جانبيّ. في النهاية اتّخذتُ وضعيّة التفكير. أي الاستماع بانتباه. احتمال ضعيف أن يُعثر عليّ هنا. كنتُ في سلام لفترة طويلة، الفترة التي أتحمّل معها البقاء في سلام. ولو هلة تصوّرتُ أنّ الصّواب هو أن أتخذ من ذلك المكان سكناً يؤويني. لو هلة. أخرجتُ سكين الخضر وشرعتُ في فتح معصمي، إلّا أنّ الألم غلبني بسرعة، صرختُ بادئ الأمر. ثم توقّفت. طويّتُ السكّين وأعدته إلى جيبِي. خيبتني لم تكن كبيرة ففي النهاية لم أتوقّع نتيجة أخرى. هذا ما حدث. لكن الحياة برمتها مبنية على تكرار الجرم على ما يبدو. الموت أيضاً ينبغي أن يكون نوعاً من أنواع الجريمة التي تتكرّر. لا غرابة. هل قلتُ إنّ الرّيح قد هطلت؟ مطر خفيف هطل، هذا يقلّص تماماً من إمكانية أن تكون الرّيح هي التي هطلت. أملكُ ركبتيْن ضخمتين، اكتشفتُ ذلك وأنا أراهما لما هممتُ بالنّهوض. ساقاي مخربتان بالعدل مع ذلك كنتُ أنهض من حين إلى آخر. ماذا تقولون في هذا؟ عليّ من حين إلى آخر أن أذكر بوجودي الحالي الذي لا تُقدّم القصّة التي أرويها فكرة ضافية عنه. بل من بعيد جداً فقط، ما يكفي ليجوز القول، كيف لم تنتهِ حياة كهذه؟ أوه، يا لهذه اليوميّات. ألا يحسن أن تكون قد توقّفت منذ فترة. أن يكون لديّ ركبتيان عظيمتان أو أن أنهض من وقت إلى آخر، ماذا يمكن أن يعني ذلك. أولاً أنا أقدم التقارير عن طواعية، لما عبرتُ السدّ إذن كنتُ نصف منتصب نصف ممدّد، فقد كانت ساعة نومي. انتبهوا جيّداً، لقد اتّجهتُ نحو الشّمس لأنّي لم أفلح في القيام بما هو أفضل، فقد هدأت الرّيح، ربّما ما أسمّيه الشّمس هو ببساطة الحيّ الأقلّ عتمة. لم يكن ثمة سوى غيمة واحدة تحجب السّماء من سمت الرّأس إلى الأفق، من تلك الغيمة نزل المطر الذي تخيلته. لاحظوا

كيف أن الأمور تتقاطع. أما أيّ الأحياء هو أقلّ عتمة فهذه مسألة يصعب تحديدها، فالسّماء تبدو من الوهلة الأولى داكنة بشكل متساوٍ. لكن مع القليل من العناء توصلتُ إلى نتيجة، أقصد بأنّي اتخذتُ قراراً في هذا الشّأن، ساعدني ذلك في مواصلة طريقي قائلاً، أنا أتجه نحو الشّمس أي نحو الشّرق أو الجنوب، إذ لستُ في حمى «لوس»، أنا في قلب انسجام مُهياً مسبقاً تنبعث منه موسيقى عذبة. عذبة جداً للذي يحسن الإنصات إليها. النّاس يعبرون مُسرّعين متضايقين، بعضهم تحت المطريّات والبعض الآخر يحتمي بصورة أقلّ نجاعة بمعاطفهم المُشّعة. رأيتُ آخرين يحتمون بالأشجار والواقيات المُقْبِية للواجهات، بين أولئك الأكثر شجاعة أو الأقلّ هشاشة ممن يروحون ويجيئون ومن بين أولئك الذي يتوقفون كي لا يبتلوا أكثر. عديدون يقولون في أنفسهم، من الأفضل أن نفعل مثلهم، والمقصود بـ «هم» الآخرون. الفئة الأخرى التي لا يتمنون إليها. على الأقلّ هكذا أفترض. كما يجب أن تكون هناك فئة فخورة بقدراتها على الخروج من المآزق معبرين عن سخطهم حيال الطّقس السيّ الذي عكّر صفوهم. وقعت عيني على شيخ شاب يرتعش تحت ظلّة. بدا لي بائساً. ذكرني فجأة بالمشروع الذي تشكّل يوم التقيتُ «لوس» وكلبها. ذلك اللّقاء الذي منعني من أن أمسك بزمام أموري. سرّتُ نحو الشّيخ مقلداً هيئة من يقول في نفسه، هذا الرّجل ذكيّ وعليّ أن أقّله فيما يفعله. إنّما قبل أن أوجّه إليه الحديث الذي أردته طبيعياً متمهلاً، خرج تحت المطر وابتعد، فقد كان كلاماً قادراً ليس فقط على استفزازه كأقل ما يمكن بل على إدهاشه. لذلك على الكلام أن يوضع في محلّه بالشّكل المناسب والدقة اللاّزمة. أعتذر عن هذه التفاصيل لكننا منذ قليل تقدّمنا بسرعة. بسرعة متّسقة، دون أحكام مسبقة أو إسقاطات في مواضع ننته تستوجب الدقة. ينتج عنها بدورها نوع من التّمائيل الكبيرة المصقولة بتقرّز لا يقلّ حجماً. أشباح في لوحة. هذا ما يحتاج إليه الإنسان كي يكون مركزاً للكون. وهكذا وجدتُ نفسي وحيداً مرّة أخرى تحت أحد الأسقف. لم يخطر أنّ هناك من سينضمّ إليّ مع ذلك لم أقصِ

هذا الاحتمال، إنه الكاريكاتير الأمثل في تلك الحالة. وكنتيجة مكثت في مكاني. كنت قد جلبت من منزل «لوس» القليل من أدوات المطبخ، لم تكن ذات قيمة، بعض ملاعق القهوة العملاقة في أغلبها، وأغراضاً أخرى لا أعرف فيم تُستعمل لكني على يقين أن لها قيمة بينها ما يعاود الظهور أمامي بين الحين والحين وهي عبارة عن علامتي  $X$  متحدتين في نقطة التقاطع بواسطة قضيب، وهي تشبه قليلاً رافعة حطب؛ مع اختلاف واحد طفيف هو أن الـ  $X$  التي في رافعة الحطب ليست  $X$  مثالية بل مبتورة من الأعلى بينما الـ  $X$  التي في الأشياء الصغيرة التي أتحدث عنها مثالية تماماً. أعني أنها متكوّنة من علامتي  $V$  متناظرة. إحداها مفتوحة إلى الأعلى ككل  $V$  والأخرى مفتوحة صوب الأسفل أي متكوّنة من أربع  $V$  متساوية بدقة متناهية، واثنين آخرين إحداها على اليمين والأخرى على اليسار مفتوحتان تناسباً إلى اليمين وإلى اليسار. خرجت عن الموضوع بحدِيثي عن اليمين واليسار والأعلى والأدنى. لأن تلك الأشياء لا يبدو أنها تملك خاصية معينة أو نقطة ارتكاز واضحة فهي تحافظ على توازنهما مهما كان الجانب الذي توضع عليه، الأمر الذي لا نجده في رافعة الخشب. ما زلتُ أحتفظ بهذا الشيء العجيب ولم أفلح في بيعه في أحلك ظروف، إذ لم أفهم لِمَ قد يصلح تحديداً ولم أكون في شأنه فكرة. من حين إلى آخر كنتُ أستخرجه من جيبي وأرمقه بنظرات استغراب، لن أقول نظرة حانية لأنني غير قادر على أن أكنّ شعوراً كهذا، لكن لفترة طويلة ظلّ يحرك في داخلي شعوراً بالهيبة، أظنّ. أنا متأكد بأنه ليس غرضاً للاعتزاز بل له مهمة يقوم بها ما زالت غامضة بالنسبة إليّ. يمكنني بالتالي أن أحاوره متى شئت دون خوف من خطر محقق. فعدم المعرفة هو لاشيء وعدم إرادة المعرفة هو أيضاً لاشيء. لكن من عدم القدرة على المعرفة، ومعرفة عدم القدرة على المعرفة، يمرّ السلام إلى روح الباحث العديم الفضول. من هنا تبدأ عمليات القسمة. اثنان وعشرون على سبعة مثلاً، ومن هنا تمتلئ الكراريس أخيراً بالأرقام الصحيحة. لكن لا أودّ الجزم في شيء له صلة بذلك. وإن كان يبدو لي غير قابل للجدل.

ذاك أنني - مقتنعاً تماماً بقوة الاحتمالات - خرجتُ من تحت الظلّة ورحتُ أتأرجح ببطء نحو الأمام مُعرّضاً جسمي للهواء. منهجية رجال العكازين هي التالية، هذا الأمر حائز على كذا. ذاك الأمر ينبغي أن يحوز كذا. إنّه ما يُسمّى بالتحفيز. فهي سلسلة محاولات تحليق محاذاً للأرض. نظير ونحطّ لا كالذين يزعمون الرّشاقة ولا يمكنهم تحرير ساقٍ إلا إذا كانت الأخرى ملامسة للأرض. ومهما بلغت سعادتهم بذهابهم وإيابهم فلن تعادل أبداً سعادة العرج لديّ. لكنّها في النهاية مجرد أفكار مبنية على التحليل فحسب. ومع قلقي الدائم في شأن أمي ورغبتني في معرفة ما إذا كانت قريبة، تجعل من تلك الأفكار أقلّ وطأة، وربما بسبب الأدوات التي في جيبي. لا أظنّ. ثمّ لأنّها هموم قديمة لا يسع الذهن أن يقلقلها، هو فقط في حاجة إلى تغييرها من وقت إلى آخر ليمكن من استحضار القديمة منها متى شاء بقوة وإصرار كافيين. لكن هل نحن في وضع يسمح بالحديث عن هموم قديمة أو حتّى جديدة؟ لا أتصوّر رغم أن البرهنة صعبة. ما أجزم به حقاً دون خوف من \_\_\_\_\_، دون خوف، هو أنّ معرفة المدينة التي أنا فيها أو ما إذا كنت سألتقي أمي قريباً تُسوّي مسائل عالقة تهمّنا أم لا، لم يعد يعنيني. بل لقد فقد الأمر متانته بالنسبة إليّ دون أن يتلاشى نهائياً. في الأخير الأمر ليس هيناً إلى هذه الدّرجة وأنا ما زلتُ متمسكاً به. تمسّكتُ به طوال حياتي على ما أظنّ. هذا على اعتبار أنّ في وسعي التمسّك بأمر ما. كنتُ متشبّثاً طيلة حياتي بتسوية القضايا العالقة بيني وبين أمي لكنني لم أفعل. وكنتُ كلّما حدّثتُ نفسي بأنّه لم يعد هناك متسع من الوقت وأنّه قد يفوت الأوان أو أنّه قد فات فعلاً ولم يعد في المستطاع تسوية المسائل أشعر بأنّي أزيغ نحو أوهام أخرى. أكثر من مجرد كوني لا أعرف اسم هذه المدينة يبدو أنّي تأخّرتُ في الخروج منها. هل هي حقاً المدينة التي انتظرني فيها أمي وربما ما زالت تنتظرني فيها. يخطر لي أنّي لو مضيتُ في خطّ مستقيم فسيتهي بي الأمر بالخروج منها بالضرورة. هذا ما سخّرتُ نفسي له بكلّ ما أملك من علم، آخذاً بعين الاعتبار التحرك الضئيل جهة اليمين للصفاء الذي يقودني. مع حلول

الليل خائني الإبحار لكنني تجاسرتُ على تخطي المتاريس واستطعت  
 القيام بربع دائرة على الأقل. غير أنه يجدر القول إنني لم أختَر محطّات  
 استراحتي فكانت عبارة عن وقفات قصيرة، فقد أحسستُ بكعبي يذوب  
 بلا شك. في الرّيف يختلف الأمر، إنها عدالة أخرى. رجال عدالة آخرون،  
 ما إن تخطيتُ المتاريس حتّى أدركتُ أنّ السّماء بدأت تنجلي قبل أن  
 تُطوى تماماً في الكفن الآخر، كفن اللّيل. نعم، لقد تمزّق نسيج الغيوم  
 تاركاً سماءً مثقوبة شاحبة ومحتضرة، أما الشّمس فبالكاد كانت تُلاحَظ  
 كقرص، فلم يعد يبدو منها غير شرارات صفراء ووردية تُقذف ناحية  
 سمت الرّأس، تسقط وتُقذف ثانية أضعف فأضعف لكن دائماً واضحة  
 ومُستعدة لتنفّس قليلاً، هذه الظّاهرة إن كانت ذاكرتي محلّ ثقة هي  
 إحدى خصائص جهتي، وأنا لم أغادرها أبداً من قبل. لا لم أحاول الفرار  
 يوماً وحتّى حدود منطقتي أجهلها. أتصوّر أنّها مترامية الأطراف غير أنّ  
 هذا الاعتقاد يظلّ مجرد اعتقاد خالٍ من الجدّة. فلو أنّ حدود منطقتي  
 كانت في متناول خطواتي لنبهني إلى ذلك نوع من التدنّي الذي كان  
 سيغمرنني. المناطق لا تنتهي فجأة. بل تنصهر فيما بينها دون أن نشعر. لم  
 ألحظ أمراً مشابهاً. مهما ابتعدتُ في هذا الاتجاه أو ذاك كانت السّماء  
 دائماً ذاتها والأرض ذاتها بالضبط يوماً بعد يوم، ليلة إثر ليلة. من ناحية  
 أخرى إن كانت المناطق تنصهر فيما بينها بشكل ملحوظ (الأمر الذي  
 ينبغي التّثبت منه) فهناك احتمال أن أكون قد خرجت من جهتي المرات  
 العديدة ظناً منّي أنّي لم أفعل. مع أنّي أحبّد البقاء عند يقيني الذي يقول  
 لي، مولوي، منطقتك امتدادها كبير. ولم يسبق لك أن تخطيت حدودها.  
 ولن يُتاح لك أن تفعل ومهما تُهت وسط تلك التخوم البعيدة فسيكون  
 الأمر دائماً هو نفسه بدقة متناهية. يقودني ذلك إلى التّسليم بأنّ تنقلي لا  
 يدين بشيء للأماكن التي تجعله يختفي بل تعود إلى أمر آخر. مثلاً إلى  
 الطّريق المخفية التي تحملني فوق اهتزازات لمرثية من التّعب والرّاحة  
 والعكس صحيح. في الوقت الحالي لم أعد أتسكّع ولا في أيّ مكان.  
 حتّى إنني أكاد لا أتحرك من مكاني، مع ذلك لا شيء تغير، ثمّ إن حدود

غرفتني، سريري، جسمي كلها بعيدة عني أكثر من حدود جهتي وأنا في  
 أوج أبهتي. والدورة مستمرة حاملة معها الثغرات ومعسكرات العراء في  
 مِصر لا أطراف له. دون أبناء أو أم، وحين أرى يدي فوق الملاءة تتسلى  
 بخزي فهما ليستا لي. أقل من ذي قبل. لم يعد لي ساعدان. إنهما زوج  
 يلعب بالملاءة ألعاباً غرامية ربّما. ستركب إحداهما الأخرى ربّما. لكن  
 هذا لا يدوم طويلاً إذ سرعان ما استقطبتهما لنفسي ثانية. إنّه السّلام.  
 ساقى يحدث معها الأمر نفسه. ألحظها عند نهاية السّرير إحداهما بإصبع  
 والأخرى دون إصبع. هذا جدير بالذكر. لأنّ ساقَي اللتين تعوضان  
 ساعدَي اللذين تحدثتُ عنهما منذ قليل قاسيتان. كلتاها قاسية.  
 وحساسة جداً ولا يسعني تناسيهما كما قد أتناسى ساعدَي. على الأقلّ  
 هما سليمان. مع ذلك تناسيتُ ساقَي واستغرقتُ أراقب هذا الزوج الذي  
 يتبادل النظرات في منأى عني. أمّا ساقاي فعلى فرض أنّهما عادتا ساقين  
 فلن أضمتّهما إليّ. لأنّي لا أقدر على ذلك، ستظلّان بعيدتين عني لكن  
 على نحو اللطف، أتصوّر. انتهى التذكير. أعتقد أنّي لو خرجتُ صراحة  
 من مدينتي ثمّ عدتُ لأتأملها في جزء من كليتها، أعتقد أنّي كنتُ سأحسم  
 فيما إذا كانت مدينتي أم لا. لا شيء حصل من كلّ هذا، تأملاتي راحت  
 أدراج الرّياح، لم أستنطق مدينتي بأيّ شكل، لعليّ كنتُ فقط أستدرج  
 مصيري للعودة إليها. هذا كلّ ما في الأمر. لعليّ كنتُ أبلّد بتأملي لها. لا  
 يراودني الإحساس بالندم على درّاجتي، التقدّم لا يسبّب لي القرف كما  
 قلتُ، متأرجحاً فوق الأرض بقليل في الظلام عبر الدّروب المقفرة  
 للرّيف، وقلت لنفسي، إنّ حظوظ قلقي ضعيفة بل أنا من يسبّب القلق  
 لكّل من يراني، عليّ الاختباء في الصّباح لأنّ النّاس يستيقظون نشطين  
 جاهزين متعطشين لتلقّي الأوامر وللجمال والعدالة مطالبين بالبديل،  
 الخطر يكمن بين التاسعة ومنتصف النّهار. فابتداءً من منتصف النّهار  
 تزدحم جميع الأشياء، والعناية يعودون متخمين، لا شيء مثاليّ لكن لا بُدّ  
 أنّهم قاموا بعمل مرّضيّ، هناك ناجون بلا شكّ وهم بطبيعة الحال غير  
 مؤذنين. كلّ يحصي جرّدانه، بعد الوليمة مباشرة يعود كلّ شيء إلى نصابه.

الاحتفالات، التهاني، الخطب، مسائل لا تعني شيئاً أمام جسارة الصّباح، إنها مجرد رياضة لا أكثر. ثمّ بالطّبع حوالي الرّابعة أو الخامسة يأتي فريق المساء، جاء دور اليقظين ليضربوا، لكنّها نهاية اليوم، الجدران تطول والجدران تكثر، إنّها الفترة التي تُحصّد فيها الجدران المائلة برصانة. الحيطان في تلك الفترة تكون مستعدّة للانبطاح فهي لا تعود تخفي شيئاً، أمّا نحن فلا نتخفّى إلّا بدافع الخوف. لا تنظر إلى اليمين ولا إلى اليسار. نتخفّى فقط، لكن ليس إلى درجة إثارة السّخط، كرهين لكن لسنا ننتين، لسنا جرذاناً بقدر ما نحن ضفادع طين، ثمّ ها هو اللّيل الخطر هو أيضاً لكن ملائم للذين يعرفونه، للذين يعرفون كيف يفتّحون فيه كعباد الشمس، للذين هم أنفسهم ليلٌ، ليلاً نهاراً. لا، اللّيل ليس مشهوراً لكن مقارنة بالنّهار اللّيل مشهور خصوصاً مقارنة بالصّباح فهو يصبح بارعاً بشكل لافت. لأنّ التطهير الذي يحدث يؤمّنه الحرفيون في الغالب، هم في الغالب من يقومون بذلك. جلّ السكّان لا يقومون بالتطهير بل يفضّلون النّوم مطمئنين إلى أنّ الأشياء محسومة بعناية. نعدم النّهار لأنّ النّوم مقدّس خصوصاً في الصّباح بين الفطور والغداء. مسؤوليتي الأولى إذن بعد قطع عدد من الأميال عند الفجر المقفر هو أن أجد ملاذاً أنام فيه لأنّ النّعاس عكس ما قد يبدو، هو ضرب من الحماية. فالنّوم وإن كان يثير غريزة القنص، يُفترض أنّه يخفّف غريزة القتل الفوري والدّموي. أيّ صياد في وسعه أن يؤكّد لكم ذلك. أمّا بالنّسبة إلى الوحش الذي يتنقل أو يترقّب مترتباً في مضربه فلا ينبغي أن تأخذنا به الرّحمة بينما ذاك المستسلم للنّوم والذي تسهل مباحثته فإنّ هناك إمكانيّة كبيرة في أن يحظى بمشاعر التردّد التي تخفض ماسورة البندقية وتغمد الخنجر، فالصياد في النهاية ليس سوى شخص ضعيف حسّاس في أعماقه بمخزون عالٍ من لطف وشفقة لا ترجوان سوى اللّحظة التي تفيضان فيها. إنّ دوابّ كثيرة شرّيرة تستحقّ الفناء تدين للنّوم الهادئ الذي يمنحه الإعياء إنّ هي تقضي بقيّة أيّامها في حديقة للحيوان، حيث الضّحكات البريئة للأطفال تنفجر هنا وهناك والفقهقات المتعلّقة للكبار أيام الأحد

والعبد. فيما يخصني كنتُ دائماً أفضل العبودية على الموت أو الأحرى الحكم بالموت. لأن الموت وضع لم أهد يوماً لتخيّله بصورة ضافية، الأمر الذي جعل منه غير قابل للدخول بشكل مُستحق على الخطّ فيما يتعلّق بلائحة آلامي ونعمي. بينما الحكم بالموت لديّ إزاءه تصوّرات توحى لي بالثقة صواباً أو خطأ، يبدو لي أنّه مسموح لي بأن أنسب الأمور وفقها في ظروف معيّنة. بوذيّ! أليست تصوّرات كالتي لديكم؟ هي تصوّرات لها صلة بالنظّ والعرق والارتعاش، تلك الأشياء التي لا تمنحك ذرة صواب أو نقطة دم بارد واحدة. لكنّي قانع بها. وكى أرسم لكم صورة عن الخلط الذي في أفكاري في شأن الموت، أقول لكم بصراحة إنّي لا أقصي فرضية أن يكون الموت أقطع من الحياة بوصفها شرطاً. أجد طبيعياً إذن كوني لا أترع في شأنه، وحين أندفع نحوه فإنّي حتماً سأعرف كيف أضبط نفسي في الوقت المناسب. إنّه عذري الوحيد. أنزلق إذن داخل حفرة نصف نائم نصف متنهّد. أبكي وأضحك وأنا أمرر يدي فوق جسمي لأتنبّت ممّا إذا كان هناك أمر تغيّر وأظّل أنتظر حتّى يهدأ حماس الصباح لأستأنف التوائني. أمّا ما الذي صرت عليه أو أين ذهبتُ خلال الأشهر والسنوات الموالية فهذا ما لا أملك نيّة إفشائه، لأنّي بدأتُ أضيق ذرعاً بكلّ هذا الابتداع الذي يدعوني إليه. لكن وكى أحبر المزيد من الصفحات سأقول إنّي أمضيتُ أوقاتاً على شاطئ البحر دون أن أترع إلى أذى. هناك بين الناس من لا يحبّ البحر فتراهم يفضلون الجبال أو السهول. عموماً لستُ في حال أسوأ قرب البحر. قسم كبير من حياتي تكسّر أمام هذا الهول المضطرب ذي الموج الصّاخب، الكبير، والمخالب الصّغيرة للرّيد. ماذا أقول بساق ممدّدة على الرّمْل أو في مغارة، في الرّمْل كنتُ منهمكاً أسيله بين أصابعي. أحفر فيه حفراً سرعان ما أطمرها أو أنّها تُطمّر من تلقاء نفسها. أرمي به في الهواء على مدّ اليد، أو أندحرج فوقه، أمّا في المغارة حيث اللّيل يغمرها بأضوائه أعرف كيف لا أكن في حال أسوأ ممّا كنتُ عليه في الخارج. إنّ مجرّد الابتعاد عن الأرض أو عدم ابتعادها عني وحده كفيل بأن يمنحني شعوراً بأنّها لم توجد لتخيّني.

إضافة إلى أن هناك شعوراً لطيفاً يغمرنى بسبب يقيني بأنني لم أخطئ هذه المرة وأنا أقرر الاتجاه الذي ليس عليّ اتخاذه كي لا أغرق. لأنني كنت دائماً أقول لنفسى، تعلم المشي أولاً ثم بعد ذلك ستأخذ دروساً في السباحة. لكن حذارٍ من الظن بأن حدود منطقتي تقف عند الساحل. إنه خطأ جسيم. فقد كانت دائماً مؤلفة أيضاً من هذا البحر وهذه الصخور الناتئة والجزر البعيدة والأخاديد المخفية. لقد تنزهت فيها جميعاً بواسطة نوع من القوارب دون مجدف، كنتُ صنعتُ له مجدافاً بنفسى. وأتساءل ما إذا كنت قد عدتُ من التنزه، لأنني وإن كنتُ أرى نفسى أخوض البحر وأبحر طويلاً في الزورق فإنني لا أرى العودة ولا الرقص على الحطام ولا يمكننى سماع صوت احتكاك الهيكل القوي على الساحل. انتهزتُ فرصة إقامتي على ضفاف البحر لأجمع مؤونتي من حجارة المصّ. كانت حصيات لكنني أسميها حجارة. هذه المرة جمعتُ مخزوناً هاماً. وزعتها بالتساوي على جيوبي الأربعة ورحتُ أمصّها بالتناوب. سبّب لي ذلك مشاكل حللتها على النحو التالي، لنقل إن في حوزتي ستة عشر حجر مصّ، أربعة في كلّ جيب من جيوبي الأربعة. جيبا البنطلون وجيبا المعطف، آخذ حجراً من الجيب الأيمن للمعطف وأضعه في فمي وأستبدله بحجر من الجيب الأيمن للبنطلون، أستبدله بدوره بحجر من الجيب الأيسر للبنطلون، أستبدله بحجر من الجيب الأيسر للمعطف، أستبدله بالحجر الذي في فمي، حالما أنتهي من مصّه. بهذه الطريقة يكون لديّ دائماً أربعة حجارة مختلفة في كلّ من جيوبي الأربعة. وحين تراودني الرغبة في المصّ أنهل من جديد حجراً من جيب معطفي الأيمن وأنا على يقين أنني لم أقع على الحجر السابق نفسه. وبينما أمصّ أقوم بإعادة التوزيع التي شرحتها للتوّ. وهكذا دواليك. لكن هذا الحل لا يمنحني سوى نصف الرضا، إذ لا يفوتني أن هناك صدفة عجيبة تجعلني أدور الحجارة الأربعة نفسها. في هذه الحالة أنا أبعد ما يكون عن مصّ ستة عشر حجراً، بل في الحقيقة لا أمصّ سوى أربعة حجارة بالتناوب، لكنني أخلطها جيداً داخل جيوبي قبل الشروع في المصّ وأخلط جيداً قبل

القيام بعملية النقل على أمل تعميم دوران الحجارة من جيب إلى آخر. لكنه حلّ تقريبي تعوزه الدقة ولا يمكنه أن يقنع لفترة طويلة رجلاً مثلي. استغرقتُ إذن في البحث عن شيء آخر. في البداية قلتُ، ماذا لو أن الحجارة أربعة أربعة، سيكون ذلك أفضل. أي بينما أمصّ أخذ الحجارة الثلاثة المتبقية من الجيب الأيمن للمعطف وأضع مكانها الحجارة الأربعة التي كانت في الجيب الأيمن للبنطلون ومكان هذه الأخيرة أضع الحجارة التي في الجيب الأيسر للبنطلون ومكان هذه أضع الحجارة الأربعة التي في الجيب الأيسر للمعطف. ثم في الأخير مكانها أضع الحجارة الثلاثة التي في الجيب الأيمن للمعطف مُضافاً إليها الحجر الذي في فمي حالما أنتهي من مصّه. أعتقد أنني أتوصل إلى نتيجة أفضل لو توّسلتُ هذه الطريقة، إلا أنني غيّرتُ رأيي بعد تفكير جاد. فقد اعترفتُ بيني وبين نفسي أن دوران الحجر في مجموعات مؤلفة من أربع لا فرق بينها وبين دوران الحجارة واحداً واحداً، فلو أنني متأكد في كل مرة من وجود حجارة مختلفة عن الحجارة السابقة في الجيب الأيمن لمعطفي فإن الاحتمال ليس قائماً لا أقل ولا أكثر من كوني ساقع دائماً على الحجر نفسه داخل كل مجموعة رباعية، إذن بالتالي بدل مصّ الحجارة الستة عشر بالتداول كما خطّطتُ فإني في الواقع لا أمصّ سوى أربعة بالتداول. تحتم البحث إذن عن حلّ مغاير لأسلوب الدوران. لآتي لو استمررتُ في تدوير الحجارة بكل الطرق المتاحة فإني ساقع بالضرورة في إشكال رياضي. فكان بديهياً أنني لو رفعتُ في عدد الجيوب أكون في الآن نفسه قد أكثرْتُ من حظوظ الانتفاع بالحجارة كما أرغب أي الواحد تلو الآخر إلى غاية استنزاف العدد. ثمانية جيوب بدل الأربعة التي أملكها مثلاً. على الأقل بهذه الطريقة حتّى أعتى الصدف الخبيثة لا يمكنها أن تمنع تناوبي على مصّ ثمانية حجارة على الأقل من ستة عشر. عموماً يلزمي ستة عشر جيواً كي أكون مطمئناً تماماً. وخلال وقت طويل كان عليّ أن أخلص إلى أنني لن أصل إلى النتيجة التي ارتهنتها بأقل من ستة عشر جيواً، إلا إذا حالفتني حظّ خارق. إن كان من الجائز مضاعفة عدد جيوبي فهذا

لن يتحقق إلا إذا قسمتُ كلَّ جيب إلى اثنين بواسطة دبابيس مزدوجة إن  
 صحَّ التعبير. افترض أنَّ الرباعية تفوق قدراتي المتواضعة ولا أعتقد أنَّني  
 كنتُ سأرهق نفسي لأجل نصف معادلة، فقد بدأتُ أفقد حسَّ المعادلة  
 منذ انخرطتُ في هذه الحكاية والحقُّ أقول إمَّا الكلَّ وإمَّا لا شيء ولو أنَّني  
 أصبرتُ في لحظة من اللحظات على تحقيق نسبة من العدالة بين  
 حجارتي وبين جيوبي بجعل هذه مساوية لتلك فهي تبقى في الأخير  
 مجرد لحظة. لاَّني، لأعترف، انهزمتُ. جالساً على الشاطئ قبالة البحر  
 وحجارتي الستة عشر منشورة أمامي، وجدتنني أتأملها بحيرة وغضب،  
 وبقدر ما كنتُ أجلس بمشقة على كرسيٍّ أو كنية بسبب ساقِي الصلبة  
 (تفهمون) فإني أجلس بسهولة على الأرض بسبب ساقِي الصلبة  
 والأخرى الماضية في طريقها لنيس هي أيضاً. أقول ماضية في طريقها  
 كأنها جيِّدة، والحال أنها فقط أفضل بقليل من شقيقتها. أحتاج إلى دعامة  
 أضعها تحت باطن ركبتَي (تفهمون) أسفل ساقِي برمتها. على كلِّ،  
 الأرض تنجز المهمة جيِّداً. وبينما أراقب حجارتي وأنا أجترُّ حيل الغشِّ  
 التزيهة في ألعاب الحظِّ والتي تبيِّن أنَّها جميعاً باطلة، وأهشم أكداًس  
 الرَّمَل الصَّغيرة بقبضة يدي فينسكب الرَّمَل بين أصابعي على الشاطئ  
 وبينما أحبس النَّفس على روحي وعلى جزء كبير من جسمي، ربَّما داهم  
 جسمي الموت وهو في كامل ألقه يوماً ما على حين غرَّة، فأنتهي دون أن  
 أرفع في عدد جيوبي أو أنقص عدد الحجرات بل أكون فقط قد ضحيتُ  
 بنظريَّة الرِّصِّ، هذا الخاطر الذي اجتاحني فجأة كسورة من سور إشعيا  
 وإرميا<sup>(١١)</sup> والذي تطلَّب مِنِّي فهمه وقتاً طويلاً خصوصاً عبارة رِصِّ، تلك  
 التي ظلتُ مبهمه وقتاً طويلاً بالنسبة إليَّ لا سيَّما أنَّني لا أعرفها، لكن في  
 نهاية الأمر ظننتُ بأنِّي خمنتُ أنَّ كلمة رِصِّ لا يمكن أن تعني شيئاً مغايراً  
 أو أفضل من كونه مجرد توزيع للحجارة الستة عشر على مجموعات  
 مؤلَّفة من أربعة كلَّ جيب وأنَّ رفضي لجميع الطُّرق الأخرى هو الذي

١١ - إشعيا وإرميا: أنبياء من بني إسرائيل.

بعثر حساباتي وجعل الإشكال بلا حلّ. بفضل هذا التحليل، لا يهم إن كان سليماً أم لا، المهمّ أنّي بفضلّه توصّلتُ أخيراً إلى حلّ. ليس رشيقيّاً تماماً لكن على الأقلّ متين. متين للغاية. الآن وقد وُجد ويوجد دائماً حلول متينة لكن أكثر رشاقة من التي أحاول وصفها، لم يبقَ إلّا أن أصدق ذلك، وأن أكون حازماً في تصديقي له. وأظنّ مع القليل من العناد والمقاومة أنّي قادر على إيجادها بنفسي لكنّي كنتُ متعباً. متعباً إلى درجة أكتفي معها، بكلّ جبن، بأول حلّ أصادفه. ودون حوصلة للمراحل والمآسي التي سأمّرّ بها قبل سدّ الثغرات، ها هو حلّي بما فيه من قبح، ما عليّ فعله لأبدأ مثلاً، هو أن أضع ستّة حجارة في الجيب الأيمن للمعطف لأنّه يظلّ دائماً الجيب المانح. خمسة في الجيب الأيمن للبنطلون وأخيراً خمسة في الجيب الأيسر للبنطلون، هكذا يكتمل العدّ. خمسة ضارب اثنين مع ستّة يساوي ستّة عشر. ولا واحدة - لأنّه لا وجود لأخرى - في الجيب الأيسر للمعطف والذي هو في الوقت الحالي فارغ. فارغ من الحجارة أقصد، فمحتواها المعتاد موجود دائماً، إضافة إلى أشياء عرضيّة أخرى. أين تعتقدون أنّي أخفي سكّين الخضر وأدوات الأكل والقرن والبقية التي لم أسمّها بعد والتي ربّما لن أسمّيها أبداً؟ حسناً الآن يمكنني أن أشرع في المصّص. راقبوني جيّداً. آخذ حجراً من الجيب الأيمن للمعطف. أمصّها، ثمّ لا أعود إلى مصّها واضعاً إيّاها في الجيب الأيسر للمعطف، الفارغ، الفارغ من الحجارة طبعاً. آخذ أخرى من الجيب الأيمن للمعطف أمصّها ثمّ أضعها في الجيب الأيسر للمعطف، وهكذا إلى أن يفرغ جيب المعطف الأيمن إلّا من محتوياته الأصليّة القارّة والعرضيّة وتحوّل الحجارة الستّة التي قمتُ بمصّها إلى الجيب الأيسر للمعطف. أتوقّف برهة لأفكّر لأنّي لستُ على استعداد لأرتكب حماقة. أحول الحجارة الخمسة التي في جيب بنطلوني الأيمن إلى الجيب الأيمن للمعطف الذي أصبح الآن فارغاً. وأستبدلها بدورها بستّة حجارة من الجيب الأيسر للمعطف. هكذا إذن يكون الجيب الأيسر للمعطف خاوٍ من الحجارة بينما الجيب الأيمن للمعطف لا يحتوي - بالمعنى الإيجابي

للكلمة - على حجارة لم آتِ على مصّها والتي سأشرع في مصّها بدورها. الواحد تلو الآخر وأنقلها من الجيب الأيسر للمعطف وأنا على يقين يناسب الطّرح الذي رتبتُ أفكاره وفقه بأنّي لا أمصّ الحجارة السّابقة، بل أخرى، وحالما يفرغ الجيب الأيمن للمعطف (من الحجارة) وتكون الخمسة التي أتيتُ على مصّها قد تحوّلت إلى الجيب الأيسر للمعطف، أعيد التّوزيع كما أسلفت أو ما يناظره، أي أن أنقل إلى الجيب الأيمن للمعطف الذي بات جاهزاً للاستقبال الحجارة الخمسة التي في الجيب الأيمن للبنتلون. والتي سأستبدلها بالحجارة الستة التي في الجيب الأيسر للبنتلون وأستبدلها بدورها بالحجارة الخمسة التي في الجيب الأيسر للمعطف. هكذا أكون جاهزاً للعود على البدء. هل أتابع؟ كلا لأنّه من الواضح عند نهاية سلسلة المصّ والتّحويل أنّ الوضع الأوّل قد تركّز من جديد، أي أن أكون قد حصلتُ على الحجارة الستة الأولى في الجيب المانع. الخمسة التالية في الجيب الأيمن لبنتلوني العتيق والخمسة الأخيرة في الجيب الأيسر من البنتلون، أي على ستة عشر حجراً ممصّوصاً للمرّة الأولى في تتابع رائع ومتناسق دون أن يكون أحدها قد امتصّ مرتين ودون أن يكون قد حُرّم أحدها من المصّ. صحيح أنّي لا أطمع في مصّ حجّارتي بالترتيب الأسبق نفسه وأنّ الأوّل والسّابع والثاني عشر من الدّورة الأولى مثلاً يمكن أن يكون السّادس والحادي عشر والسّادس عشر من الدّورة الثّانية، تناسباً، في أحلك الظّروف. مع أنّه يظلّ هناك خللٌ لا يمكنني اجتنابه، وإن كان لا بُدّ في عموم الدّورات أن يسود نوع من التّعقيد فعلى الأقلّ في صلب كلّ دورة على حدة أنا مطمئنّ. حسناً مطمئنّ في حدود ما يتيح هذا النوع من النّشاط. إذ كي أضمن تشابهاً مثاليّاً بين الدّورات من حيث ترتيب الحجارة التي تدخل فمي والله وحده يعلم أنّي حريص على ذلك، فسيكون عليّ دائماً توفير ستة عشر جيّاً أو ترقيم الحجارة. هنا بدّل أن أضيف اثني عشر جيّاً أو أرقم الحجارة سأفضّل الاكتفاء بالطمأنينة النسبيّة التي سأنعم بها وأنا أخوض كلّ دورة بصورة معزولة. لأنّ الحكاية ليست بالأمر الهين، إذ عليّ إضافة

إلى ترقيم الحجارة أن أحفظ رقم الحجر الذي ألقى به في فمي وأن أبحث في كل مرة عن الرقم الصحيح داخل جيوبي، الأمر الذي لا بُدَّ أنه سيفسد مذاق الحجر في وقت وجيز. إذ لا شيء يضمن لي أنني لن أخطئ، إلا إذا تسلّحت بدفتر أسجّل فيه رقم الحجر الذي انتهيتُ من مصّه للتوّ. وهو أمر لا أظنني قادراً عليه. يظلّ الحلّ المثالي هو التزوّد بستة عشر جيّاباً معلوماً يحتوي كلّ واحد منها على حجره الخاصّ. في هذا الحالة لن أكون في حاجة إلى أرقام ولا إلى تفكير بل فقط وأنا أمصّ حجراً مُعيّناً إلى أن أنقل الحجر الآخر كأنه يتقدّم في طابور دائريّ. عمل حسّاس لو شتم لكنني أطيقه على الأقلّ، هذا إضافة إلى مزية تناول الحجر القادم من الجيب نفسه دائماً عنّي لي المصّ. على هذا النحو أكون مطمئناً لا فقط داخل كلّ دورة معزولة بل في عموم الدورات أيضاً. إنّما على علله أنا سعيد بحلّي. نعم سعيد كفاية لأنني توصلتُ إليه بمفردي. ورغم أنّه أقلّ توهّجاً ممّا ظننتُ في البداية، مأخوذاً بحرارة الاكتشاف فإنّ بشاعته تظلّ كاملة على الأقلّ. ما يجعله رثاً في رأيي هو أنّ التوزيع غير العادل للحجارة قد تعذّر لأسباب جسديّة بحتة. وصحيح أنّ هناك نوعين من التوازن يسودان في وقت معيّن خلال البدايات من كلّ دورة أي بعد الحجر الثالث وقبل الرابع، لكنّه أمر لا يدوم طويلاً. بقيّة الوقت أشعر بثقل الحجارة يسحبني تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، إذن في المحصلة لم أصرف النظر عن نظريّة وأنا أسقط خاصيّة الرصّ، بل أكثر من ذلك لقد صرفتُ النظر عن حاجة بشريّة. من جهة أخرى مصّ الحجارة كما فسّرت (ليس أيّ مصّ) هو في اعتقادي حاجة إنسانيّة جسديّة هو أيضاً. نحن إذن إزاء مواجهة بين حاجتين جسديّتين ليستا البتّة متجانستين، إنّ بين الأشياء العديدة التي قد تحدث، أن أفقد اتزانني لكنني في الأخير أسخر بجنون من فكرة أنني فقدتُ توازني، مائلاً إلى اليمين واليسار، إلى الأمام والوراء بصورة عاديّة، تماماً كما أصبح سيّان لديّ أن أمصّ حجراً مختلفاً في كلّ مرة، أو أن أمصّ الحجر نفسه منذ قرون، إذ إنّ لديه المذاق نفسه. وكوني التقطتُ منها ستة عشر فليس لأثقل كاهلي بطريقة أو بأخرى بل لأمصّها

بالتناوب إنما ببساطة كي أحصل على مؤونتي الصغيرة حتى لا تعوزني الحجارة أبداً. لكن في أعماقي لا أكثرث بعوزي إلى الحجارة حين لا يكون لديّ منها، هذا يعني أنني لا أملك منها، لا أحزن أو لنقل قليلاً فقط، والحلّ الذي ارتأيتُه في الأخير، هو أن أقذف بكلّ الحجارة في الهواء إلّا واحداً أحتفظ به مرّة في هذا الجيب ومرّة في الآخر، والذي لن يطول عمره إذ سرعان ما سأفقدّه أو أتخلّص منه أو أبتلعه.

كان ساحلاً بريّاً لا أذكر أنني تضايقتُ فيه بشكل جاد. كيف يُراد السوء لنقطة سوداء وسط رحابة الرمل الشّاحب؟ يُقترَب منها هذا صحيح لكن ليُرى إن كان غرضاً ذا قيمة أتت به عاصفة عِقب غرق لكن حين يتّضح أنّ الحطام يعيش في حالة جيّدة رغم أنّه رثّ فإنّهم يشيخون عنه. تأتي نساء مُسنّات وأخرى شابّات لجمع الحطب فنستشيرهنّ رؤيتي لبعض الوقت لكنّهنّ لا يتغيّرن وفي النهاية عرفوا ما أكون فاتخذن منّي مسافة. أظنّ أنّ إحداهنّ أفلتت من المجموعة يوماً، وجاءتني، قدّمت لي ما يؤكل وبقيت أنظر إليها دون إجابة إلى أن انسحبت، في تلك الفترة أظنّ أنّ حادثاً من هذا النوع قد وقع. أو ربّما خلطتُ بين ذاك وبين إقامة في مكان آخر قبله، إقامتي الأخيرة هذه، قبل الأخيرة، فليس هناك أخير على شاطئ البحر مهما يكن من أمر، هناك امرأة تأتي صوبي ملتفتة بين الحين والحين إلى بقية رفيقاتها، ملتصقات بعضهنّ إلى بعض كالنّعاج كي يرينها تبتعد وكنّ يشرن إليها بحركات لتشجيعها ضاحكات، بلا شكّ لأنني سمعتُ الضحكات من بعيد، ثمّ رأيتها تُدبر عائدة أدراجها والآن هي تلتفت إليّ دون توقّف، لعلّي خلطتُ بين اثنتين، واحدة تقبل ناحيتي في حياةٍ متبوعة بصيحات وضحكات من رفيقاتها وأخرى تبتعد بخطوات أكثر ثقة. لأنّ الناس الذي يأتون إليّ، يأتون من بعيد، إنّها إحدى مزايا الشواطئ. يبدوون لي نقاطاً سوداء من بعيد وأستطيع متابعة هرجهم قائلاً، إنّهُ يتضاءل، إنّهُ يكبرُ، لذا يستحيل أخذي على حين غرة لأنني ألتفت ناحية الأرض أيضاً، سأخبركم بأمر، أنا أفضل على حافة

البحر! نعم، وأنا أجوس في كل هذا الامتداد، في كل الاتجاهات دون عوائق ودون أشياء عمودية، يمكنني التأكيد بأن عيني التسليمة تعمل بشكل أفضل، أما التالفة فهناك أيامٌ يُلْفَتُ فيها انتباهها هي أيضاً. لم أكن أرى أفضل فحسب، بل كان من الصَّعب عليّ أن ألبس الأشياء النادرة التي أراها بأسماء محدّدة، إنّها بعض المزايا والمساوي التي يُصادفها المرء على حافة البحر، أو لعلّي بدأتُ أغيّر، لِمَ لا؟ في الصّباح داخل مغارتي وحتى في بعض الليالي التي تهبّ فيها العواصف أشعر أنّي نسبياً أنجو من العناصر والكائنات، هنا أيضاً ثمة ثمن يُدفع، في مغارتي أو صندوقي هناك أيضاً ثمن يُدفع، أسدّده عن طواعة لفترة من الزمن لكن لا يمكن بحال أن نستمرّ في الدّفع إلى الأبد، أمر مستحيل أن تشتري الشيء نفسه في حياتك القصيرة، ثمة حاجة أخرى عدا التعفّن في سلام، ليست العبارة، أنا أتحدّث بطبيعة الحال عن أمّي التي لا تنفك صورتها تراودني تحت ضوء خافت. ألْتحق بالداخل إذن لأنّ مدينتي ليست على البحر بصورة دقيقة مهما تيسّر الكلام عنها، لكن بين مدينتي وبين البحر هناك ما يُشبه المستنقع على ما أذكر من بعيد، ذاك أنّ ذاكرتي تغوص عميقاً في الماضي الفوريّ، ثمة دائماً سُبُلٌ لتجفيف المنابع بواسطة القنوات بلا شكّ أو بتحويل ضواحيها إلى مرافئ ممتدّة أو بمنح العمّال أحياء منتصبة على أوتاد، أي في النهاية استغلالها بطريقة أو بأخرى، هكذا نكون قد ألغينا الكارثة المُحدقة بأبواب المدينة كما هو الشأن بالنسبة إلى مستنقع ضحل نتن يعلوه الدّخان ويتلع كلّ سنة عدداً لا يُحصى من الأرواح البشريّة، الإحصائيات تخونني في الوقت الحاضر، وستخونني دائماً دون شكّ لشدة ما تركتني هذه القضية على الحياض، أن تكون الأشغال قد انطلقت فعلاً وأنّ بعض الحظائر استطاعت الحفاظ على بقائها في أيامنا هذه، مواجهة الإحباط والفشل والفناء البطيء للعمّال و سطوة السّلطة العمومية لا يعني أبداً أنّي سأتجرّأ يوماً على إنكار الجمال، بين هذا وبين البحر الذي يغسل أقدام المدينة ثمة هامش، من جهتي لن أنضمّ إلى هذا الطّمس للحقيقة إلّا إذا اضطررتُ إلى ذلك أو

كنتُ في حاجة إلى أن تسير الأمور على هذا النحو، في الواقع لم أكن أعرف هذا المستنفع جيداً أو قليلاً كي أعرض حياتي إلى الخطر في مناسبات عديدة خلال فترة من حياتي أكثر زخماً بالتهبُّوات من تلك التي أريقها هنا. أقصد مشبعة ببعض التهبُّوات وفقيرة للبعض الآخر، يعني ليس ثمة سبيل لولوج المدينة مباشرة عن طريق البحر بل يجدر أن نرسو أولاً في الشمال أو الجنوب قبل اتخاذ الطريق، هل تتصورون؟ لأنَّ السكك الحديدية كانت في طور الإنجاز! عملية التقدّم الآن بطيئة ومضنية كعهدنا، بلغت ذروتها بسبب ساقِي القصيرة القاسية، تلك التي منذ زمن طويل ما انفكت تُعطيني الانطباع بأنّي تخطيتُ سقف القسوة، لكن لتذهبوا إلى الجحيم! لأنّها أصبحت قاسية كما لم تكن يوماً، حسبتُ أنّ أمراً كهذا مستحيل، ليس ذلك فحسب، بل إنّها تزداد قصراً يوماً بعد يوم، لكن أيضاً بسبب ساقِي الأخرى التي سرعان ما أصبحت قاسية هي أيضاً، كأنّها لم تكن مرنة من قبل، لسوء الحظّ لم تكن قد بدأت تقصر بعد، فأن تقصر كلتاها في الوقت نفسه وبالوتيرة نفسها لا يُعتَبَرُ هذا شنيعاً أبداً، أمّا أن تقصر واحدة وتظلّ الأخرى كما هي عليه فهذا يدعو إلى القلق، لستُ قلقاً تماماً لكنّي مترعج، هو ذا، فقد كنتُ محتاراً أيّ ساق أرتكز عليها وأنا أمارس ألعابي البهلوانية، لنحاول التمعّن في المعضلة بوضوح، الساق الصلبة، أنصتوا إليّ جيداً، تؤلمني كما هو معلوم، وعلى الأخرى أن تقوم بدور المحور أو الدّعامة، لكن ها هي ذي الأخيرة وقد بدأت تؤلمني أكثر من شقيقتها، بلا شك بسبب تصلّبها الذي لا يمكن أن يحدث دون نوع من الارتجاج على مستوى أعصابي والأوتار، يا لها من حكاية شرط أن لا أكون طرفاً فيها، لأنّ الألم القديم تفهمون، كنتُ على نحو ما قد اعتدته، نعم على نحو ما، لكنّ الجديد رغم أنّه من العائلة نفسها، لم أجِد الوقت كي أهتدي إلى طريقة تجعلني أتلاءم معه، لا ننسى أنّه بوجود ساق تالفة وأخرى سليمة نوعاً ما، يمكنني إقناع الأخيرة بالتخفيض، أقلّ ما يمكن، أكثر ما يمكن من العذاب باستعمالها وحدها مستعيناً بالعكازين. لكنّي لا أملك هذا الامتياز! إذ لم

يعد لي ساق تالفة وأخرى سليمة تقريباً. في الوقت الحالي ساقاي  
الاثنتان معطوبتان، الأسوأ في رأيي هي التي ما لبثت أن تكون سليمة  
حتى عهد قريب جداً، سليمة، حسناً تقريباً سليمة، والتي لم أقبّل تلفها  
بعد بصورة ما، لو أردتم، كان لي دائماً واحدة تالفة وأخرى جيّدة، أو  
بالأحرى واحدة أقل تلفاً، مع فرق واحد هو أنّ التالفة في الوقت الحاضر  
لم تعد تلك التي نعرفها، هذا يجعلني أرغب أحياناً في الارتكاز على  
ساقِي التالفة سابقاً كلّما ضربتُ بالعكازين، لأنّها وإن ظلت حسّاسة  
جداً، فهي أقلّ حسّاسية من الأخرى أو مساوية لها على الأقل، إذا أردنا،  
غير أنّها لم تكن تسبّب لي المتاعب بسبب أقدميّتها، لكنّي لا أقدر! ماذا؟  
أرتكز عليها؟ لا ننسى أنّها تقصر فيما الأخرى تتصلّب فقط ولم تبدأ بعد  
في التضاؤل أو أنّها متأخرة عن رفيقتها تماماً مثل، مثل، لقد تهتّ، لو أنّ  
في استطاعتي طيّها على مستوى الرّكبة أو حتّى الورك لأمكنني اصطناعياً  
جعلها قصيرة كالأخرى، الوقت الذي يسمح لي بالهبوط على القصيرة  
الحقيقيةّة قبل أن أندفع، لكنّي لا أقدر! ماذا؟ طيّها؟ كيف أطويها وهي  
صلبة؟ اضطررتُ إذن إلى تشغيل السّاق نفسها كما في الماضي رغم أنّها  
أصبحت الأسوأ على أرض الواقع بين الاثنتين والأكثر تطلباً وحاجة إلى  
العناية، صحيح أحياناً آتني عندما أعثر بسرور على طريق مُحدّب كما  
ينبغي أو حين أغنم الفائدة من وجود خندق قليل العمق أو أيّ فارق آخر  
في الارتفاع قد يصلح لي، فإنّي أحتال كي أمدّ ساقِي القصيرة القاسية  
لأستخدمها بدل الأخرى، لكن مضيّ وقت طويل على آخر مرّة عملتُ  
فيها ولم تعد تعرفُ كي تتصرّف، أعتقد أنّ عموداً من الصّحون كان  
سيصلح لي أفضل منها هي التي حملتني بعنفوان حين كنتُ كتلة من  
الحمم. هنا يتدخل مُعطى آخر من عناصر فقدان التوازن، وأنا أستغلّ  
تضاريس الأرض لصالحِي، أعني العكازين لا بُدّ أن يكون أحدهما  
قصيراً والآخر طويلاً كي أجنب الميلان على الخطّ العموديّ، أليس  
كذلك؟ لا أدري، بقي أن دروبي، دروبي أنا، علينا أن ندرك، في أغلبها  
أزقة في الغابة حيث تنحرف المستويات على كثرتها، كانت دائماً مُشوّشة

وتتبع خطوطاً أكثر انحرافاً من أن تساعدني، لكن في العمق هل ثمة فرق بين أن تنعم ساقِي بالبطالة وبين أن يتوجّب عليها العمل فيما يتعلّق بالألم؟ لا أتصوّر، لأنّ الآلام التي لا تفعل شيئاً كانت دائماً مستقرّة وعلى وتيرة واحدة بينما الأخرى التي يُزجّ بها في تفاقم الألم هذا المُمثّل في العمل فجربّت نقصان الألم المُمثّل في العمل المُمثّل للحظة على الأقلّ، لكنّي إنسان أظنّ، ويمكن التفتّن إلى تقدّمي بين كلّ هذه الأشياء، وهذا التحوّل المضني البطيء الذي ما انفكّ يرافقني والذي تمكّنتُ مع ذلك من وصفه، مع احترامي، تحوّل إلى صليب حقيقيّ لا نهاية لمحطّاته ولا أمل له في الصّلب، أقولها دون تواضع زائف ودون الحاجة إلى تزكية من سيمون<sup>(12)</sup>. نعم تقدّمي يضطرّني إلى التقدّم أكثر فأكثر أحياناً. كانت أفضل وسيلة للتقدّم هي أن أتوقّف، وكونها توجد ضمن نواياي المضطربة للقيام بتحليل عميق للحظات سياقية سحيقة كما ينبغي، فإنّي على الأقلّ سأبدع بعض الكلمات وسأكون طيّباً كفاية كي لا تكتمل روايتي الواضحة في العتمة، في عتمة الأدغال الشائكة وأوراقها العملاقة حيث أعرج وأتمدّد وأنهض وأسمع وأعرج، مُتسائلاً بين الحين والحين هل عليّ التنصيص على ما إذا كنتُ سأشهد اليوم السيئ الذّكر غير المحبوب حيث سأكون شاحباً ومشدوداً بين آخر جذع وبين أُمّي التي عليّ معالجة مسائلي معها، أو ما إذا كان من الأفضل أن أتسلّق غصناً وأتدلى، ليس لديّ أمل في أن أشهد ذلك اليوم، وأُمّي هل من حقّي أن أطمع في انتظارها لي دائماً؟ وساقِي، ساقاي؟ غير أنّ أفكار الانتحار لا تراودني كثيراً، لم أعد أعرف لماذا. اعتقدتُ أنّي أعرف، لكن أظنّ بأنّي مخطئ، فكرة الاختناق رغم أنّها مغربة كنتُ دائماً أصل معها إلى طريق مسدود بعد معركة صغيرة، سأعترف لكم بأمر، لم أعرّض

12 - سيمون: سيمون الكنعانيّ أو (شيمون)، واحد من بين الحواريين اليهود الاثني عشر المذكورين في إنجيل لوقا. يُذكر أنّ المسيح أوصى بأن يتسلّموا المدينة لنشر الدّين وإشاعة المحبة والسّلام. سيمون هو الحواريّ الذي إذا ذُكر في الأناجيل فهو يُذكر دائماً على رأس قائمة الحواريين.

يوماً لشيء معين يتعلق بقناتي التنفسية عدا البؤس الذي يرتبط عادة بهذا الجهاز، نعم، يمكنني عدّ الأيام التي يبدو فيها أن الهواء المُشبع بالأكسجين لا يريد التزول داخلي أو يُطرد إذا نزل. كان في وسعي عدّها، آه نعم، كم مرّة حاولتُ وضع حدّ لضيق تنفسي بقصّ شريان العنق أو القصبة الهوائية، لكنني قاومتُ، يخونني الصّخب فيحول لوني إلى البنفسجي، يتأبني ذلك خاصّة في الليل حيث لا أدري ما إذا كنتُ سعيداً أم حزيناً. فكما أن الليل يجمع الألوان فإنّه على العكس يُضخّم الأصوات الخافتة ويجعلها مسموعة بشكل واضح بسبب سكونه، لكنّها مجرد أزمات والأزمات لا تُعتبر شيئاً مقارنة بما لا يتوقّف أبداً، بما لا يعرف لا تياراً ولا انحساراً على سطح الرّصاص، أو في الأعماق الجحيمية، ولا كلمة! ولا كلمة في شأن الأزمات التي تقبض عليّ وتقتلني، ثمّ بلطف يُرمي بي دون أن يُحكى عني للغير، وألف معطفي حول رأسي كي أخنق الصّوت الفاحش للاختناق أو أموه عليه بخمس عطسات متتالية، وهي مُعتمدة كونياً، عيبها الوحيد هو أنّها قد تسبّب الشّفقة، وأظنه الوقت المناسب كي أسوق الملاحظة التالية، الألوان لا تموت أبداً إذا أردنا أن نسوق ملاحظة، حين أقول إنّ تقدّمي أصبح وثيداً عقب العطب الذي أصاب ساقي الجيدة، فأنا لا أروي سوى قسم ضئيل من الحقيقة لأنّي في الواقع أملك نقاط ضعف أخرى هنا وهناك بدورها تفاقمت وأصبحت أضعف فأضعف كما هو مُتوقّع، غير المتوقّع فعلاً هو السرعة التي تفاقم معها الضّعف منذ غادرتُ الشاطئ. لأنّي ما دمتُ على حافة البحر فإنّ نقاط ضعفي التي تتفاقم كما هو معلوم، لم تكن تتفاقم إلّا بشكل بطيء، إلى درجة أنّي، وأنا أتحدّس شرجي مثلاً، لم أكن عند ضرورة الصّراخ، آه تباً إنّ حالته ساءت كثيراً مُقارنة بالأمس كأنّه ليس الثقب نفسه، أعتذر إن عدتُ ثانية للحديث عن مخرجي المخجل، ألّهني تريد ذلك، ربّما تجدر الإشاحة عن العادة المُسمّاة أكثر من رمزها الذي أحاول إسكانه، ربّما ينهل نبله من مركزيته وهيئته التي على شكل همزة وصل بيني وبين الخراب. في اعتقادي لا يحظى بالعرفان هذا الثقب الصغير، نسّميه ثقب

الدّبر ونحقد عليه. لكن لم لا يكون هو بوّابة الإنسان حيث الفم ليس سوى باب الخدمات المتواري؟ لا شيء يدخل منه وحتى إذا حدث ذلك، فنادرًا ما لا يتمّ لفظه فوراً، يقرّف كلّ شيء آتٍ من الخارج، أمّا بالنسبة إلى ما يصل إليه من الدّاخل لا يمكن القول إنّّه يتعامل معه في شكله الأصليّ، أليست هذه أشياء موحية؟ التاريخ هو الذي سيقول كلمته في هذا الشّأن، مع ذلك سأهيم به قليلاً في المستقبل وهذا سيكون يسيراً، إذ لن أتحدّث عن المستقبل بما أنّه غير معلوم، أمّا بالنسبة إلى ترك الضروريّ جانباً فأنا أعرف نفسي كفاية كي أبنّي حول هذه الظاهرة أخباراً متضاربة، لكن بالعودة إلى نقاط ضعفي سجّلت أنّها تطوّرت بشكل طبيعيّ على حافة البحر، لم ألاحظ أشياء غير طبيعيّة، أمّا أنّي لم أعرها اهتماماً خاصّاً بسبب تكريس اهتمامي كلياً للتحوّل الذي طرأ على ساقِي الرّائعة أو أنّ شيئاً لم يكن حقيقة يسترعي الانتباه في ذلك الشّأن، لكن ما إن غادرتُ حافة البحر خوفاً من الاستيقاظ يوماً بعيداً عن أمّي وساقاي متبيّستان كعكازيّ حتّى قفزت نقاط ضعفي ومن الضّعف بدأت تموت رويداً في غيابي نقاط الحيويّة التي يُفترض أن تستبقيها، أذكر في تلك الفترة الاستسلام الجبان لأصابع قدّمِي، ستقولون لي، عُدت إلى حكاية ساقيك، وأنها أشياء بلا قيمة ما دمّت في كلّ الأحوال لا أضع ساقِي على الأرض. صحيح لكن هل لديكم فكرة عن أيّ ساق أتحدّث قبلاً؟ لا. أنا أيضاً. انتظروني. سأخبركم. معكم حقّ. هذه ليس نقطة ضعف بأنّ معنى الكلمة، كنْتُ أظنّ أنّ أصابع ساقِي في صحّة جيّدة، عدا بعض الأورام والبصل والأظفار التي تكاد تتجسّد والاعوجاج الذي يرافق التشنّج، إنّ نقاط ضعفي الحقيقيّة تكمن في أمكنة أخرى وكوني لا أدوّن في شأنها قائمة خلال حصّة كاملة فلاّتي لن أفعل أبداً، بالتأكيد لن أدوّن إلّا إذا ————— ثمّ إنّي لا أودّ تقديم فكرة مغلوطة عن صحتي تلك التي حتّى لو لم نطلق عليها صفة المتألّفة أو المتحدّلقة فهي في العمق قويّة بشكل مُذهل، إذ كيف نفسر بلوغي هذا العمر الضخم الذي بلغته؟ بفضل خصالي الأخلاقيّة؟ عادات غذائيّة صارمة؟ الهواء النقي؟

سوء التغذية؟ مشاكل النوم؟ الوحدة؟ الاضطهاد؟ الصراخ المكنون الطويل (الصراخ خطير)؟ الرغبة اليومية في أن تبذلني الأرض؟ عني من فضلكم. دعكم. القدر حقود لكن ليس إلى هذا الحد. انظروا إلى أمي، لماذا ماتت في الأخير؟ أتساءل. لا أستغرب في أن يكونوا قد دفنوها حية. البقرة! لقد عرفت كيف تنقل لي كرموز وماتها. مليئاً بالبثور كقفذ منذ غضاضة سنّي، يا للجمال! القلب ينبض لكن كيف، بقناة المثانة، لا. ولكن ولا كلمة في هذا الموضوع، والحبوب هاه! وكيس البول والمجاري ورأس الذكر. أيتها العذراء «مريّا». سأخبركم بأمر. لم أعد أبول. بشرفي. إن غلافي يفوح بالبول ليلاً نهاراً، أظنّ أنه البول، أشمّ رائحة كلية أنا الذي فقد حاسة الشمّ منذ زمن. هل يجوز الحديث عن البول في هذه الظروف؟ لنر. عرقي أيضاً ———— وأنا لا أفعل شيئاً عدا التعرّق - لديه رائحة غريبة. ولعابي السائل على الدوام يمزح معي هو أيضاً، أنا أنخلّص من الفضلات ليس إلّا. لستُ مختلفاً عن أحد، يغمض البول عينيه عني وحدي. أنا أيضاً سأدفنُ حياً بعد اليأس من وجود دافع لذلك، هذا إذا كانت هناك عدالة. وقائمة نقاط الضعف التي لن أدونها أبداً خوفاً من أن أنتهي منها، سأنجزها ربّما يوماً يكون عليّ فيه القيام بجرد لممتلكاتي وغنائمي، في ذلك اليوم، ولو آتي سأكون أقلّ خشية من أن أنتهي كما هو الحال اليوم، فالיום وإن كنتُ لأحسّ نفسي على وشك بدء الرحلة لا أدعي كذلك آتي على مشارف الوصول، كان عليّ إذن أن أجهزَ لأجل السباق، عدم القدرة على خوض السباق حين تدق الساعة. لا شكراً. من الأفضل التخلّي. لكنّ التخلّي أو حتّى التوقف لحظة ممنوعان. سأتقدّم إذن وأنا أنتظر أن يدقّ الناقوس ويُقال مولوي دحك، لا تعد تزعج نفسك. هكذا أحلّل متوسلاً صوري الخاصة في وضعيتي. ثمّة إحساس لا يفارقني، لا أدري لماذا تقريباً، بأنّي سأتحّدث يوماً ما عمّا سيبقى من الأشياء التي كنتُ سأغنمها. لأجل ذلك يتوجّب عليّ الانتظار حتّى أتأكد تماماً من آتي لن أحصل على شيء ولن أخسر شيئاً ولن أرمي أو أعطي شيئاً. في تلك الحالة يمكنني التحدّث دون

خشية من أن أخطئ عما بقي لي من ممتلكات في نهاية المطاف. لأنها ستكون الحساب الأخير، من هنا إلى ذلك الحين يمكنني أن أفقر، أن أترى. ليس إلى درجة أن تتغير وضعيتي لكن ما يكفي ليمنع منذ الآن أن يكون ما يبقى هو ما سأحصل عليه، بما أنني لم أحصل بعد على كل شيء، لكنني لا أفهم شيئاً بخصوص هذا الإحساس المبكر وهو في الواقع حال كل الأحاسيس المبكرة الجيدة التي لا نعرف عنها شيئاً أظن. سيكون إذن إحساساً مبكراً رائعاً يستحق أن يفحص. أظن أن الأشياء الخاطئة تستسلم للتضاؤل حسب قانون واضح ومختلف في كل مرة، مختلف عن بقية القوانين أقصد. لكن ثمة احتمال أن أكون مخطئاً، لم أكن يوماً كائن حدس، بل كائن إحساس فقط. ما وراء الإحساس، أتجروّ على القول، لأنني أعرف سلفاً ما يُجنّبني الحدس. بل أذهب أحياناً أبعد من ذلك، ما الذي كان سيكلفني، فأقول إنني لا أعرف إلا عن طريق التنبؤ لأنني في لحظتها لا أعود أعرف، هذا يلاحظ بقليل من المجهود البشري. ثم بعد اللحظة لا أعود أعرف أيضاً، لأنني أكون قد سقطت في الجهل المطبق. كل هذا مجتمعاً، لو جاز جمعه، يجب أن يفسر أشياء كثيرة، بينها شيخوختي العجيبة الخضراء. في بعض المواضع كما لو أن صحتي رغم ما قلته عنها لا تكفي لتقوم بالمهمة. مجرد فكرة بلا تأثير لكنني أقول في هذه المرحلة التي وصلت إليها إنّ تقدّمي أصبح أبطأ وأكثر وجعاً، ليس فقط بسبب ساقّي، بل يعود ذلك إلى جملة من نقاط الضعف كما يُقال. لأدخل لها بساقّي، إلا إذا أسلمنا - ولا شيء يدعو - بأنّ ضعفي وساقّي لهما الأعراض المُعقّدة نفسها بصورة شيطانية. ما حصل هو أنني سلّطت الضوء طويلاً على ساقّي طيلة الرحلة على حساب البقية، هذا ما حدث. أنا نادم لكن لم يعد الندم يفيد كما لم يعد هناك ما يمكن فعله لتدارك الأمر. لم أكن مجرد كسيح فقط. أبعد بكثير. عشت أياماً كانت فيها ساقاي أفضل ما أملك، أو هو رسم تجريديّ قام به هذا العقل القادر على إصدار الأحكام، بتّ إذن مُضطراً إلى التوقّف بوتيرة أكبر، لا أخجل من ذكر ذلك. أتمدّد غير مكترث بالقواعد. تارة على ظهري وتارة على

بطني، تارة على هذا الجانب وتارة على الآخر. أغلب الوقت كنتُ أمدّ قدَمَيَّ أعلى من رأسي، كي يسيل الدَّم المتخثر، عندما يكون لك ساقان قاسيتان فإنَّ مع النوم بقدمين أعلى من الرَّأس آخر ما يمكن الحديث عنه هو الرَّاحة. لكن لا تقلقوا، سأنجح. حين يكون الأمر متعلقاً برفاهيتي، فعادة لا أولي الألم بالآ. الغابة كانت تحيط بي. والأغصان تتمايل على ارتفاع يفوقني بشكل مذهش موفِّرة لي الحماية من النَّهار والعواصف، يحدث خلال أيام أن لا أنجز سوى ثلاثين أو أربعين خطوة، أقسم، أتمايل في الظَّلمة الحالكة المنيعة، هذا؟ هذا ما لن أقوله أبداً. ولو ترنَّحتُ، ففي ظلمات غير محصَّنة فقد كانت دائماً تسود ظلال زرقاء كافية أكثر من حاجتي البصريَّة، يدهشني أنَّ تلك الظلال لم تكن خضراء بل زرقاء، أراها زرقاء وربَّما هي كذلك فعلاً. اللَّون الأحمر للشمس حين ينعكس على اللَّون الأخضر للأوراق، ينتج عنه اللَّون الأزرق، هكذا أحلَّل. لكن من حين إلى آخر، من حين إلى آخر، يا لهذه العبارات الوحشيَّة الجميلة، من حين إلى آخر أقع على ما يشبه المفترق، نجمة بعبارة أخرى، نجمة، نعم، كما في كلِّ الغابات المجهولة. وأنا أستدير برفق نحو المسالك المضيئة، بلستُ أدري أيَّ أمل يحدوني، أقوم بلقَّة كاملة حول نفسي أو أقلَّ من لقَّة أو أكثر، لشدَّة تشابه تلك المسالك، في تلك الأماكن تكون الظلال أقلَّ دكنة. أسرع الخطى كي أبتعد، أكره قتامة الظلال، إنَّها موحشة. في ذلك الدَّغل من الطَّبيعي أن تكون لي بعض اللِّقاءات حيث لا ينبغي فيه أن تكون، لكنَّها عموماً دون خطورة، فقد التقيتُ فحّاماً مثلاً، كان من الممكن أن أحبه لو أنَّي أكثر شباباً بسبعين عاماً. لستُ متأكّداً لأنَّه سيكون بدوره مساوياً لي ليس تماماً، لكن ربَّما أقلَّ مني بكثير، لم يكن لديَّ من العطف ما يُوزَّع لكن على الأقلَّ كان لي نصيبي منها، فقد كنتُ صغيراً وكنتُ أتفق مع كبار السنِّ من المُحبِّد، بل أكثر من ذلك أذكر أنَّي أحببتُ واحداً أو اثنين، لم يكن حبّاً طبعيًّا لا صلة به للشيخ. اسمها «روز». كلاً. حسناً فهمتم ما أعنيه، كيف تُقال الأشياء؟ كان حناناً كما يوعد أناس بأرض ما. آه كنتُ مبكِّراً لأنَّي في تلك الفترة

كُنْتُ صَغِيرًا وَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ، الْيَوْمَ يَقْرَئُنِي، مُتَعَفِّونَ تَمَامًا.  
 كَالْخُضْرِ النِّيَّةِ. اَنْدَفَعْ نَحْوِي وَطَلَبْ مِنِّي أَنْ أَقَاسِمَهُ كَوَخَهُ، صَدَّقُونِي، إِنْ  
 شِئْتُمْ، غَرِيبٌ مِثَالِي وَمَرِيضٌ وَحْدَةً عَلَى الْأَرْجَحِ. أَقُولُ فَحَامًا لَكُنِّي فِي  
 الْأَصْلِ لَا أَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا. أَرَى الدَّخَانَ لَا أَتِيهِ عَنْهُ أَبَدًا. حَوَارِ طَوِيلَ دَارٍ  
 بَيْنَنَا قَطْعُهُ الْقَلِيلُ مِنَ الْأَنِينِ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى  
 مَدِينَتِي الَّتِي مَا زِلْتُ لَا أَذْكَرُ اسْمَهَا. طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَصِفَ لِي الطَّرِيقَ إِلَى  
 أَقْرَبِ مَدِينَةٍ. يَجْهَلُهُ. أَغْلِبَ الظَّنُّ أَنَّهُ وُلِدَ فِي الْغَابَةِ حَيْثُ قَضَى حَيَاتَهُ  
 بِأَسْرَهَا، سَأَلْتُهُ أَنْ يَشْرَحَ لِي طَرِيقَةَ الْخُرُوجِ مِنَ الْغَابَةِ بِأَسْرَعِ مَا يُمْكِنُ،  
 جَاءَتْ إِجَابَتُهُ مُشَوَّشَةً جَدًّا، لَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا مِمَّا قَالَهُ. أَوْ إِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا  
 مِمَّا قُلْتُ، أَوْ إِنَّهُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا أَوْ إِنَّهُ يَرِيدُنِي بِرَفْقَتِهِ، أَرْجَحُ الْفَرْضِيَّةَ الرَّابِعَةَ  
 لِأَنَّهُ أَمْسَكَنِي مِنْ كَمِّ مِعْطَفِي حِينَ أَرَدْتُ الْإِبْتِعَادَ. حَزَرْتُ إِذْنِ عَكَازًا  
 وَسَدَدْتُ لَهُ ضَرْبَةً مَفَاجِئَةً عَلَى جَمْعَتِهِ، جَعَلْتُهُ يَهْدَأُ. شَيْخٌ مَقْرَفٌ.  
 نَهَضْتُ وَتَابَعْتُ طَرِيقِي. بَعْدَ خُطَوَاتٍ قَلِيلَةٍ سَرْتُهَا، وَالْخُطَوَاتِ الْقَلِيلَةِ  
 فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ كَانَتْ أَمْرًا يُذَكِّرُ، اسْتَدْرْتُ وَعَدْتُ إِلَيْهِ لِأَفْحَصَهُ. لَمَّا  
 لَاحَظْتُ أَنَّهُ مَا زَالَ يَتَنَفَّسُ، وَجَّهْتُ لَهُ ضَرْبَاتٍ بِقَدَمِي عَلَى ضُلُوعِهِ،  
 هَكَذَا تَصَرَّفْتُ، اخْتَرْتُ مَكَانًا بَعِيدًا عَنِ الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَشِيحُ بِظَهْرِي ثُمَّ  
 مُسْتَنِدًّا إِلَى عَكَازِيٍّ، بَدَأْتُ أَتَأَرَّجُ إِلَى الْأَمَامِ وَالْخَلْفِ، الْقَدَمَانِ  
 مَضْمُومَتَانِ، مُتَحَدَّتَانِ بِالْأُخْرَى. إِذْ كَيْفَ أَضْمَمَهُمَا؟ وَسَاقَايَ عَلَى تِلْكَ  
 الْحَالَةِ؟ لَكِنْ كَيْفَ لِسَاقِي أَنْ تَلْتَصِقَا وَهُمَا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ؟ ضَمَمْتُهُمَا،  
 هَذَا مَا يَسْعَنِي قَوْلُهُ. انْتَهَى. أَوْ إِنِّي لَمْ أَضْمَمَهُمَا. مَا يَغْيَرُ؟ رَحْتُ أَتَأَرَّجُ  
 بِاتَّسَاعٍ، هَذَا مَا يَهُمُّ. بِاتَّسَاعٍ أَكْبَرَ فَأكْبَرَ حَتَّى جَاءَتْ الْآوَنَةُ الْمُحَدَّدَةُ  
 فَانْدَفَعْتُ بِكُلِّ قُوَّتِي إِلَى الْأَمَامِ وَتَرَاجَعْتُ بَعْدَ لَحْظَةٍ إِلَى الْوَرَاءِ، عِنْدَهَا  
 وَقَعَتِ النَّتِيجَةُ الْحَاسِمَةُ. مِنْ أَيْنَ جَاءَنِي ذَلِكَ الْعَنْفَوَانُ؟ مِنْ ضَعْفِي رُبَّمَا.  
 الصَّدْمَةُ جَعَلْتَنِي أَسْقَطَ طَبْعًا، وَتَشَقَّلْتُ. لَا يُمْكِنُ أَنْ نَحْصَلَ عَلَى كُلِّ  
 شَيْءٍ، لَاحَظْتُ ذَلِكَ فِي مَنَاسِبَاتٍ عَدِيدَةٍ. ارْتَحْتُ قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضْتُ.  
 جَمَعْتُ عَكَازِيٍّ وَاتَّخَذْتُ مَكَانًا مُحَازِيًّا لِلْجَانِبِ الْآخِرِ لِلْجَنَّةِ وَرَحْتُ  
 بِحَرَصٍ أَقُومُ بِالْتَّمَرِينَ نَفْسَهُ، عَانِيْتُ دَائِمًا مِنْ هَوَسِ التَّنَازُلِ. لَكُنِّي

صَوَّبْتُ إِلَى الْأَسْفَلِ هَذِهِ الْمَرَّةَ. إِحْدَى رَكَاتِ قَدَمِي غَاصَتْ فِي الرِّخَاوَةِ. فِي النِّهَايَةِ كَوْنِي أَخْطَأْتُ الضَّلُوعَ بِرَكَاتِي تِلْكَ فَهَذَا يَعْنِي أَنِّي أَصَبْتُ الْكَلِيَّةَ. أَوْهَ لَيْسَ بِالْقُوَّةِ الْكَافِيَةِ لِأَجْعَلَهَا تَنْفَجِرَ. لَا أَظُنُّ. يَتَخَيَّلُ النَّاسُ أَنَّنَا بَوْصَفْنَا شَيْوْخاً فَقَرَاءَ، مَرْضَى وَجَبْنَاءَ فَإِنَّا عَاجِزُونَ بِصُورَةِ عَامَّةٍ عَنِ الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِنَا. عَلَى نَحْوِ مَا هَذَا صَحِيحٌ. لَكِنْ فِي الظُّرُوفِ الْمَلَائِمَةِ، مَعْتَدٌ أَحْمَقُ وَصَفِيْقٌ فِي قَامَتِكَ نَفْسُهَا إِضَافَةً إِلَى مَكَانٍ مَعْزُولٍ، يُتَاحُ لَهُ أَنْ يُظْهَرَ لَكَ أَيُّ حَطَبٍ أَشْعَلْتَ. رَوَيْتُ الْحَادِثَةَ رَغْمَ أَنَّهَا بِلَا أَهْمِيَّةٍ كَكُلِّ الْحِكَايَاتِ الَّتِي تَعْظُ وَتَحْذَرُ لَا لَشَيْءٍ بَعِيْنِهِ إِلَّا لِأَذْكَرَ هَذَا الْإِحْتِمَالِ الْجَائِزِ وَالْمَهْمَلِ عَادَةً. لَكِنْ هَلْ كُنْتُ أَكَلْتُ مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرٍ؟ طَبْعاً بِالضَّرُورَةِ. تَوْتُ وَأَحْيَاناً عَلِيْقٌ، فَطَرْتُ مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرٍ وَأَنَا أُرْتَعِشُ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِي بِهِ. مَاذَا أَيْضاً؟ آه صَحِيْحٌ، خَرَّوبُ ثَمِيْنٍ لَدَى الْمَاعِزِ. عَمُوماً مَا أَجْدُهُ، الْغَابَاتُ تَعَجُّ بِالْخَيْرَاتِ. سَمِعْتُ يَوْماً أَوْ قَرَأْتُهُ فِي مَكَانٍ مَا حِينُ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ الْمَهْمِ التَّعَلُّمِ أَوْ التَّسْلِيَةِ أَوْ التَّهَوُّرِ أَوْ قَتْلِ الْوَقْتِ، أَنَّنَا وَنَحْنُ نَظُنُّ أَنْفُسَنَا نَمْشِي فِي خَطٍّ مُسْتَقِيْمٍ دَاخِلَ غَابَةٍ، فَإِنَّا فِي الْوَاقِعِ نَدُورُ فِي حَلْقَةٍ وَاحِدَةٍ. حَرَصْتُ إِذْنًا عَلَى الدَّوْرَانِ فِي حَلْقَةٍ مَفْرُغَةٍ كَيْ أَتَقَدَّمَ فِي خَطٍّ مُسْتَقِيْمٍ، لَوْ شِئْتُ لِأَحْجَمْتُ عَنِ الْعَتَةِ وَلَأَصْبَحْتُ مَاكِرًا، لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْ كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَعَنِي فِي الْحَيَاةِ. وَحَتَّى لَوْ لَمْ أَكُنْ أَتَقَدَّمُ فِي خَطٍّ مُسْتَقِيْمٍ، وَأَنَا أَدُورُ فِي حَلْقَةٍ وَاحِدَةٍ، فَعَلَى الْأَقْلِ مَا أَفْعَلُهُ لَيْسَ دَوْرَانًا، وَهَذَا يَسَاوِي الْكَثِيرَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ، كُنْتُ أَقُومُ بِذَلِكَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، اللَّيْلَةُ تَلُو اللَّيْلَةَ أَمَلًا الْخُرُوجَ مِنْ تِلْكَ الْغَابَةِ يَوْماً. فَمَنْطَقَتِي لَيْسَتْ غَابَةً. أَبْعَدُ عَنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ. هُنَاكَ السَّهُولُ وَالْجَبَلُ وَالْبَحْرُ وَبَعْضُ الْبُلْدَاتِ وَالْقُرَى الْمَوْصُولَةِ فِيمَا بَيْنَهَا بِطَرَقٍ وَدُرُوبٍ. كُنْتُ عَلَى يَقِيْنٍ تَامٍّ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنَ الْغَابَةِ يَوْماً وَأَتِي خَرَجْتُ مِنْهَا فَعَلًّا، أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَأَعْرِفُ الْوَعُورَةَ الَّتِي يَنْطَوِي عَلَيْهَا كَوْنِي لَا أَفْعَلُ مَا فَعَلْتُهُ مِنْ قَبْلٍ. لَكِنْ الْأُمُورُ اخْتَلَفَتْ عَلَى مَا يَبْدُو. نَعَمْ، أَمَلْتُ أَنْ أَرَى نَفْسِي مَرْتَعِشًا بَيْنَ الْأَطْرَافِ الْهَامِدَةِ كَأَنَّهَا مَنْقُوشَةٌ عَلَى النَّحَاسِ وَالَّتِي لَا شَيْءَ يُمْكِنُهُ تَحْرِيكُهَا تَحْتَ ضَوْءِ السَّهُولِ، حَيْثُ التَّمَوُّجَاتُ الْحَادَّةُ الشَّاحِبَةُ، لَكِنْ حَتَّى ذَلِكَ الْيَوْمِ

أهابه إلى درجة أنني أشك في أنه لن يأتي أجلاً أم عاجلاً. لأنني لست سيئاً جداً في الغابة. يمكنني التعايش مع الأسوأ بشكل دائم دون ندم ودون أن أتحرر على أيام السهول ومرافق الجهة الأخرى. فأنا أعرف مرافق جهتي وأتصور أن الغابة ألطف منها. ليست فقط ألطف بل إن لها مزية أخرى هي التالية، أنني فيها الآن. إليكم طريقتي الغربية في فهم الأشياء، ليس كما يبدو، هل يمنحني وجودي في الغابة الحق في تعداد المزايا رغم أنها ليست أسوأ ولا أفضل من أي مكان آخر، وأن لي حرية المكوث فيها؟  
إلا ————— ليس بسبب ما هي عليه بل بما أنا عليه. في النهاية أنا في الغابة، وبما أنني فيها فلست مضطراً إلى الذهاب إليها. وهذا أمر غير هين بالنظر إلى حالة ساقِي وجسمي عموماً. هذا ما أردت قوله، وكوني لم أقله منذ الوهلة الأولى، فلأن هناك أشياء تمنعني، لكن لا يسعني البقاء في الغابة، هذا ليس مسموحاً. حسناً، أنا قادر على البقاء جسدياً، لا شيء أبسر عليّ، إنما لست جسداً فحسب، فلديّ إحساس أنني لو بقيتُ في الغابة فعلى حساب تعليمات لا أريد تجاهلها، لذيّ انطباع بذلك على الأقل. ربّما أكون مخطئاً، ربّما من الأفضل أن أظل في الغابة، يمكنني من يدري لعلّي أبقى دون إحساس بالندم أو الانطباع الشاق بأنني ارتكبت خطأ لا فرق بينه وبين الذنب، فقد عرفتُ دائماً كيف أضلل. لقد ضللتُ عدداً كبيراً من المُلَقَّين. وكوني لا أقدر على الاحتفال بأدب، لا أرى في المقابل سبباً يجعلني أتقمص شخصية الكتيب، لكنّ الأوامر شيء آخر. لديّ دائماً نزعة لأخضع إليها. لا أدري لماذا. إذ لم تفضي بي إلى أي ضفة. كانت الأوامر تقتلني من الأماكن التي لو لم أكن فيها مطمئناً تماماً، لم أكن فيها قلقاً تماماً، ثم بعد ذلك خرس تاركة إياي أنحر. أعرف الأوامر لذلك أمثل إليها. أصبحت عادة، كلّها تصبّ في علاقتي بأمي وحول ضرورة توضيح الأمور بأسرع ما يمكن. تهتم أيضاً بنوعية الوضوح الملائمة، وأساليب التدخل بشكل ناجع ما أمكن. أوامر جليلة ومفضلة أيضاً نجحت دائماً في جعلي أهتز. هزئت بي قبل أن تصمت تاركة إياي كالبله الذي لا يعرف أين يذهب ولا لماذا. كلّها - وهذا قلته

أظنّ - نصّب في المسائل الشائكة نفسها، بل أكثر من ذلك لا أعرف واحدة بمقادير أقلّ، والأوامر التي تدفعني إلى مغادرة الغابة بأسرع وقت لا تختلف عن التي عرفتها من قبل إذا نشدنا العمق، لأنّي - شكلاً - أحرزْتُ اكتشافاً حصرياً بخصوص التفاصيل فبعد المقطع المعتاد يأتي التحذير الرسمي التالي، لعلّ الأوان قد فات، باللاتينية، نيميس سيرو، أظنها اللاتينية. كم هي وديعة الأوامر الافتراضية. لكن لا يجوز أن نلصق خطأ عدم تسويتي للمسائل مع أمّي إلى الصّوت الذي تخلّى عني قبل الأوان. له نصيبه من المسؤولية، هذا كلّ ما يمكن أن نعابه عليه، لأنّ الخارج اعترض على التسوية أيضاً. قدّمتُ بعض الأمثلة باستخدام أساليب مختلفة وبالخداع أحياناً، كان في إمكان الصّوت أن يضايقني حتّى آخر الكتاب الذي قد لا أتمّه بسبب العوائق التي تقطع عليّ الطريق. بهذا الأمر الذي يتردّد ثم يموت كيف لا يكون هناك تلميح لمولوي، لا تفعل شيئاً. إنّه يحثني على الانكباب على الواجب ليظهر لي سخافتي. هذا ممكن. لحسن الحظّ إنّه في المجلد، كي يعمّق سذاجتي لاحقاً لو أردنا، لا يفعل سوى الاحتفاء باستعداداتي التي لا تحتاج إلى فاصلة كي يفهم بأنّها عن رغبة كبيرة من طرفي. يبدو أنّي وحدي ومنذ الأزل وأنا في طريقي إلى أمّي لنصّب المسائل على قاعدة غير متداعية. عندما أصل إلى بيتها وهذا حدث كثيراً فإنّي أغادرها دون القيام بشيء. وحين أكون بعيداً عنها، فإنّي أطمح بكلّ حماس للذهاب إليها لأبلي أفضل. وحين يبدو أنّي صرفتُ النظر، انشغلتُ بأمر آخر أو عدلتُ عن الانشغال بلا شيء، ففي الحقيقة أنا أذيع خططي وأبحث عن طريق يؤدّي إلى بيتها. فتأخذ الأمور منحى مضحكاً. إلى درجة أنّه حتّى في غياب الأمر الذي يُفترض تنفيذه فإنّه من الصّعب عليّ البقاء في الغابة لأنّ أمّي ليست فيها. إنّما لا بأس من خوض المغامرة والإقامة بعض الوقت. ولكنّي أقول في نفسي، من هنا حتّى الوقت الذي سأركب فيه القاطرة المؤدّية إليها، لن أتمكن من التنقل إلّا إذا انتشلوني. لم أعد أمسك بزمام هذه اللّغة الصّريحة. وحين أقول، قلتُ في نفسي إلخ. أقصد فقط أنّي أعرف

بصورة مُشوشة أن الأمور تسير على ذلك النحو دون معرفة المعنى. وفي كل مرة أقول فيها، قلتُ في نفسي كذا وكذا أو أتحدث حديثاً باطنياً قائلاً، مولوي متبوعة بجملة جميلة نسيباً واضحة وبسيطة، أو حين أجد نفسي عند ضرورة إعارة الغير كلاماً ذكياً أو لدى الآخر نية أن يُخرج من فمي أصواتاً موقعة جيدة نسيباً، فإنني لا أفعل شيئاً في الحقيقة سوى الرضوخ إلى اتفاق صارم يقضي بأن نكذب أو نصمت، لأن الأشياء تحدث بشكل مختلف، لم أقل قاطرة إذن ولا من هنا إلى حين إلخ. هذا فقط يشبه ما كنتُ سأقوله لنفسي لو كان في استطاعتي ذلك. في الواقع أنا لا أقول في نفسي شيئاً لو كان في استطاعتي ذلك. في الواقع أنا لا أقول في نفسي شيئاً لكنني سمعتُ إشاعة. شيء ما تغير له السكون فأصخنتُ السمع على طريقة حيوان يرتجف ويتظاهر بالموت. أحياناً ينشأ في داخلي بصورة مُشوشة نوع من الوعي. وما أعبر عنه بالقول، قلتُ في نفسي إلخ. أو مولوي لا تفعل شيئاً أو هل هو اسم أمك؟ قال المحافظ. فأنا في الحقيقة أسرد من ذاكرتي. أو آتي أعبر حريصاً على عدم السقوط أسفل من الخطاب الدقيق<sup>(13)</sup>. بل بواسطة أساليب أخرى كاذبة مثل، يبدو لي إلخ. أو لَدَيَّ الانطباع بـ إلخ، إذ لا يبدو لي أي شيء ولا يأتيني أي انطباع مهما كان نوعه. لكن هناك أشياء تغيرت في مكان ما تجعلني أغير بدوري، أو يجب على العالم أن يتغير كي لا يتغير شيء. إنه التعديل كما في زهرية غاليلي<sup>(14)</sup> التي لا يمكنني شرحها إلا إذا قلتُ أخشى أن. أو أمل أن. أو هل هو اسمك؟ قال المحافظ. والتي في إمكاني التعبير عنها بشكل مختلف وأكثر جدوى لو أردت. ربما فعلتها يوماً أكون فيه أقل رعباً من الآن بخصوص بذل الجهد. على كل لا أظن. قلتُ إذن من هنا حتى ذلك الحين الذي سأركب فيه القاطرة المؤدية إليها لن أتمكن من التنقل، حينئذ سأجد نفسي عند ضرورة البقاء، إلا إذا أقلني أحد الطيبين. لأن

13 - وردت العبارة باللاتينية.

14 - زهرية غاليلي: محرار صممه عالم الفلك غاليلي مستفيداً من خاصية الطفو واعتماداً على قانون تغير ثقل الأجسام بتفاوت حرارتها.

المحطّات باتت متقاربة واستراحاتي متكرّرة تبعاً لذلك. أضيف، مديدة لأنّ مسألة الاستراحة الطويلة لا صلة لها بقصر المحطّات ولا بتكرارها لو فكّرنا جيّداً، إلّا إذا ألصقنا بالتكرار معنى لا يناسبه، الأمر الذي لن أقترفه تحت أيّ ظرف. ويبدو لي مرغوباً أكثر أن أخرج من هذه الغابة بأسرع ما يمكن من أن يستحيل عليّ بشكل دائم الخروج من أيّ مكان حتّى لو كان بستاناً. كان الفصلُ شتاءً. ينبغي أن يكون شتاءً، ليس فقط لأنّ الأشجار فقدت أوراقها، لكن أيضاً اسودّت الأوراق وأصبحت إسفنجيّة وصار العكازان يغوصان أحياناً إلى حدّ فرجتيهما. أمر جدير بالملاحظة. لم أعد أشعر بالبرد إلّا من جهة الماضي. لعلّه الخريف. كنتُ دائماً قليل الحساسيّة من ناحية تغيّرات الطّقس. والظلال التي ربّما فقدت من زرقتها ما زالت كثيفة كذي قبل. يقود ذلك للقول إنّها أقلّ زرقة لأنّ الأخضر قد تراجع. لكنّها كثيفة بفضل السّماء الرصاصيّة للشتاء. ثمّ بسبب الأغصان السّوداء التي تنشر السّواد. شيء من هذا القبيل. أكوام الأوراق السّوداء الطينيّة تعيقني بشكل محسوس. لكن حتّى دونها كنتُ سأتحلّى عن المشي واقفاً كالإنسان. أذكر ذلك اليوم الذي كنتُ فيه مُستلقياً على بطني، مُحترقاً التعليمات وصرختُ فجأة وأنا أضرب جبهتي، تبتاً هناك الزّحف، كيف لم يخطر لي ذلك؟ لكن كيف السّبيل إليه مع وضعيتي جذعي وساقّي؟ ورأسِي. وقبل المضيّ بعيداً، كلمة في خصوص همسات الغابة، أسمع جيّداً رغم ذلك لم يتناه إلَيَّ أمر مشابه، لكن مع الكثير من الإرادة والقليل من الخيال من بعيد أسمع نقرة صنّج<sup>(15)</sup>، التّغير في الغابة أمر جيّد ومتوقّع. إنّهُ الصّميم. لكن الصّنج! حتّى الطمطمام مقبول ولم يكن ليصدمني، لكن الصّنج! أمر مخيّب أن يسعى المرء إلى الإفادة من وجوده في الغابة ليستمتع إلى همسها فلا يصله إلّا صوت الصّنج من بعيد. يمكنني التّردّد بأنّ قلبي ما زال ينبض،

15 - الصّنج: آلة موسيقيّة إيقاعيّة وهي عبارة عن صفائح من معدن مطروق، تُقرع الواحدة على الأخرى.

لكن لبرهة فقط. لكن قلبي لا يحدث ارتطاماً، فقط في مجال الهيدروليك  
 أين يجب أن نبحث لها عن ضجيج هذه المضخة القديمة. أسمع الأوراق  
 قبل سقوطها، أيضاً بانتباه شديد لكن عبثاً، إنها جامدة خرساء كأنها  
 نحاس أصفر. أراهن أنني لاحظت كل شيء. هذا كل شيء بالنسبة إلى  
 همسات الغابة. من حين إلى آخر كنتُ أشغل بوقي من خلال قماش  
 الجيب. يرتد صوت مختنق. نزعتُه من الدراجة. متى؟ لا أدري. الآن  
 كفى، ممدداً على بطني، رحتُ أستغل عكازي كخطافين. أرمي بهما  
 على الأرض وحين أشعر أنهما عالقان أسحب نفسي بقوة المعصمين،  
 لحسن الحظ أنهما قويان كفاية رغم الضمور والانتفاخ التاجمين عن  
 التهاب المفاصل، من النوع المشوه على الأرجح. كانت هذه بعض  
 الكلمات حول أدائي، أسلوب التنقل هذا له مزية يعرفها متعاطوه وهي  
 أنك إذا أردت الراحة فإنك تتوقف، هذا كل ما عليك فعله حسب تجربتي  
 ودون الحاجة إلى حيل أخرى. لأن الراحة معدومة في الوقوف وفي  
 الجلوس على حدّ السواء. ثمة رجال يتحركون جالسين وحتى جاثين  
 على ركبهم، منتقلين يميناً ويساراً، إلى الأمام وإلى الخلف بواسطة  
 عقافات، لكن في عرف الزواحف، أن تتوقف يعني البدء في أخذ قسط  
 من الراحة. وحتى العرف نفسه هو قسط من الراحة مقارنة بنظرائه.  
 أتحدث عن تلك التي أرهقتني، بهذه الطريقة إذن تقدمتُ في الغابة ببطء.  
 لكن باستمرار. كنتُ أنجز خمس عشرة خطوة في اليوم دون تبذير  
 للطاقة. أقوم بذلك على ظهري أحياناً، ألقي بالعكازين كما اتفق ورائي،  
 وأجعلهما يعلقان في الشوك، يغمر عيني نصف المغمضتين الأسود  
 السماوي للأغصان. أنا ذاهب إلى أمي. ومن وقت إلى آخر أقول، أمي.  
 ربّما ألتبس تشجيعاً. أفقد قبعتي أحياناً بسبب الرباط الذي تمزق. إلى أن  
 فقدتُ أعصابي وبحركة مزاجية غرستُ القبعة في جمجمتي بعنف لم  
 أعد أستطيع معه انتزاعها. ربّما التقيتُ نساءً لن ينسني لي تحيتهن كما  
 يجب. لكن ظلّ يرافق ذهني الذي يشغل وإن ببطء ضرورة الالتفات.  
 الالتفات بلا هوادة، كل ثلاث أو أربع محاولات كنتُ أغير المنعطف

كي أسير في شكل دائري، أو مُضَلَّع في أسوأ الحالات. نفعل ما في  
 وسعنا. أملاً التقدّم في خطّ مستقيم إلى الأمام رغم كلّ شيء، في خطّ  
 مستقيم ليلاً ونهاراً نحو أمي. سيأتي يوم تنتهي فيه الغابة وأرى ضوء  
 السّهل كما توقّعتُ تماماً. لكنني لم أره من بعيد وأنا أرتعش وسط الجذوع  
 الصّارمة كما توقّعتُ، بل فجأة فتحتُ عينيّ ولاحظتُ أنّي وصلتُ. وهذا  
 يُفسّر بلا شكّ كوني لم أفتح عينيّ فترة طويلة إلا لأمر استثنائي، حتّى  
 تغيير الوجهة كنتُ أقوم به في الظلام بمجرد التّرجيع. انتهت الغابة  
 بخندق لا أدري لماذا. داخل هذا الخندق وعيتُ بما حدث لي، لا بدّ أنّي  
 فتحتُ عينيّ إثر سقوطي في الخندق وإلا لِمَ كنتُ سأفتحهما؟ نظرتُ  
 إلى السّهل المترامي أمامي حتّى انحسار البصر وبِعيني المعتادة على  
 النّهار أظنّني رأيتُ الأفق يتراقص في أحداقي، والأبراج والأجراس  
 لمدينة لا شيء يدلّ بطبيعة الحال على أنّها مدينتي، حتّى إشعار آخر. بدا  
 لي السّهل مألوفاً لكن في جهتي كلّ السّهول متشابهة ومعرفة واحد يغني  
 عن معرفة البقية. مدينتي أم لا، ما الفرق؟ على كلّ حال، تحت هذا  
 الدّخان المريض في مكان ما تنفّس أمي، أو هي تُتَبّنُّ الأجواء من حولها  
 مئة ميل، إنّها أسئلة تافهة بشكل معجز بالنسبة إلى رجل في حالتي وإن  
 كنتُ غير مختلّ عقلياً، إذ كيف أمكنتني أن أتجوّل في هذه الأحرار  
 الشّاسعة حيثُ عكازاي يجوسان كما عنّ لهما، بالدّحرجة ربّما. ثمّ ماذا  
 بعد؟ هل سيُسمح لي بالدّحرجة حتّى أصل إلى بيت أمي؟ لحسن الحظّ  
 في هذه الظروف العويصة التي توقّعتها بشكل عامّ دون مرارة، سمعتُني  
 أقول بأنّه لا يجب التلقّظ بعبارة أنجدوني، حرفياً. تلك الكلمات ما انفكّ  
 رنينها يصخب في أذني بصفاء كعبارة الشّكر التي قالها لي الطّفل الذي  
 التقطتُ له كجته. لعلّي أبالغ. لا عليك مولوي لقد وصلنا. أخيراً ينبغي  
 أن أكون عشتُ كلّ شيء بما في ذلك النّجدة كي تكتمل صورة كوكبهم  
 في مخيلتي. تركتُ نفسي أندرج نحو عمق الخندق، يجب أن يكون  
 الفصل ربيعاً، صباحاً ربيعاً، هُيئ لي فيه أنّي أستمع إلى العصافير، إلى  
 القبرات، مضى وقت طويل لم أستمع إليها. كيف لم أستمع إلى قبرات

في الغابة؟ ولا رأيته. لم يبدُ لي الأمر غريباً إذن. يبدو لي غريباً الآن. هل سمعتها على حافة البحر؟ نوارس؟ لا أذكر. أذكر أصوات خرخرة مسافرين يعودان إلى ذاكرتي، أحدهما لديه سلاح قديم، نسيتهما. أرى النعاج. الآن أقول هذا. لا تزعجني المشاهد التي تعود إلى ذاكرتي. أذكر أن الشمس والمطر يتناوبان. جوّ ربيعيّ بامتياز. أرغب في العودة إلى الغابة. أوه! ليست رغبة حقيقية. مولوي يمكنه المكوث حيث يوجد.

مكتبة  
t.me/t\_pdf



إنّه منتصف الليل. حبات المطر تجلد زجاج النافذة. أشعر بالهدوء. نائم، مع ذلك أنهض وأذهب إلى مكتبي. ليس لديّ نعاس. المصباح يضيء لي. يبعث نوراً ثابتاً وناعماً. سيرُافقني حتّى الصّباح. أسمع البوم الكبير. يا له من صوتٍ حربيّ مرعب. قديماً كنتُ أسمعه بلامبالاة. ابني ينام. لينمّ. ستأتي عليه ليلة لن يتمكّن خلالها من النوم ويجلس إلى طاولة عمله. حينها يكون قد طواني النسيان.

سيكون تقريري طويلاً. لن أتمّه على الأرجح. اسمي هو «موران جاك»، هكذا ينادونني. لقد هلكت. ابني أيضاً. لا يجب أن تساوره الشكوك، يعتقد أنّه في ذروة الحياة. الحياة الحقيقيّة، ذلك صحيح. اسمه «جاك» مثلي. لا يجب الخلط. أذكر ذلك اليوم الذي تلقّيتُ فيه الأمر بالاشتغال على مولوي. كان يوم أحد، صيفاً. كنتُ جالساً على أريكة القصب في حديقتي الصّغيرة. كتاب أسود مغلق فوق ركبتي. كان ذلك حوالي الحادية عشرة. ولم يحن بعدُ موعد الدّهاب إلى الكنيسة، أتلّذذ يوم الرّاحة المقدّس متأسّفاً على الأهميّة التي يولونها إليه في بعض الأديرة الأبرشيّة. أن تعمل أو حتّى تلعب لم يكن أمراً يُخلّف ذنباً من وجهة نظري. هذا متعلّق بالحالة الرّوحية للعامل أو للذي يلعب وبطيعة العمل والألعاب، في رأيي.

أفكر بنوع من الرّضا في طريقة التوسّع المتحرّرة نوعاً ما والتي تقضي حتّى بين رجال الدّين المتشدّدين بأنّ السّبت، شرط أن نذهب إلى الصّلاة ونؤدّي ما علينا من ضرائب للكنيسة، يمكن اعتباره يوماً كبقية الايّام من

جوانب مُعيّنة. المسألة لا تعينني لأنّي أحببتُ دائماً عدم القيام بأيّ عمل. سأرتاح عن طيب خاطر خلال الأيام المفتوحة أيضاً. لستُ كسولاً إيجابياً. لا. الأمر مختلف تماماً. وأنا أراقب نفسي وأقوم بما وددتُ القيام به، لو أردتُ، والذي كنتُ دائماً سأنجزه على أفضل وجه في كلّ مرّة أقرّر فيها ذلك، يغمرنني انطباع بأنّي أقوم بمهمة ما من نشاط يمكنه أن يعلمني إياها. لكنّي لا أحظى بهذا التّعيم، إلّا في أوقات نادرة طيلة الأسبوع. الطّقس رائع، أنفقَ نحلي، مداخل الخلايا ومخارجها. أسمع خطوات ابني حثيثة على الحصى. فخوراً بلا أدري أيّ وهمٍ كرّ وفرّ. أصرخ في وجهه كي لا يُلوث ملابسه. لا يجيبني.

كلّ شيء كان هادئاً. ما من نفس واحد. دخان أزرق مستقيم يتصاعد من مداخن جيرانني، أصوات تشي بالسّلام، خشخشة المدقّات والكرات، مشط يُجرّ على رمل الحجارة والشّحروور وطائر الدجّ بنشيدهما المتباعد. للأسف بسبب الحرارة التي تجعلها تغادر الأغصان العالية للفجر إلى ظلال الأحراش. أستنشق بمتعة شذا زهور القوارص خاصّتي. في هذه البيئة أقضي آخر أوقات سعادتي وهدوئي. رجل يلج الحديقة ويتقدّم نحوي. أعرفه. أن يأتي أحد الجيران ليُلقي عليّ تحية الصّباح يوم الأحد، إن كان هذا يسرّه، أقبله على مضض مُفضلاً عدم رؤية أحد. لكنّه لم يكن جاراً. علاقتنا تحكمها المصلحة فحسب. لقد أتى من بعيد، قابله بالبرود الذي يستحقّه شخص يتجرّأ على المجيء إلى حيث أجلس. تحت شجرة التفّاح. لا أرى بعين الاحترام الأشخاص الذين يمنحون أنفسهم هذه الحرّية. إذا أراد أحدهم التحدّث إليّ فما عليه إلّا أن يطرق بابي. «مارتا» لديها توصياتها. لكنّي استدرتُ على صوت البوّابة مُتهيجاً ورأيتُ خلف هذا الوجه المُلطّف بسبب الأوراق وجهاً طويلاً يخطو نحوي من خلال المرج. لم أقم ولم أدعه إلى الجلوس. وقف أمامي ورحنا نحدّق في بعضنا بصمت. كان مُثَقَّلاً بالملابس القاتمة. ما جعلني أنقم عليه أكثر. هذا الظّاهر الفاحش فيما الرّوح ترفل في الخرق، بدا لي دائماً أمراً بغيضاً. أرى القدمين الضّخمتين اللتين داستا

زهوري الصّفراء. كان من الصّروري أن أطرده بالسّوط لو لم يكن هو.  
 اجلس، قلت مستأنساً إلى فكرة أنّه لا يقوم، في الأخير، سوى بعمله كوسيط.  
 نعم فجأة شعرت بالسّفقة تجاهه. لاح لي ابني يراقبنا من خلف الشّجيرات.  
 عمره ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً في تلك الفترة. كان طويل القامة قوياً  
 مقارنة بسنّه. ذكاؤه متوسّط في بعض الأوقات. هو ابني في النّهاية. أناديه،  
 وأمره بأن يحضر لنا البيرة. أجدني أحياناً مضطّراً إلى القيام بممارسات  
 المتلصّصين أنا أيضاً. ابني يُقلّدني بالفطرة. بعد وقت وجيز عاد وفي يده  
 كوبان وقارورة جعة من ذات اللتر. فضّ السّدادة وخدمنا. يعشق فضّ  
 السّدادة. قلت له بأن يغتسل ويرتّب هندامه. في كلمة أن يجهز ليظهر أمام  
 النّاس فبعد قليل سيكون موعد الصّلاة. يمكنه البقاء، قال «جابر». لا أريده  
 أن يبقى، قلت. واستدرت مرّة أخرى ناحية ابني وقلت له ثانية بأن يستعدّ. لم  
 يكن هناك شيء أمفته في تلك الفترة أكثر من الوصول متأخراً إلى الصّلاة.  
 قال «جابر»، كما تريد. حاولنا رفع الكلفة بيننا لكننا أخفقنا. لم أقل ولا أقول  
 أنت إلا لشخصين. ابتعد «جاك» متأففاً. إصبعه في فمه. عادة كريهة وغير  
 صحّية. لكنّها أفضل على الأقلّ من إدخال الأصابع في الأنف حسب رأيي.  
 إن كان هذا يبعده عن إدخال إصبعه في أنفه أو في أيّ مكان آخر فهو محقّ  
 من هذا الجانب. هاهي تعليماتك، قال «جابر». أخرج مفكّرة من جيبه  
 واسترسل يقرأ. كان يغلق المفكّرة من وقت إلى آخر تاركاً إصبعه داخلها  
 ليعلّق بكلام وشروط عليّ التقيّد بها لأنّي أعرف عملي جيّداً. عندما أتمّ  
 القراءة قلت له إنّ هذا العمل لا يستهويني وطلبتُ منه أن ينقل لسيدّه أنّ عليه  
 العثور على موظّف آخر. يريدك أنت، قال. الله وحده يعلم لماذا، أجب  
 «جابر». أحسستُ بإطراء كنتُ دائماً ضعيفاً أمامه، فقلتُ، مؤكّد أنّه أخبرك  
 لماذا. قال إنّك الوحيد القادر على القيام بهذا العمل، أجب «جابر». مع أنّ  
 الأمر بسيط وفي متناول طفل، قلت. ثمّ راح «جابر» ينتقد بفظاظة رئيسنا  
 الذي اضطرّه إلى الخروج من مخدعه وقد تهيّأ لمضاجعة زوجته. لأجل أمر  
 تافه، أضاف. قال لك إنّّه لا يشقّ إلّا بي؟ قلت. لا يعني ما يقول، ردّ «جابر»،  
 ولا ماذا يفعل. عدل قبعته وهو يفحصها بحرص كأنّه يبحث في داخلها عن

شيء. يصعب الرّفص، قلت. أنا على يقين تام أن الرّفص مستحيل. الرّفص! لكن نحنُ المُستخدّمون كنّا نتسلّى في ما بيننا أحياناً بالاعتراض متظاهرين بأننا رجال أحرار. اليوم ترحل! قال «جابر». صمت. سادت الجديّة فصمتنا. أقفل «جابر» المفكرة وأعادها إلى جيبه الذي زرّره أيضاً. نهض. أجال يده فوق صدره. أشرب المزيد، قال. اذهب إلى المطبخ وستعطني بك الخادمة، قلت. إلى اللّقاء «موران»، قال. تأخّر الوقت على الذهاب إلى الصّلاة. لستُ في حاجة إلى إلقاء نظرة على ساعتني كي أدرك ذلك. أشعر أن الصّلاة بدأت دوني، أنا الذي لا يغيب عن الصّلاة أبداً، أغيب عنها هذا الأحد وأنا في أمسّ الحاجة إليها لأبدأ رحلتي. قرّرتُ المطالبة باستقبال خاصّ خلال الظّهيرة. لم أهتمّ بالغداء. مع الأب «أمبرواز» ثمة مخرج دائماً. دعوتُ «جاك» دون جدوى. قلتُ في نفسي، ربّما ذهب إلى الصّلاة خلال اجتماعي بـ «جابر». اتّضح لاحقاً أنّي كنتُ على صواب. وأضفت، كان عليه المجيء لرؤيتي قبل الذهاب. كنتُ أحلّل محاوراً نفسي وكان من السّهل دون تدقيق رؤية شفتيّ تتحرّكان. لقد خشي، بلا شكّ، أن يزعجني فأقبض عليه. إذ يحدث أن أتجاوز الحدود مع ابني عندما أقبض عليه لذلك هو يخافني قليلاً. أمّا أنا فلم يؤدّبني أحد كفاية. لم يدلّلني أحد. أهملوني ببساطة. ممّا خلف لَدَيّ عادات سيئة لا علاج لها، حتّى الورع الأكثر نقاءً لا يفلح معها. وددتُ لو أنّ في استطاعتي جعل ابني يزهد بإعطائه صفة من حين إلى آخر مبرّراً له ذلك بحكمة. ثمّ أنساءل هل يجرؤ على الإجابة بأنّه كان في الصّلاة فيما هو مثلاً يلاحق رفاقه خلف المسلخ. وقطعتُ عهداً بأن أنتزع من الأب «أمبرواز» رأياً في هذا الشّأن. إذ لا يجوز أن يتوهّم ابني من القوّة ما يجعله يكذب دون عقاب. وإن لم أجد ما يُقنع لدى الأب «أمبرواز» فسأتوجّه إلى القسّ الذي لم يكن ليتخيّل أن يمرّ حضور ابني الصّلاة أو غيابه مرور الكرام. لأنّي أعرف عن يقين أنّ لدى القسّ قائمة بأسماء المخلصين وآته بحكم موقعه بمحاذاة الماء المقدّس كان دائماً يصوّب نظراته علينا أثناء الوضوء. تجدر الملاحظة أن الأب «أمبرواز» يجهل كلّ شيء يتعلّق بهذا الهرج. نعم كلّ ما كان له صلة بالمراقبة كان بغيضاً بالنسبة إلى الأب الطيّب «أمبرواز» ومن المؤكّد أنّه كان

سيطرده القس فوراً لو علم بقدرته على الإقدام على وقاحة مماثلة. حتماً هذا يعني أن القس يعمل لصالحه الخاص بحرصه على تسجيل قائمة محبته بهذا القدر من الانضباط. أعرف فقط ما يحدث خلال صلاة منتصف النهار. إنها قضية مفهومة بما أنني لا أملك تجربة في مراكز أخرى لم يسبق أن وطئتها قدماي. لكنني خلصت إلى القول بأن تمرين الرقابة ذاته الذي يمارسه القس يقوم به أبنائه الكثيرون في أماكن أخرى أبرشية غريبة، المكفولون فيها أبعد نظراً من القس في شؤون تبدو في صالحه أكثر مما هي في صالحهم. هذا ما كنتُ أهجس به في انتظار عودة ابني ورحيل «جابر» الذي لم أكن قد سمعته بعد يغادر. في ذلك المساء بدا لي غريباً أن أفكر في ابني. في قلة تربيتي وفي الأب «أمبرواز» والقس «جولي» وسجله في تلك الآونة بالذات. ألم يكن لَدَيَّ ما أشغل به نفسي بعد الذي سمعته؟ في الواقع لم أكن قد أخذتُ المسألة مأخذ الجد بعد. كنتُ مندهشاً من تسلل تهوّر مماثل إلى طبيعتي. أو أنني أردتُ الإناحة لنفسي مزيداً من لحظات السلام التي كنتُ غريزياً أتجنبها. وإن كان مع تلاوة «جابر» لتقريره بدت لي القضية لا تستحق أن أتناها فإن إصرار الزعيم على تكفلي بها، أنا «موران» دون غيري وخبر مرافقة ابني لي، يفترض أن يُنبهاني إلى أنه عمل خارج عن العادة. وبدل تسخير مواردتي وتجربتي برمتها فوراً للمهمة، رحتُ أفكر في فقر دمي وفراة محيطي. مع ذلك فإن السّم بدأ يؤتي عمله. السّم الذي دُس لي للتوّ. كنتُ أتحرّك دون توقّف في أريكتي. أجعل وجهي بين راحتيّ. أضع ساقاً فوق ساق. أخليهما إلخ. لقد غيّر العالم من ألوانه ووزنه. يجب أن أعترف الآن بأنّي قلق. أذكر بأسف الجعة التي احتسيتها. لن يسألني أحد شيئاً. لكن الله. الله سيعرف ذلك أجلاً أم عاجلاً. سيسامحني ربّما. لكن هل للقربان المقدّس المفعول نفسه لو شربته بعد الجعة. هل اعتصم في مارس؟ يمكنني دائماً أن أحاول. أين ذهبت تربية الكنيسة إن كنتُ سأرتكب دنساً؟ وقررتُ أن أمتصّ قطعاً من حلوى التّعناع وأنا في طريقي إلى بيت الكاهن. نهضتُ وذهبتُ إلى المطبخ. سألتُ إن كان «جاك» قد عاد. لم أراه، أجابت «مارتا». تبدو في مزاج سيئ. والآخر؟ قلت. أيّ آخر؟ قالت. ذاك الذي جاءك من طرفي يطلب البيرة،

قلت. لم يطلب مني أحد شيئاً، قالت «مارتا». حسناً، لن أتناول غدائي اليوم، قلت ذلك دون نبرة خاصة. سألتني إن كنتُ مريضاً لعلها بأنَّ شهيتي بلا حدود عادة، خصوصاً غداء يوم الأحد، أحبَّذ أن يكون روتينياً حتَّى أصغر التفاصيل. الرائحة زكية في المطبخ. سأتغذى لاحقاً، هذا كلُّ ما في الأمر، قلت. رمقتني «مارتا» بغضب. لنقل عند الرابعة، قلت. خلف تلك الجبهة الرمادية أعرف كلَّ الأشياء التي تركض وتسهل وتقف على قوائمها الخلفية. لن تخرجي اليوم، قلت ببرود، أنا آسف. اندفعتُ نحو أوانيها محتقنة في صمت. حاولي قدر استطاعتك ترك الأكل ساخناً، قلت. لك الغد بأكمله إن كان هذا يرضيك، أضفتُ وأنا على علم بأنَّها قادرة على تسميمي. خرجتُ اتخذتُ الطريق. رحل «جابر» إذن دون احتساء المزيد من الجعة. كان مع ذلك راغباً في ذلك بشدَّة. نوعية جيِّدة الوالنشتاين<sup>(16)</sup>. رحتُ أرقب عودة «جاك». إن كان قادماً من الكنيسة فسيغترضني من جهة اليمين ومن اليسار إن كان عائداً من المسلخ. جارٌّ من أولئك المفكرين الأحرار مرَّ بجانبني. إذن لا مزاج لنا اليوم؟ يعرف جيِّداً عاداتي، عاداتي الدينية أقصد. الجميع يعرفها والرئيس يعرفها أفضل من أيِّ كان رغم أنَّه بعيد. يبدو أنَّك مدبر، قال الجار. لا تصادفني إلَّا وأنتُ مُدبر، قلت. قفَلْتُ وابتسامة إخلاص قبيحة تُسَوِّط ظهري. وتخيَّلته يركض نحو محظيته قائلاً، تعرفين ذلك الأحمق «موران». آه لو رأيت كيف سلخته، لم يجد ما يقوله فهرب. عاد «جاك» بعد قليل. لا يحمل علامات التهذيب. قال إنَّه ذهب إلى الكنيسة بمفرده. طرحْتُ عليه جملة من الأسئلة المناسبة حول سير الطَّقُس. أجاب دون انقطاع. طلبتُ منه أن يغسل يديه ويجلس إلى الطاولة. رجعتُ إلى المطبخ أغدو وأروح. يمكنك وضع الطَّعام، قلت. بكت «مارتا». تفَقَّدْتُ الأواني قليلاً. أواني الإريش ستيو<sup>(17)</sup>، أكلة مغذية ومقتصدة وعسيرة الهضم. الشرف للبلاد التي نشرت الاسم. سأكل عند الرابعة، قلت. لم أكن في حاجة إلى التلفظ بحرف

16 - الوالنشتاين: ذُكرت هنا على أنَّها نوع من أنواع البيرة.

17 - الإريش ستيو: أكلة شعبية إيرلندية، وهي عبارة عن مرق بلحم الضأن تقدَّم مع البطاطا والبصل والجزر.

إضافي. أحب الدقة. كل الذين يحتمون بسففي عليهم أن يحبوها أيضاً. صعدتُ إلى غرفتي. ممدداً على فراشي، السَّائر مسحوبة، قمتُ بأولى المحاولات للتركيز على ملفّ مولوي. في البداية اهتممتُ فقط بالمشاكل الفورية والاستعداد الذي سأضطرّ إلى اتخاذه في شأنها. العقدة في قضية مولوي ما زلت أستبعدها من دائرة تفكيري. أحسستُ بتشويش كبير يجتاحني. كان لديّ دائماً نمط تفكير منهجي ولا أخوض أبداً مهمة قبل تفكير طويل يتعلّق بالطريقة الأمثل للمشروع. ذاك كان أوّل إشكال تحتم عليّ حلّه في بداية كلّ بحث، وأبداً لا أتحرك قبل أن أحلّه حتّى أَرْضى. أحياناً أخذ درّاجتي النارية، وأحياناً القطار أو الحافلة، ويحدث أن أبرح سيراً على الأقدام، أو على درّاجتي الهوائية. بصمت أثناء الليل، وحين نكون محوطين بالأعداء كما هو حالي، لا يمكن الرّحيل بدرّاجة ذات محرّك ليلاً دون أن نثير الانتباه من حولنا. إنّه جنون، ومن عاداتي أولاً أن أحسم مسألة التنقل الحسّاسة، بل العميقة، كفاية ما يجعلني أدرس كلّ النقاط المرتبطة بها. إذ كيف نقرّر الوسيلة التي ستقلّنا ونحن لم نحدّد بعد الوجهة التي نقصدها، لكن هذه المرّة عالجتُ مسألة التنقل غير متسلّح سوى بتمكّني التام بما جاء في نصّ «جابر». يمكنني التوصل فيه إلى أدقّ التفاصيل متى شئتُ لكنّي لم أكن بعد قد وصلتُ إلى تلك المرحلة، قائلاً، إنها قضية سخيفة. إصراري على مسألة التنقل كان جنوناً، مع ذلك قمتُ به. فقدتُ عقلي قبل الشروع في أيّ شيء. أهوى السّفر بالدراجة النارية. أحبّ طريقة التنقل تلك. وهكذا وجد مبدأ المتعة المهلك طريقه إلى ملفّ مولوي، أشعة الشّمس تخترق شقوق السّائر فتجعل سحابة الغبار مرئية، استنتجتُ أنّ الطّقس ما زال جميلاً فانتشيتُ. يجب أن يكون الطّقس جميلاً لو قرّرنا السّفر بدرّاجة المحرّك. أسأت التقدير لأنّ الطّقس أخذ يسوء، غشت الغيوم السّماء وبعد قليل ستمطر. لكن في الوقت الحالي، السّماء ما زالت صافية والشمس مشرقة. هذا ما بنيتُ عليه بخفة وبصورة سطحية إذ لم يكن لديّ علامات أخرى أستأنس لها في أخذ القرار.

ثم وفقاً لمنهجيتي كرستُ اهتمامي لمسألة مصيرية ألا وهي النتائج التي عليّ تحملها. في هذا الباب اتخذتُ قراراً تافهاً جداً دون أن أقحم ابني الذي سألني إن كان يمكنه الخروج. ضبطتُ أعصابي. مسح بيده على فمه. لا أحب أن أرى ذلك. إنما لديّ فكرة عن سلوكيات أفظع.

تخرج؟ قلت، إلى أين؟ خروج! يا لها من ريح شريرة. بدأت أجوع بشدة. إلى «الأرمو»<sup>(18)</sup>، أجب. هكذا كنا نكنّي حديقتنا العامة رغم أنها لا تحتوي على شجرة أذن بحر واحدة. أكدوا لي ذلك. لماذا؟ قلت. لأعطني نباتاتي، أجب. منذ فترة صرتُ أشكّ في أن ابني خبيث. إنها مناورة. وددتُ لو قال إنه يريد استنشاق الهواء أو التفرّج على البنات. المأساة هي أنه يفوقني معرفة بالحدائق والنبات. وإلا لكنّك أمطرته بأسئلة أكشف بها مكره. أنا أحبّ الخضر، هذا كلّ شيء. بل أرى فيها أحياناً دليلاً قاطعاً على وجود الله. هيا اذهب، لكن على أن تكون هنا عند الساعة الرابعة والنصف. لديّ ما أحدثك به. حسناً أبي، قال. حسناً أبي! آه! نمّتُ قليلاً. لنختصر. شيء ما استوفقني وأنا مارّ أمام الكنيسة. تأملتُ البوابة. النمط المسيحيّ الرائع. بدا لي بشعاً. غذيتُ الخطي نحو الكاهن. الأب نائم، قالت. الخادمة. سأنتظره، قلت. هل الأمر مستعجل؟ قالت. نعم ولا، قلت. رافقتني إلى الصّالون ببرود مقيت. دخل الأب «أمبرواز» يفرك عينيه. هل أزعجك أيها الأب؟ قلت. تلمّظ علامة الاحتجاج. لن أصبغ سلوكيّنا. له طبيعته ولي طبيعتي. قدّم لي سيجاراً قبلته بكلّ سرور. دسسته في جيبي بين قلمي وقلم الرصاص. يغرّ الأب «أمبرواز» أنه يتصرّف بنبيل ويحترم البروتوكول، هو الذي لا يُدخّن أبداً. يقول عنه النّاس إنه واسع. سألتُه إن كان لاحظ وجود ابني في صلاة منتصف النهار. طبعاً، قال، بل لقد أنشدنا أيضاً. أبديتُ اندهاشاً. نعم، قال، لم أرك جالساً في مقعدك في الصّف الأوّل للمقدّسين وخشيتُ أن تكون مريضاً فدعوتُ الابن العزيز وطمأنني. تلقّيتُ زيارة في الوقت الأقلّ ملائمة

18 - الأرمو: تُسمّى شجرة أذن البحر بسبب فاكهتها التي تُشبه الصّدفَة وهي شجرة عملاقة يمكن أن تبلغ من الطول من 30 إلى 35 متراً.

على الإطلاق، قلت. شرح لي ابنك ذلك، قال. لكن لنجلس أولاً، ما من معرض على الجسر<sup>(١٩)</sup>. ضحك وجلس وهو يشمر ثوبه الثقيل. القليل من النيذ؟ قال. احترت، هل لمَح «جاك» لموضوع البيرة؟ قادر على فعلها. جئتُ أطلب منك فضلاً، قلت. منحتك إياه، قال. تبادلنا النظرات. إنسان بلا قربان هو بالنسبة إليّ ك——. رفع يده. لا مقارنات مدّسة من فضلك. لعلّه فكّر في قُبَل بلا شوارب أو لحم مشويّ بلا خردل. لا أحب أن يُصادَر رأيي أو أن تتمّ مقاطعتي. عبست. أراك قد جئت، قال، هل ترغب في أن تناجني؟ أجب. طأطأتُ رأسي. ليس هذا من النظام في شيء، قال. تساءلتُ إن كان قد أفطر. أعرف أنّه ملتزم بصوم طويل بهدف تطهير نفسه من الخزي. ثمّ لأنّ طبيبه قد نصحه بذلك كحجر واحد يصيب هدفين. لا تُخبرُ أحداً، قال. ليظَلّ الأمر بيننا. وصمتَ رافعاً إصبعه وعينه للسقف. حسناً، قال، ما هي هذه المهمة؟ نظرتُ إلى السقف بدوري. أثر رطوبة، قلت. تاتا، قال، كم هذا مملّ. كلمة تاتا تبدو لي خرفة بشكل لا يوصف. هناك أوقات، قال، نستسلم فيها للإحباط. نهض. ذاهب لأحضر حقيبتني، قال. يسمّي ذلك الشيء حقيبة. ضمنتُ يديّ إلى حدّ تمزّق المفاصل ودعوتُ النصح من الربّ. بلا نتيجة. لعلّي اهتديتُ. أمّا الأب «أمبرواز» بالنظر إلى طريقة انكبابه على حقيبتيه بدا واضحاً أنّه لم يشكّ في شيء بعينه. أو أنّه يتسلّى باكتشاف ما سيصدر عني أو أنّه يتسلّى بإقحامني في الإثم؟ ألخصّ الموقف في المعادلة التالية. إن كان على علم بأنّي احتسيتُ البيرة مع ذلك يُصرّ على الاستماع إلى مناجاتي فهذا يعني أنّه مذنب مثلي تماماً. هذا إن كان هناك ذنب أصلاً. لا شيء جسيماً في انتظاري إذن. عاد ومعه حقيبة كالوعاء. فتحها. وأشار إليّ دون تردّد. نهضتُ وشكرته بحرارة. إيه! قال، ترّهات، الآن لنندردش.

19- ما من معرض على الجسر: تعبيراً عن غياب سبب وجيه للتوتّر أو العَجَلَة. وأصل العبارة يعود إلى القرون الوسطى عندما كان التجّار الأفارقة والشرقيّون لا يجدون مكاناً لعرض بضائعهم في مدينة بوكير الفرنسية خلال معرضها السنويّ في جويليه من كل سنة فيضطرون إلى الانتصاب بسلمهم فوق جسر على نهر الرون والجسر يصل المدينة بالضفة التي يأتي منها المشارقة.

لم يكن لديّ المزيد لأقوله، لا شيء يحدوني سوى الرغبة في العودة إلى منزلي وحشو نفسي بالـ «ستيو». روعي أمنة. أشعر بجوع قاتل. لكن كان لديّ ثماني دقائق تفصلي عن الموعد، لذا قرّرت أن أمنحه إياها. بدت لي طويلة جداً. أخطرني بأن السيّدة «كليمون» صيدلانية زوجة صيدلانيّ، سقطت في مؤسستها من أعلى السلم فكسرت رقبتها. الرّبة! صرخت. العظم، قال. ألا تتركني أكمل! أضاف بأنّه أمر كان لا بُدّ أن يحدث. إحساسي بأنّي مدين له بشيء جعلني أهتف، دجاجاتي يسبّين لي الإحباط. خصوصاً الرّماديّة فهي لا تبيض ولا تحضن منذ أكثر من شهرين إنّها تظلّ باركة منذ الصّباح حتّى المساء بمؤخّرة في الغبار. كـ «-جوب»، قال، ها ها. أنا أيضاً قهقهت. كم أنّ الضّحك باعث على السّعادة من وقت إلى آخر، قال، أليس كذلك؟ قلت. إنّ جوهر الإنسان، قال، لاحظتُ ذلك. صمتٌ قصير ساد بيننا. ماذا تطعمها؟ قال. الدّرة بشكل خاصّ، قلت. مغليّة أم حياً؟ قال. أضفتُ بأنّها لم تعد تأكل. الحيوانات لا تضحك أبداً، قال. نحن فقط من نضحك للتّسلية، قلت. ماذا؟ قال. نحن فقط نضحك لتتسلّى، قلت بحزم. استغرق يُفكر. المسيح أيضاً لم يضحك أبداً، قال، على حدّ علمنا. رمقني بنظرة. ماذا تقصد؟ قلت. بالطبع، قال، نحن نبسم بحزن. هل هي مُصابة في فمها؟ سأل. أجبتُ بأنّها مُصابة في كلّ شيء عدا الفم. هذا مؤكّد. فكّر وقال، هل جرّبت البيكربونات من قبل؟ لا لم أفعل، قلت. جرّبه، قال مُحمّراً من النّشوة. اجعلها تبتلع منه بعض ملاعق التّحلية مرّات عديدة في اليوم. وواظب على ذلك مدّة أشهر وسترى كيف ستصبح صحتّها حديد. هل هو مسحوق؟ قلت. لا بل أقراص، قال. شكراً، قلت. سأجرّبه بدءاً من اليوم. دجاجة جميلة. دجاجة بيض جيّدة، قال. حسناً، بدءاً من الغد، قلت. نسيتُ أنّ الصّيدلانيّة مقفلة ولا تفتح إلّا لسبب قاهر بالطبع. والآن القليل من النّبيذ، قال. شكرته.

حواري مع الأب «أمبرواز» ترك في داخلي انطباعاً شاقاً. إنّ الرجل العزيز على قلبي نفسه، مع ذلك لم يعد. يُخيّل إليّ بأنّي رصدتُ على

وجهه نقصاً. كيف يُقال ذلك. تدنياً في النبل. يجدر القول إن رقائق الخبز  
 والبسكويت لا تُبتلع. في طريق العودة إلى بيتي تملكني شعور يأتي رجل  
 ابتلع مُسكناً. يندهش أولاً ثم يحسّ بالعار لأنّه ما زال يتنفس بصورة طبيعية.  
 كنتُ فعلاً على وشك إدانة الأب «أمبرواز» متهماً إياه، لعلمه بالتجاوز الذي  
 قمتُ به في الصّباح، بأنّه دسّ لي خبزاً غير مبارك أو أنّه نوّمني ذهنيّاً بكلمات  
 سحرية. وبمزاج سيئ للغاية وصلتُ إلى بيتي تحت مطر يجلد جلدًا. خيب  
 الـ «ستيو» ظني. أين البصل؟ صرخت. لقد تقلّص، قالت «مارتا». هرعْتُ  
 إلى المطبخ بحثاً عن البصل فقد ساورتني الشكوك بأنّها تخلّصت منه لعلمها  
 بأنّي أحبه. فتشّيتُ في القمامة. لا شيء. كانت تراقبني أتصرّف بملامح لثيمة.  
 صعدتُ إلى غرفتي. فتحتُ الستائر على سماء كارثية واستلقيت. لا أفهم  
 ما الذي يحدث معي. كان شاقاً في تلك الفترة أن لا أفهم أمراً كهذا. قمتُ  
 بمجهود خاصّ كي أتمالك نفسي. أخفقت. حتماً إنّ حياتي تتسرّب لا أدري  
 من أين. حاولتُ أن أغفوّ لكن كان من الصّعب أن أفلح مع تفاقم السوء الذي  
 أشعر به. سرّني أنّي تمكّنتُ من النوم عند الفسق لمّا دخل ابني دون استئذان.  
 إن كان ثمة أمر أمقته فهو أن يدخل أحدهم غرفتي دون أن يطرق. كان من  
 الممكن أن أكون في وضعية استمناء أمام مرآتي الـ «ألبروت». مشهد لا  
 يُحتذى كثيراً بالنسبة إلى ولد أنا والده. القضيبي صلب والعينان جاحظتان  
 وأنا بصدد انتزاع لذة غامضة وعنيدة. بلطف ذكرته باللياقة. احتجّ قائلاً إنّّه  
 طرق مرّتين. كان عليك أن تطرق مئة مرّة، أجبته، لا يحقّ لك الدخول قبل  
 أن يؤذن لك. لكن، قال. لكن ماذا؟ قلت. دعوتني الرابعة والنّصف، قال.  
 ثمة ما هو أهمّ من دقّة المواعيد في هذه الحياة، أعدد، قلت. في هذا الفم  
 المستهتر بدت لي جملتي مخجلة. شعرتُ بالإهانة. ماذا رأيت، قلت. الزّنايق  
 يا أبي، ردّ. الزّنايق يا أبي! إنّ لديه طريقة خاصّة جدّاً في التّلفظ بكلمة أبي،  
 يجرحني بها عندما يرغب في ذلك. الآن اسمعني جيّداً قلت. اتّخذ وجهه  
 سحنة انتباه قلق. سرحل هذا المساء، قلت، بنبرة متقطّعة، سنسافر، سترتدي  
 بدلة المدرسة الخضراء. لكنّها زرقاء يا أبي، قال. زرقاء أو خضراء، ستلبسها،

قلت بعنف. واستأنفت، تَضَعُ أغراض الحمام والقميص وتسعة ملابس داخلية وزوج جوارب في حقيبة الظهر التي أعطيتك إياها في حفلك. هل فهمت؟ أيّ قميص يا أبي؟ قال. لا يهم أيّ قميص، صرخت، قميص وكفى. وأيّ حذاء ألبس؟ قال. لديك زوجا أحذية، قلت. حذاء الأحد وحذاء سائر الأيام، وتسالني أيّ حذاء ألبس؟ قلت. قدّمتُ لابني تعليمات دقيقة لكن هل هي صائبة؟ هل قاومت التفكير؟ ألن أجد نفسي مضطراً إلى التراجع عنها؟ أنا الذي لم يسبق أن غيّرتُ رأيي البتّة أمام ابني. كان كلّ شيء رهن التحسّب. أين سنذهب يا أبي؟ كم مرّة قلت له بأن لا يسألني. لكن حقاً أين سنذهب. افعل ما طلبته منك، قلت. أنا على موعد مع السيد «بي» قال. تراه يوماً آخر، قلت. لكنني أتألم، قال. هناك أطباء أسنان كثيرون غيره، قلت، السيد «بي» ليس الطيّب الوحيد في النصف الشمالي للكوكب. وأضفتُ بحذر، لن نذهب إلى الصحراء على أيّ حال. لكنّه طيب أسنان جيّد، قال. كلّ الأطباء مرموقون، قلت. كان في وسعي أن أقول له، اغرب عن وجهي أنت وحكاية طيب الأسنان هذه. لكن لا، لقد حلّلتُ معه الأمور بلطف وحدثته ندّاً لنذ. كان في إمكاني أيضاً أن أواجهه بكذبه حين يقول إنّه يتألم. لم يعانِ منها. «بي» نفسه أخبرني بذلك. لقد عالجتنا الضرس، قال لي، من المستحيل أن يعاني ابنك منها مستقبلاً. أذكر حوارنا جيّداً. لديه أضراس سيّئة بطبيعتها، قال «بي». بطبيعتها؟ قلت، كيف بطبيعتها؟ إلى ماذا تلمّح؟ وُلِدَ بأضراس سيّئة، قال، وسيظلّ لديه دائماً أضراس سيّئة. طبعاً سأقوم بما سأقدر عليه. أيّ إنّي وُلِدْتُ مُسَخَّراً للقيام بما يمكنني فعله. سأقوم دائماً بما يمكنني فعله. وُلِدَ بأضراس سيّئة! أمّا أنا فلم يبق لي سوى التآيين العلويين، اللّذين يلقيمان. هل تمطر؟ قلت. أخرج ابني قطعة صغيرة من مرآة يحتفظ بها في جيبه وراح يفحص فمه من الدّاخل مُبعداً شفّته العلوية بإصبعه. واه! قال دون أن يقطع فحصه. كفى، توقّف عن العبث بفمك! صرخت. اذهب إلى النافذة وانظر إن كان المطر ما زال ينزل، قلت. اتّجه إلى النافذة وقال لي، ما زال ينزل. السّماء مُغشاة بالكامل؟ قلت. نعم، أجب. لا أثر للبرق، قلت. لا، قال. أغلق السّتائر، قلت. لحظات لذيدة قبل أن تعتاد العين على

الظلام. ما زلت هنا؟ قلت. ما زال هناك. سألتُه ماذا ينتظر لينفذ ما طلبته منه. لو كنتُ مكانَ ابني لانصرفْتُ منذ مدة. لا يستحقني. لسنا من قماش واحد. لم أفلح في طرده هذه الخلاصة. شعور رديءٍ بالرّضا أن تحسّ التفوّق على ابنك وغير كافٍ لإخماد النّدم لأنك أثبتتَ به إلى هذه الدّنيا. هل في إمكاني أن أحمل معي مجموعة الطّوابع البريديّة؟ قال. لدى ابني ألبومان، واحد كبير يحتوي على مجموعة بمعنى الكلمة، وآخر صغير يضمّ النّسخ. سمحتُ له بأخذ الألبوم الصّغير. عندما يكون في استطاعتي أن أسديّ خدمة لمبادئي دون استخدام العنف فإنّي أفعل عن طواعية. انسحب. نهضتُ وذهبتُ إلى النّافذة. لا يسعني البقاء هادئاً. أمررتُ رأسي بين السّتائر. رذاذ وسماء مسدودة. لم يكذب عليّ. يتمّ الحديث عن صحو مرتقب. عند الثّامنة أو الثّامنة والنّصف. غروب جميل. غسق، ليل. قمر يتناقص، يطلع حوالي منتصف اللّيل. أدقّ الجرس لـ «مارتا» وأنام. العشاء سيكون في البيت، قلت. حدّقتُ فيّ بذهول. ألسنا نتناول العشاء دائماً في البيت؟ قالت. لم أخبرها بعدُ بأننا راحلان. سأطلعها في آخر دقيقة. القدمان في الرّكاب كما يُقال. ثقتي فيها محدودة. سأناديها في آخر دقيقة وأقول لها، «مارتا» نحن ذاهبان. يوماً أو يومين أو ثلاثة أيّام، ثمانية أيّام، خمسة عشر يوماً، لا أدري، وداعاً. لم ألفت انتباهها إذن. لِمَ أزعجها؟ كانت ستقدّم لنا العشاء في كلّ الحالات كما تفعل عادة. ارتكبتُ خطأ وضع نفسي في مكانها. ولمَ حرمتها من ساعات بعد الظّهيرة؟ هذا يمكن فهمه بشكل أو بآخر. لكن أن أقول لها بأنّ العشاء اللّيلة سيكون في البيت. يا له من لسان أخرق. هي تعرف ذلك. تظنّ أنّها تعرف ذلك. بل تعرفه فعلاً. إثر التفصيل المجانيّ الذي قدّمته ستوقع الأغرب وستضعنا تحت الرّقابة لتُحاول الإلمام بما يجري. خطأ أوّل. ثانٍ، لأنّ الأوّل في الزّمن كان عندما تغافلْتُ عن توصية ابني بعدم ترديد ما دار بيني وبينه. لم يكن ذلك ليمنع شيئاً. لا بأس، لا ألوم إلا نفسي. كان عليّ القيام بذلك. أنا الماكر في العادة صرْتُ ارتكبتُ الحماقات. في محاولة منّي لندارك أمرّي، قلتُ لها، بعد الموعد بقليل، لنقل عند السّاعة التاسعة ليس أقلّ. غادرتُ «مارتا» بوجدان فظّ يغلي. لستُ هنا لأجل أحد،

قلت. أعرف ما تنوي فعله. سترمي بكيس على كتفها وستزلق نحو الحديقة. ستنادي «حنّا» طبّاخة الأخوات «السر» العجوز، سيثرثران مدّة معتبرة من خلال القضبان. «حنّا» لا تخرج أبداً. تكره الخروج. والأخوات «السر» جارات طبيّات في الواقع. ما أعتبه عليهنّ مبالغتهنّ في عزف الموسيقى. هذا ما أجده لهنّ من عيب. إن كان هناك أمر يدقّر نظامي فهي الموسيقى. ما أوكدّه وأنفيه وأشكّ فيه، ما زلتُ قادراً على التمسّك به حتّى اليوم. لكن سأستعمل أشكال صرف الأفعال في الماضي لأنني غير متأكّد أغلب الوقت. لم تعد الأشياء على أصلها، أظنّ. ما زلتُ لا أدري. لا أدري فحسب. لن أدري أبداً ربّما. أفكّر في الأخوات «السر». لا بدّ من ترتيب الأشياء والتفكير في الأخوات «السر». كان لديهنّ (أبردين)<sup>(20)</sup> اسمه زولو! ويأتي ليلقيّ النحيّة عبر القضبان. لكن ينبغي أن أكون سعيداً كي أفعل. لا أحبّ الحيوانات. أمر يدعو إلى الفضول. لا أحبّ البشر ولا أحبّ الحيوانات، أمّا الربّ فبدأ يثير اشمئزازي. أفرص وأشرع في إغاظته بقرصه من أذنه من خلال القضبان وأنا أقول له كلمات مداعبة. لا يعي أنّه يزدريني. ينتصب على قائمته الخلفيتين ويستند ب صدره على القضبان فأرى عضوه الأسود الذي ينتهي بخصلة وبر هزيلة مبلّلة. يشعر بعدم الاتزان. عضلات ركبته ترتعش. قائمته تبحثان لهما عن مكان، الواحدة بعد الأخرى. أنا أيضاً وأنا أترنّح جالساً بوزني على كعبيّ. أمسك بالقضبان بيدي الحرّة. أنا أيضاً أسبّب له القرف ربّما. أجد صعوبة كبيرة في التخلّص من أفكار الجوفاء.

أنساءل في حركة تمرّد ما الذي يجعلني أوافق على القيام بهذا العمل. لكنني قبلته وانتهى الأمر. لقد أعطيتُ كلمتي. فات الأوان. الشرف. لقد سارعتُ إلى إبداء عجز. لكن ألا يمكن أن أرجئ الرّحيل إلى الغد؟ أو الذّهاب وحدي؟ مناورات غير مجدية. لن نرحل إلّا في الدقائق الأخيرة قبل منتصف اللّيل بقليل. إنّه قراري النهائي، قلت لنفسي. شكل القمر يرّر لي ذلك. أتصرّف كما لو أنّي لا أفلح في النوم. أتجوّل داخل عقلي برويّة راسماً

20- أبردين: كلب قويّ ومرح لا يتجاوز وزنه العشرة كيلوجرامات، من أصل اسكتلندي.

كل تفاصيل المتاهة، الدروب المألوفة في حديقتي والتي ما زالت تبدو لي حديثة عهد، صحاري كما يتمنى المرء وأخرى مأهولة بلقاءات غريبة. وأسمع من بعيد صوت الصنوج. لديّ متسع من الوقت. لديّ الوقت، لكنّ الدليل على التقيض هو أنّي أتوقّف عن الخيال شارداً، خاوياً لأحاول التفكير مجدداً في قضية مولوي. روح غريبة. بحرّ تارة، ومنارة تارة أخرى.

نحن المُخبرون لا نتلقّى شيئاً عن طريق الكتابة. «جابر» لم يكن مخبراً بالمعنى الذي كتبه. «جابر» رسول. كان له الحقّ في مفكّرة. لتكون رسولاً يجب أن تجتمع لديك خصلات استثنائية. الرّسل الجيّدون هم دائماً أكثر ندرة من المخبرين الجيّدين. أنا مثلاً، المخبر المتميّز، لم أكن لأؤدّي سوى دور رسول سيّئ. أحياناً أنا أسف على ذلك. «جابر» كان محمياً من زوايا عدّة. كان يعتمد مبادئ غير مفهومة لا تخصّ غيره. على الرّسل قبل أن يتمّ انتدابهم الإدلاء بخصالهم لدى المديرية. «جابر» لم يكن يفقه شيئاً من الرّسائل التي كان يحملها. كان يفكر ثمّ بصورة مذهلة يخرج بخلاصات لا تمتّ للواقع بصلة. لا يكفي أن لا يفهم شيئاً، ينبغي فوق ذلك أن يصدّق بأنّه يفهم كلّ شيء. ليس هذا فحسب، فذاكرته منخورة إلى درجة أن رسائله لا توجد في رأسه بل فقط في المفكّرة. إذ يكفي أن يغلقها ليصبح بعد دقائق بريثاً تماماً ممّا جاء في مضمونها. وحين أقول إنّّه يفكر ثمّ يخرج بأراء حول رسالته فلا يعني أنّه يفعل كما كنتُ سأفعل أنا وأنتَ بمفكّرة مغلقة وعينين مغمضتين أيضاً. بل كان يفكر وهو يقرأ. وحين يرفع رأسه ويشرع في سرد التعاليق فدون إضاعة ثانية واحدة، يكون قد نسي كلّ شيء، نصّاً ونقداً. أنساءل ما إذا كانوا يُخضعون الرّسل إلى عمليات جراحية تجعلهم يفقدون الذاكرة إلى هذا الحدّ. لكن لا أعتقد. لأنّ لهم ذاكرة جيّدة في كلّ ما ليس له أيّ علاقة بالرسائل. وسمعتُ «جابر» يتحدّث عن طفولته وعن عائلته بشكل معقول جداً. أن يكون الوحيد القادر على قراءة ما كتب، مُحافظاً على جهله بالأمر في ما يخصّ الرّسائل وعاجزاً عن الإمساك بها لحظات وجيزة. مواهب نادرة قلّما اجتمعت في شخص واحد. مع ذلك هذا ما يُطلب من رُسُلنا.

الدليل على أنهم يحفظون بتقدير أكبر من أفضل المخبرين العناية المتألفين هو أنهم يتقاضون ثمانية جنيهات في الأسبوع فيما لا يتقاضى نحن سوى ستة ونصف. يُستثنى من هذه الأرقام كلّ العلاوات ومصاريف التنقل. لكن وأنا أتحدث بضيعة الجمع عن المخبرين والرسل فهذا يظلّ كلاماً تنقصه الضمانات، لأنني لم أصادف أبداً رسولاً غير «جابر» ولا مخبراً سواي. لكنني أفترض أننا لم نكن بمفردنا، و«جابر» يجب أن يفترض الأمر ذاته. إذ لو نشأ لدينا وعي بأن كلامنا هو الوحيد في اختصاصه فلن نتحمل، أظن. ينبغي أن يكون طبيعياً في نظري أن يكونوا قد تعهدوا بمخبر لرسول واحد. وفي نظر «جابر» أن يكونوا قد سخروا رسولاً لمخبر واحد فقط. هكذا عندما سمحتُ لنفسي بالقول لـ «جابر»، ليكلفوا غيري بالمهمة، لا أرغب فيها، أمكنه بدوره أن يردّ، إنهم لا يريدون غيرك. وهذه الكلمات الأخيرة، لو فرضنا أن «جابر» لم يتدعها ليعطيني متعمداً، فلا بد أن الرئيس نطق بها فعلاً ربّما بهدف المحافظة على الصورة المشوشة لدى كلينا عن الآخر، إن كان فعلاً هناك غموض من أي نوع. كل هذا غير واضح تماماً. أن يذهب في اعتقادنا بأننا ضمن شبكة ضخمة كهو بلا ريب فضل إضفاء إحساس إنساني سام يُراد به أن يُسهّم التشارك فيه بالتقليص من الشعور بالإفلاس. لكن بالنسبة إليّ على الأقل، بوصفي خبيراً في الإنصات إلى صوت الحكمة، من البديهي أن نكون بمفردنا من يقوم بهذا العمل. نعم في لحظاتي الأكثر موضوعية اعتبر ذلك ممكناً. حتّى لو أنّ موضوعيتي أحياناً تبلغ من الحدة منزلة أشكّ معها في وجود «جابر» نفسه. ولو لم أغرق مرّة أخرى بقوة في الظلمات لكنتُ ربّما وصلتُ بالتفكير إلى حدّ إلغاء الرئيس والاعتقاد بأنّي الوحيد المسؤول عن وجودي التّعيس. أعرف أنّي تعيس بستّة جنيهات ونصف في الأسبوع، يُضاف إليها علاوات ومصاريف مزيفة. ولو نفيتُ وجود «جابر» والرئيس (اسمه يودي) هل كان في وسعي أن لا أفكر في النعيم الذي يمنحه ————— فهمتموني. لكنني لم أخلق للنور العظيم القاتل. لم يجهّزوني سوى بمصباح صغير وصبر كبير أمضي بهما في ظلّ الفراغ. كنتُ مُجرّد قويّ بين عدة أقوياء آخرين.

نزلتُ إلى المطبخ. لم أتوقع وجود «مارتا». لكنني وجدتها. كانت تتأرجح عابسة على كرسيها الهزاز قرب المدفأة. على حد قولها، هذا الكرسي الهزاز هو أغلى ما تملك وهي غير مستعدة لاستبداله بإمبراطورية. تجدر الملاحظة بأنها لم تضعه في غرفة نومها بل في المطبخ في ركن قريب من المدفأة. كانت تنام متأخراً وتستيقظ باكراً وكانت أوقاتها المفضلة هي تلك التي تقضيها في المطبخ. الرؤساء كثيرون وأنا واحد منهم، لا أحبذ أثاث الرفاهية في مقر العمل. تريد الخادمة أن ترتاح؟ لتسحب إلى غرفتها. ليكن أثاث المطبخ برمته قاسياً وأبيض. حري بي التئوه بأنها اشترطت عليّ قبل تسلّم العمل أن تظلّ محافظة على كرسيها الهزاز في المطبخ. رفضتُ بسخط ثم حين لاحظتُ أنها صامدة أذعنْتُ. لَدَيَّ قلب رحيم. تصلني مؤنثي من الجعة كلّ سبت. ما يعادل نصف دزينة من قوارير بسعة اللتر. لا أقربها إلّا في اليوم الموالي، فمن الأفضل أن ترتاح الجعة بعد نقلها. من بين القوارير الست أفرغتُ واحدة أنا و«جابر». بقي خمس. إضافة إلى قاع في قارورة الأسبوع الماضي. رحْتُ إلى المعمل. وجدتُ القوارير الخمس مسدودة ومختومة وأخرى مفتوحة وفارغة حتّى ثلاثة أرباعها. «مارتا» كانت تلاحقني بعينها. غادرتُ دون أن أوجّه إليها كلمة. صعدتُ إلى الطابق العلويّ. لا أفعل سوى الغدوّ والرواح. دخلتُ غرفة ابني. كان جالساً إلى طاولته يرمق طوابعه بإعجاب. الألبومان أمامه، الكبير والصغير. لدى اقترابي أغلقهما بحركة واحدة. فهمتُ فوراً ما يخطّط له. لكنني قلت أولاً، هل جهّزت أغراضك؟ نهض. تناول حقيبتيه وسلّمها إليّ. نظرتُ في داخلها. قلبتُ محتوياتها بيدي وبعينين ساهمتين. لا شيء ينقص. أعدتها إليه. ماذا تفعل؟ قلت. أنا أمل طوابعي قليلاً، أجب. تسمي هذا تأمل طوابع؟ قلت. طبعاً، قال بجسارة لا يمكن تخيلها. اخرس أيها الكذاب الصغير! صرخت. هل تعلمون ماذا كان يفعل؟ كان يحوّل إلى ألبوم النسخ الصغير الطوابع النادرة الثمينة التي كان يمعن فيها النظر بتولّه كلّ يوم والتي لم يكن ليقدّر على فراقها حتّى لأجل أيام

قليلة. أرني ال «تيمور»<sup>(21)</sup> الجديد، الخمس رئيس الأصفر<sup>(22)</sup>، قلت. تردّد. أرني إياه! صرخت. أعطيتُه إياه بنفسي، لقد كلّفني العملة الهولندية. فرصة لا تُفوت في تلك الفترة. وضعته هنا، قال بإشفاق وهو يرفع ألوم النسخ. هذا كلّ ما أردتُ معرفته. أن يُقرّ على ذلك بنفسه، لأنّي على علم. حسناً، قلت. وقفتُ بجانب الباب. حسناً، سترك الألبومين، قلت. الصّغير والكبير. ولا كلمة عتاب واحدة. مجرد محاكاة تنبئية مُستقبلية من النوع الذي يستخدمه «يودي». (سيرافك ابنك). خرجتُ بخطوات هشة مبتسماً بتكلّف وأنا أهني نفسي على الموكيت اللّين الذي أملكه. سرّت في الممرّ نحو غرفتي وخطرت لي فكرة اضطرّرتني إلى العودة إلى غرفة ابني. كان جالساً في مكانه. لكن في وضعية مختلفة قليلاً. الذّراعان على الطاولة والرّأس على الذّراعين. حزّ في نفسي لكنّ الواجب يحتمّ الحزم. لم يتحرّك. لمزيد من الأمان سنضع الألبومين في خزانة الحديد إلى حين عودتنا، قلت. ظلّ ساكناً. نهض بقفزة قلبت الكرسيّ ونطق بكلماته الحانقة، اصنع ما يحلو لك! لم أعد أرغب في رؤيتهما! يجب أن نترك سحابة الغضب تمرّ، هذا رأيي. على المرء أن يعالج الأمور ببرودة أعصاب. أخذتُ الألبومين وخرجتُ دون أن أتفوّه بكلمة، لقد قلّل من احترامه لي، لكن هذا ليس الوقت المناسب لتتفق حول ذلك. في الممرّ وقفتُ دون حراك فسمعتُ صوت سقوط وارتطام. شخص آخر غيري ليس سيّد نفسه مثلي كان حتماً سيدخل. لكن هذا وبصورة إيجابية لا أكرهه، أعني أن يُسلّط ابني لومه على نفسه بحرّية. هذا يُطهّر. علينا أن نخشى الألم المكتوم في نظري.

دخلتُ غرفتي متابّطاً الألبومين. لقد جنّبت ابني فتنة خطرة. دسّ الطّوابع التي يعشقها في جيبه لينغذّي عليها أثناء رحلتنا. أن يضع طوابع بريديّة في جيبه هذا ليس بغيظ في حدّ ذاته. لكن خلفها هناك عصيان. سيكون عليه الاختباء عن والده كي يراها. وعندما يفقدها كما هو وارد جدّاً، فسوف يلجأ

21- تيمور: إحدى جزر الأندونيسيا.

22- الرئيس: لقب يُسند إلى أصحاب المناصب السامية في الدولة العثمانية.

إلى الكذب ليُبَرِّر لي ضياعها. إن كان حقاً لا يطيق فراق قصاصاته المفضّلة كان من الأجدر أن يأخذ الألبوم كاملاً. لأن احتمال ضياع الألبوم يظل قائماً بحفظ أقل من ضياع طابع واحد. كنتُ حكماً أفضل منه فيما يتعلق بما يطيقه وما لا يطيقه. لأنّي أعرف أشياء ما زال لا يُدرِكها. ليكن هذا الدرس مفيداً له. أن يحرم نفسه<sup>(23)</sup>، هذا هو الدرس الذي وددتُ دائماً أن ألقنه إياه منذ كان صغيراً غضاً. كلمات سحرية لم أتخيّل يوماً حتى سنّ الخامسة عشرة أنّ في وسع المرء تبنيها. وهذه المؤسسة هل سأبدو ملعوناً في نظرها. هل تماديتُ في جعله يكره ما يحبّ فوق طاقتي وخلافاً لما هي عليه شخصيتي. لقد طالت فكرة الأب. لن أرخي الحبل. سأشدّ بكلّ قوتي. وبين موتي وموته فكّرتُ، لحظة توقفتُ فيها عن تعذيب ذاكرتي، إن كانت هناك برهة خاطفة كالبرق يخطر له فيها آتي مُحَقّق. كان ذلك سيكفيني ويعوّضني عن الألم الذي سببته لنفسه وما زلتُ أفعل. في البداية سيتلقّى الأمر بصورة سلبية حتماً. وسينفث لعناته. لكنّ بذرة الشكّ لا بُدَّ أنّها أودعت في داخله. سيثير المسألة مُجدّداً، هكذا كنتُ أحلّل.

بقيت ساعات قليلة على موعد العشاء. قرّرتُ أن أستغلّها، لأنّي سأغفو بعد العشاء دون شكّ. لبستُ سترتي وحذائي. زرّرتُ بنطلوني ودخلتُ تحت الأغطية. ممدّداً في الدّفء والظلام أكون مؤهّلاً بشكل أفضل لأستشعر الاضطراب الذي في الخارج وأنزل المخلوق الذي عهدوا لي به منزله وأتنبأ بالخطوة القادمة وأحسّ بالخفة التي يمنحها خطر الآخرين، بعيداً عن العالم وضجته، سلوكه وعضّه وصفاته الكئيب كما أراه، والذين هم مثلي غارقون فيه بلا دواء، عالم ينتظر أن أحرّره أنا الذي لا يسعه تحرير نفسه. كلّ شيء معتم لكتّها العتمة السطحيّة التي تجد امتدادها في الشظايا الكبيرة. حشود تتزعزع عارية كالقوانين، لا أحد يدري ممّا تكوّنت. الإنسان أيضاً هنا في مكان ما بين الآخرين وسط كتل معجونة من كلّ السّلطات، بسيط ووحيد بين الآخرين، عارٍ وجاهل تماماً للمفاجآت كصخرة. في تلك

الكتلة في موضع ما يُدفن الزبون ظناً منه أنه نجا. في وسع أيّ كان القيام بالمهمة. لكنهم لا يدفعون لي لأجل البحث. أصِلْ فيُقلت. لم يتمنّ طيلة حياته سوى أن يحدث له ذلك. أن يصير المفضل. الملعون، ثرياً، أن يتخيّل بأنّه بليد دون كلّ الناس، تماماً كما يحدث لي أحياناً جراء الصمت والحرارة والظلال وروائح فراشي.

أنهض. أخرج فيتغيّر كلّ شيء. رأسي يجفّ من الدّم، من كلّ ناحية تهاجمني أصوات الأشياء وهي تتنافر وتتحد وتحلّق منفجرة، عيناى تبحثان عن تشابه ما لكن عبثاً. كلّ ذرّة في جسمي تصرخ برسالة مختلفة، أنقلب في رذاذ الظواهر.

فريسة لكلّ هذه الأحاسيس التي لحسن الحظ أعرف أنّها وهميّة، أضطرّ للعيش والعمل، بفضلها أجد لنفسي المعنى، وهكذا تستيقظ في داخلي مرارة مفاجئة.

يتجمّد، يسحبُ نفساً، ينتظر ويقول في نفسه إنه حلم مزعج أو نوّثر عصبيّ، يتنفس بعمق، يخلد إلى النوم ثانية وهو يرتعش، مع أنّه ليس سيئاً تماماً أن ينغمس في هذا العالم الكبير البطيء حيث كلّ شيء يتحرّك بثقل ثور كئيب، بصبر عبر دروب قميّة أو حيث غالباً يكون التحقيق أمراً مستحيلاً.

لكن في هذه الحالة، أقول جيّداً في هذه الحالة، لديّ أسباب أتمنّى أن تكون جادة أكثر، أدنى إلى الضرورة منها إلى الإمتاع، بأن أحرّكه في هذا الجوّ... كيف أعبر. جوّ النهاية اللامتناهي لم لا، فقط يمكنني أن أتجرأ على الانكباب على العمل، فحيث مولوي الآن، «موران» لا يوجد طبعاً. في وسع «موران» إذن أن يعكف على مولوي، وإن لم يتمخّض شيء خصب بشكل خاصّ عن هذا الاختبار أو على الأقلّ مفيد لتنفيذ الحكم، ففي المقابل يمكنني دائماً أن أرفع ما يشبه التقرير، تقريراً خالياً من المغالطة نسبياً. لأنّ اختيار الكلمات لا يؤدّي بصورة حاسمة إلى سوء تقدير للعلاقة فيما أعلم.

ليس هذا فحسب، بل لعلّي كنتُ سأمنح صاحبي صفة الأسطوريّ. لاحقاً سيساعدني ذلك كثيراً في عملي. حدسي يُخبرني.

خلعتُ سترتي وحذائي. فككتُ أزرار بنطلوني وانزلتُ تحت الأغطية بضمير مرتاح، واثقاً تماماً من إمامي بما علّي القيام به.

مولوي أو «مولوز» لم يكن نكرة بالنسبة إليّ. لو كان لي زملاء لكنتُ اشتبهتُ في ما إذا كان سيخطر لي الخوض معهم في شأنه كما لو أنّه شخصٌ كُلّف بأن يشغلنا أجلاً أم عاجلاً وبشتّى السبل، لكن ليس لي زملاء ونسبتُ كلياً الظروف التي حفتُ بمعرفتي بوجوده، لعلّي ابتدعته، أعني أنّي وجدته في رأسي مكتملاً. مؤكّد أنّنا نلتقي أحياناً أناساً نعرفهم لكنهم ليسوا كذلك فعلاً، لأنّ لهم دوراً عليهم أن يلعبوه في بعض المقاطع الدماغية. لم يسبق أن حدث لي أمر مشابه. لا أصدّق أنّي الرّجل المناسب لتجارب مماثلة، حتّى ظاهرة اللقطات المُكرّرة على بدايتها تبدو لي بعيدة عن متناولي، لكن أظنّ أنّي أتعرض إلى ذلك أيضاً. إذ من حدّثني عن مولوي ومن حدّث عنه بدوري؟ لا أعر على إجابة، لأنّي عادة في محادثاتي النادرة مع الناس أتجنّب الخوض في هذه المواضيع. لو أنّ أحدهم حدّثني عن مولوي لرجوّه بأن يصمت، بالمثل لم أكن لأخبر أحداً بوجوده، مع زملائي كنتُ سأتصرّف بشكل مغاير طبعاً، فنحنُ نحدّث زملاءنا في العمل عن أشياء نخفيها عن الآخرين، لكن ليس لديّ زملاء، هذا ما يُفسّر الأزمة التي أصبتُ بها منذ بدء القضية. ليس هيناً بالنسبة إلى رجل ناضج يعتقد أنّه لم يعد يُفاجأ أن يجد نفسه مقدوفاً في مسرحيّة مذلّة بهذا الشكل، إنّهُ نذير شؤم.

الأمّ مولوي أو «مولوز» لم تبدُ غريبة عني، لكنّها كانت دائماً أقلّ اختلافاً عن ابنها، الله وحده يعلم إن كان كذلك فعلاً، أقصد مختلفاً. في النهاية لستُ أعرف شيئاً ربّما عن الأمّ مولوي أو «مولوز» عدا أنّ لها ابناً يحمل منها آثاراً كأسمال في غطاء رأس. بين الاسمين مولوي و«مولوز» يبدو لي أنّ الأخير هو الأصوب، لكن بقليل. ما يتردّد في داخلي وأنا أحيل الحكم إلى ضميري هو بلا شكّ تلك النعمة الرديئة، المقطع الأوّل مول، صافٍ جداً مشفوعاً

بمقطع آخر من بين أكثر المقاطع قطيعة على الإطلاق، ابتلعه الأول وكان من الممكن أن يكون أوي أو أوز، هذا لأنّ لديّ ضعفاً حيال هذه التثمة، أمّا البقية فهي لا تهزّ لديّ أيّ وتر. لكن ابتداءً من الآونة التي نطق فيها «جابر» اسم مولوي ليس مرّة واحدة بل عدّة مرّات وفي كلّ مرّة بالوضوح نفسه، فإنّ قوّة جعلتني أقرّ بأنّ عليّ أنا أيضاً أن أقول مولوي وأتي لو قلتُ «مولوز» أكون أخطأت. من هنا فصاعداً إذن، متهاوناً في شأن رغبتني، أجبرت نفسي على القول مولوي مثل «جابر» تماماً، مولوزي أنا أم مولوي التحقيق، لم تعد الفكرة تداعب خيالي ولو فعلت لطردتها كما تُطردُ ذبابة أو دبّور. إلهي كم أنّ الإنسان في خصام مع نفسه، أنا المُغرّرُ بكوني متّزناً وبارداً كالكريستال ونقيّاً في أعماقي. كنتُ إذن مُلماً بمولوي رغم أنّي لا أعرف عنه الكثير، سأذكر باختصار القليل الذي أعرفه عنه. في المناسبة نفسها وبالعودة إلى معلوماتي عن مولوي سأشير إلى ثغراته الصادمة.

لا يملك من الحيز سوى القليل، وقته أيضاً مضبوط. يسارع دون توقّف فيما يشبه اليأس للوصول إلى أهداف قريبة جداً. سجيناً تارة، لاجئاً إلى حدود ضيقة وملاحقاً تارة، يطلب المأوى في المركز.

يلهث ولا ينقصه سوى أن يشرق في داخلي كي أمتلئ انبهاراً. حتّى في البادية القاحلة يبدو كأنّه يفسح طريقاً. يُحمّل على نفسه أكثر ممّا يمشي. بيد أنّه يتقدّم ببطء، يترنّح يميناً وشمالاً على طريقة دبّ.

يعتصر رأسه نافثاً كلمات غير واضحة.

كان ضخماً وعريضاً ومُشوّهاً، ومُظلماً في غير سواد في البشرة.

ابن طريق دائماً، لم أره يرتاح أبداً، كان أحياناً يتوقّف برهة ليلقي حوله نظرات ساخطة. هكذا كان يزورني خلال فترات متفرقة جداً. عندها لم أكن سوى مجرد حطام، ثقل، غضب، اختناق، جهد لا ينتهي، مُتعصّب وتافه. عكسي تماماً.

هذا يُغيّر طبعي، أراه يختفي في ما يشبه جسداً يصرخ. مؤسف.

أما ما الذي ينشده فليست لديّ عنه أدنى فكرة.

لا شيء قد أستدلّ به عن سنّه، الهيئة التي أضفيها عليه ولا بُدَّ أنّها كذلك فعلاً، كان عليها دائماً، وسيظلّ عليها حتّى النهاية، نهاية البقيّة التي ما زلتُ لم أكوّن عنها صورة واضحة. لا أتبيّن ما الذي أدى به إلى تلك الحالة. لا أتبيّن أيضاً كيف سيتمكّن من وضع حدٍّ لمعاناته، مُهملاً أعزلٍ إلّا من وسائله الخاصّة. لا يبدو لي احتمال نهاية طبيعيّة له قائماً لا أدري لماذا. لكنّ نهايتي الطبيعيّة التي قررتها أليست في الوقت ذاته نهايته. إنّها أشياء هشة ولا يمكن التعويل عليها. إذ هل توجد نهايات غير طبيعيّة. أليست كلّ النهايات تحدث في الطّبيعة التي لا يمكن إنكار وداعتها وسوئها (كما يُشاع) على حدّ السّواء؟ ألسنا تائهين في ظروف تافهة؟

لا أملك علامة واحدة على وجهه، أتخيّله أشعث، صخريّاً ومُكشّراً. لا شيء يُرخص لي ذلك.

أن يستسلم للتردّد والأحلام رجل موسوس إلى حدّ كبير مثلي، هادئ في المجمال ميّال إلى الخارج بصبر كما إلى أصغر التفاصيل الشرّيرة. مخلوقات بيته، حديقته، ممتلكاته الحفيرة، ينجز بمهارة عمله القذر، مُسخرّاً تفكيره للحسابات لشدة خوفه من الطّوّاري، أن يفعل ذلك رجل مثلي يجب أن يبدو لي غريباً، بل أكثر من ذلك يجب أن يدفعني إلى إعادة ترتيب لائحة اهتماماتي التي لم تكن شيئاً في الواقع سوى حاجتي إلى العزلة. حاجة لا أحد ينصح بها حتماً، لكنّ إرضاءها أمر ضروريّ لو أردتُ أن أعيش وحيداً بحماس ضعيف أمنحه فقط لدجاجي أو إيماني، لكن بتبصّر كبير. على كلّ هذا لا يشغل حيّزاً كبيراً في النجارة التي لا يُروى والذي اسمه وجودي ولا يُشكّل تهديداً حقيقياً كما هو الشّأن بالنسبة إلى أحلامي. عموماً من السّهل نسيان كلّ ذلك بسرعة. إضرام نصيبي من النّار قبل نشوب الحرب بدا لي دائماً أمراً لا يخلو من الحكمة. وكان في استطاعتي أن أروي حياتي التي لم أكن لأشوشها بهذا الحضور وبحضور المُفلس مولوي، بإقبال أقلّ ممّا كنتُ سأروي به حياة آخرين. لأنّ هناك الكثير من القصص الأخاذة لأناس آخرين.

لكن الإرادة لا تعثر على تلك الصور إلا باللجوء إلى العنف. تحذف منها وتضيف إليها. وهذا المولوي الذي أنوي ضحّته بالحياة في هذا الأحد الذي لا يُنسى لم يكن بين الذين تَعَجَّ بهم قرارة نفسي لسبب وحيد هو أن ساعته لم تحن بعد.

لكن في ما يتعلق بالملاحم العامة فقد كنتُ مطمئناً. الشبه موجود. والفرق كان من الممكن أن يتبين بأنه كبير إلى حدّ لا يترك لي المجال للتذمر. لأنّ ما أقوم به لا أفعله لأجل مولوي الذي أسخر منه ولا لأجل نفسي التي أستقبل منها. لكن لصالح العمل لو فرضنا أنّه في حاجة إلينا كي ننجزه. هذا الذي لا صفة له في جوهره والذي سيدوم وسيسكن وجدان الناس عندما يزول مبدعوه البؤساء.

أعتقد أنّه لن يُقال عني، لقد استهان بعمله. في المقابل سيُقال، آه هؤلاء الرفاق القدامى، لقد انطفأت سلالتهم وانكسر قلبهم.

ملاحظتان،

المولوي الذي أقترّب منه بحذر لا يمكن أن يشبه مولوي الحقيقيّ ذاك الذي سأسسك به قريباً بصورة بعيدة ضابيّة، سالكا الجبال والوديان.

ربّما استأنستُ دون أن أشعر لمولوي الذي جمعته في داخلي من عناصر مولوي التي وصفها «جابر». في المُجمل هناك ثلاثة، لا أربعة مولوي. مولوي الذي في أحشائي، الكاريكاتير الذي رسمته له، الخاصّ بـ «جابر»، ذاك الذي هو من لحم وعظم ينتظرني في مكان ما. أضيف إليهم مولوي الخاصّ بـ «يودي»، النسخة المذهلة التي قدّمها «جابر» حفاظاً على عمولته. تحليل ردي، إذ هل يجوز القطع بأنّ «يودي» أوحى إلى «جابر» بكلّ ما يعرفه عن مولوي، ما يظنّ أنّه يعرفه (سيان بالنسبة إلى «يودي») عن مؤتمنه؟ بالتأكيد لا. لم يخبره سوى بما يعتقد أنّه مفيد لتنفيذ جيّد وسريع لأوامره. أضيف إذن مولويّاً خامساً. الخاصّ بـ «يودي». لكن هذا المولوي الخامس ألا يمكن الجمع بينه وبين الرابع، الحقيقيّ كما يُقال، أي ذاك الذي يرافق ظله؟

كنتُ سأدفعُ بسخاءٍ لمعرفة ذلك. حتماً ثمة آخرون. لكن لنظّل إن شئتم في دائرتنا الصّغيرة الأولى. لا أعتقد أنّه من الملائم التطفّل على معرفة ما إذا كان الخمسة مولوي ثابتين أو متذبذبين. لأنّ من طبيعة «يودي» تغيير رأيه بيسر عجيب. هكذا أكون قد قدّمتُ ثلاث ملاحظات في حين إنّي خطّطتُ لذكر اثنتين.

الآن وقد انكسر الجليد، أعتقد أنّي قادر على اعتماد تقرير «جابر» والدخول في صميم المعطيات الرسميّة. بدا لي أنّ التحريّ سينطلق أخيراً. في تلك الآونة تردّد في البيت صوت صنج يقرع بعنف. كانت الساعة التاسعة، نهضتُ، سوّيتُ ملابسي ونزلتُ مُسرِعاً.

الإعلام بأنّ الحساء جاهز، كيف أقول، وفي طريقه ليتخفّر، كان دائماً انتصاراً صغيراً واعتزازاً بالنسبة إلى «مارتا». لأنّي عادة آتخذ مكاني إلى الطّاولَة بمندبل معقود حول عنقي، أقطع الخبز وأتسلّى قبل دقائق من موعد العشاء بقرع الأواني، وألهو بمحمل السكّين في انتظار أن يقدّم لي الطّعام. بدأتُ بالحساء. أين «جاك»؟ قلتُ. رفعتُ كتفيها. حركة قدرة لعبد. قولي له أن ينزل فوراً، قلتُ. الحساء أمامي لا ينبعث منه البخار. هل كان ساخناً أصلاً؟ عادت. قالت إنّّه لا يريد النزول. وضعتُ ملعقتي. قولي مارتا، قلتُ، ما هذه الأكلة؟ ذكرتُ لي اسمها. هل أكلتها من قبل؟ قلتُ. أكّدتُ لي بالإيجاب. لستُ في صحتي إذن، قلتُ. هذه السّباقات تعجّبنني، إنّها تضحكني إلى حدّ أصابُ معه بالحازوقة. تاهت «مارتا» وراحت تنظر إليّ بغباء. لينزل! قلتُ أخيراً. ماذا قلتُ؟ قالت «مارتا». أعدتُ على مسامعها الجملة. كان لديها دائماً سحنة ارتباك صادقة. نحن ثلاثة في هذه الـ «تريانون»<sup>(24)</sup> الصّغير، قلتُ، أنتُ وابني وأخيراً أنا. قلتُ لينزل! لكنّه مريض، قالت «مارتا». عليه أن ينزل حتّى لو كان يُحتضر، قلتُ.

يدفعني الغضب أحياناً إلى فجوات اللّغة التي لا أندم عليها. أعتقد أنّ كلّ

24 - تريانون: مساحة في مقاطعة الإيلين الفرنسيّة، فيها قصر محوط بالحدائق ويتّمي إلى المجال الجغرافي لحدائق فرساي.

لغة هي هوة في اللغة. على كل سأناجي بها طبعياً. أحياناً من الضروري أن أسودَّ بعض الشيء.

كان «جارك» أحمر كـ «الفاوانيا»<sup>(25)</sup>. هيّا تناول حساءك، لديّ ما أخبرك به، قلت. لستُ جائعاً، قال. تناول حساءك، قلت. فهمتُ أنّه لن يأكل. ممّ تشكو؟ قلت. لستُ على ما يُرام، قال. الشّباب، يا له من أمر بغيض. حاول أن تكون واضحاً. قلت. استخدمتُ هذه العبارة متعمّداً. أعرف أنّها عويصة على الشّباب الصّغار لكنّي كنتُ قد شرحتُ له قبل أيّام. كان لديّ أمل أن يقول لي لم أفهم. لكنّه كان مأكراً على طريقة «مارتا»! هتفتُ. ظهرتُ. الطّبق الرّئيس، قلت. كنتُ أراقب النّافذة بانتباه، لم يتوقّف المطر فحسب، هذا أعرفه، بل من جهة الغرب لاح شريط أحمر بديع يومض ويزداد علوّاً في كلّ لحظة. حزرتها أكثر من كوني رأيتها من خلال هضبتي. سعادة كبيرة. لعلّي بالغتُ قليلاً غارقاً في هذا القدر من الجمال والوعد. عدتُ من شرودي بتنهيده، لأنّ السّعادة التي يمنحها الجمال ليست مجرد عادة. ورأيتُ أمامي ما أسميه بتعقّل، الطّبق الرّئيس. ماذا أيضاً؟ قلت. في العادة مساء الأحد نحن نأكل بارداً ما بقي من نهار السّبت من دجاج وفراخ بطّ وإوز وديك رومي ولا أدري. نجح الأمر معي دائماً في ما يتعلّق بالدّبكة الروميّة. إنّها أهمّ من البط من ناحية التّربية حسب رأيي. حسّاسة أكثر ربّما، لكن مردودها أفضل للذي يُطري عليها ويعتني بها، باختصار للذي يحبّها ويعرف كيف يجعل غيره يحبّها. إنّهُ طبق الرّاعي، قالت «مارتا». ذقت الطّبق. وماذا صنعت بدجاج الأمس؟ قلت. مالت ملامح «مارتا» إلى تعابير النّصر. كانت تنتظر سؤالي. حتماً لقد راهنت عليه. فكّرتُ أنّه من الأفضل لك أن تتناول عشاءً ساخناً قبل رحيلك، قالت. ومن قال لك إنّني مسافر؟ قلت. اتّجهت نحو الباب على نحو لا يدع مجالاً للشّكّ في أنّها سترمي سهماً. لا تجيد السّبّ إلّا وهي تهرب. لستُ عمياء، قالت. فتحت الباب وأوصدته دونها.

25- الفاوانيا: نباتٌ يُسمّى أيضاً عود الصّليب وهو نبات عشبيّ شبه متخشب له زهرة حمراء وأوراق خنجريّة.

نظرتُ إلى ابني. كان فمه مفتوحاً وعيناه مغمضتين. لقد خُتنتنا، قلت. تظاهر  
 بالغياب. هل أطلعت «مارتا» برحيلنا؟ قلت. لا، أجب. لم لم تفعل؟ قلت.  
 لم أرها، قال بسخرية. لكنّها صعدت للتو إلى غرفتك، قلت. كان الطبق إذاً  
 جاهزاً، قال. أحياناً يبدو لي أنّه يستأهلي لكنّه أخطأ حين لجأ إلى الطبق.  
 كان صغيراً وعديم تجربة فصرفتُ النظر عن إحراجهِ. حاول أن تقول لي  
 بدقّة ماذا تحسّ؟ قلت. بطني يؤلمني، قال. آلام في البطن! هل لديك حُمى؟  
 قلت. لا أدري، قال. استقم! قلت. كان يبدو كالمخبول. لحسن الحظّ أنا  
 من بين الذين يحبّون وضع النّقاط على الحروف. اذهب وابحث عن محرر  
 الدّققة، قلت، في الدّرج الثاني على يمين المكتب من الجهة العلوية. قس  
 حرارتك وأعطني المحرر. انتظرتُ بضع دقائق ثمّ أعدتُ كلمةً كلمةً ويأناةً  
 جملي الطويلة المُعقّدة التي تضمّ أقلّ من ثلاثة أفعال أمر. لمّا ابتعد  
 مُدركاً المهمّ بلا شكّ أضفتُ بمرح، تعرف في أيّ فم ستضعه؟ أنساقُ إلى  
 مزاح طوعيّ بطعم الشكّ مع ابني لغايات تعليميّة. غالباً هي دعابات لا  
 يتذوّق ملحها في الحال وهي كثيرة في الواقع. يمكنه دائماً تمحيص معانيها  
 براحة بال أو محاولة التوصل إلى تأويل معقول لها مع أقرانه الصّغار. إنّهُ  
 تمرين ممتاز في حدّ ذاته. وفي الآن نفسه أخزّ روحه الغصّة لتتبه إلى المسار  
 الأكثر خصوبة، أعني التفاصيل المُربّعة للجسم ووظائفه. لكنّي أخطأتُ  
 صياغة الجملة، كان يجدر بي القول، لا تُخطئ المدخل. راودني هذا النّدم  
 وأنا أفحص طبق الرّاعي من قريب. أرفع القشرة وألقي نظرة على ما في  
 داخله. أغوص فيه بشوكتي، أنادي «مارتا» وأسألها إن كان كلبها لا يرغب.  
 استحضرتُ ذلك مُبتسماً في مكتبي الذي لا يحتوي سوى على ستّة أدراج،  
 ثلاثة من كلّ جانب فارغ حيث أمدّ ساقِيّ. بما أنّ عشاءك غير قابل للأكل،  
 لتكرّمي بتحضير صندوق سندويشات بما زاد عن حاجتك من الدّجاج. عاد  
 ابني أخيراً. من الضّروريّ أن يكون لدى المرء محرر الدّققة. سلّمني إيّاه.  
 هل نظّفته على الأقلّ؟ قلت. لمّا لاحظتُ أنّي أجتهد في قراءة مؤشّر الزّئبق  
 راح إلى الباب وأضاء النّور. كم كان «يودي» بعيداً في تلك اللّحظة. أحياناً  
 في الشّتاء أعود منهكاً متعباً بعد يوم طويل من التسوّق غير النّاجع فأجد نعلِيّ

قرب النار مستقبلاً اللهب بمقدّمته. كان لديه الحُمى. أنت بخير، قلت. هل يمكنني أن أصعد؟ قال. لماذا؟ سألتُه. لأنام، قال. هنا ألسْتُ إزاء ظرف قاهر يتشكّل رويداً؟ دون شكّ لآتي لا أجروُ على التفكير في ذلك. لن أجلب نفسي الصّواعق على أيّ حال لسبب بسيط هو أنّ ابني لديه الإسهال. لو مرض في الطّريق بصورة جادة فسيكون أمراً مختلفاً. لن أدرس الوصايا القديمة لأجل الخوخ. هل خرات بُنيّ، قلت بحنان. حاولت، قال. لديك الرّغبة؟ قلت. نعم، قال. لكن لا شيء يخرج، قلت. لا، قال. ريح فقط، قلت. نعم، قال. ذكرني فجأةً بسيجار الأب «أمبرواز». أشعلته. سنجرّب هذا، قلتُ وأنا أنهض. صعدنا السّلم. حقته في شرحه بالماء المالح. قاوم لكن ليس طويلاً. سحبْتُ الإبرة. حاول الحفاظ عليه، قلت، لا تظلّ جالساً على الوعاء، تمدّد على بطنك. كنّا في الحمام. تمدّد على الأرضيّة. مؤخرته الكبيرة في الهواء. دعه يتغلغل، قلت. يا له من يوم. تأملتُ رماد السّيجار. كان أزرق وصارماً. جلستُ على حافة الحوض. الخزف والمرايا والكروم تُنزل في داخلي سكيّة كبيرة. هذا إذا كانت هي التي جعلتني أحظى بذلك. لم تكن سكيّة كبيرة في الواقع. نهضتُ. وضعتُ سيجاري وغسلتُ أنيابي وأضراسي أيضاً غسلتها في العمق. نظرتُ إلى نفسي. الشّفتان مُكَمّشتان. في الرّاحة شفتاي تدخلان في فمي. كيف أبدو؟ تساءلتُ. منظر شاربيّ يثير أعصابي. كالعادة نافران وفوضويّان. يلائمني الشّاربان. دونهما أنا غير معقول. لكن كان يُفترض أن يليقابي أكثر. يكفي أن أغيّر القِصّة. لكن أيّ قصّة، ليس ثمة قصّات كثيرة. الآن، قلتُ دون أن أتوقّف عن تفحص ملامحي، عُد إلى الوعاء وادفع جيّداً! ثمّ، أليس بسبب لونهما؟ صوتُ إفراغ عاد بي إلى هموم أقلّ حدّة. نهض مرتعشاً. أطللنا معاً على الوعاء. برهة ثمّ أخذته من مقبضه ورُحْتُ أمله على الجانبين، رقاقت مفتولة قليلة تسبح في سائل أصفر. كيف تريد أن تخرأ وبطنك خاوية؟ قلت. نوّه إليّ بأنّه أفطر. لم تلمس شيئاً، قلت. صمت. لقد سدّدتُ جيّداً. هل نسيت أنّنا سمرحل خلال ساعة أو اثنتين؟ قلت. لا أستطيع، قال. هذا يعني، قلت، أنّ عليك أكل شيء ما. ألم خفيف وخز ركبتني. ما بك أبي؟ قال. تركتُ نفسي أهوي على

السُّلَم. شَمَرْتُ بَنطُلُونِي، ونظرتُ إلى رُكْبَتِي. طَوَيْتُهَا وَمَدَدْتُهَا مَرَّاتٍ عَدِيدَةً. الإِيوُدُكُسُ<sup>(26)</sup> بِسُرْعَةٍ، قُلْتُ. أَنْتَ قَاعِدٌ فَوْقَهُ، قَالَ. نَهَضْتُ فَسَقَطَ الْبَنطُلُونُ إِلَى مَسْتَوًى كَأَحْلِي. فِي الْجَاذِبِيَّةِ هُنَاكَ مَا يَقُودُ إِلَى الْجَنُونِ الْكَلْبِيِّ. أَطْلَقْتُ زَيْبَرًا لَا بُدَّ أَنَّهُ تَنَاهَى إِلَى الْأَخْوَاتِ «السَّر». لَا بُدَّ أَنَّهُنَّ تَوْقِفْنَ عَنِ الْقِرَاءَةِ، رَفَعْنَ رُؤُوسَهُنَّ وَتَبَادَلْنَ النُّظَرَاتِ. لَا شَيْءَ. صَرَخَتْ فِي اللَّيْلِ. يَدَانِ هَرَمَتَانِ بِخَوَاتِمٍ، تَبْحَثَانِ عَنْ بَعْضٍ فِي عَجَلٍ. رَفَعْتُ بَنطُلُونِي ثَانِيَةً، لَفَفْتُهُ حَوْلَ الْفَخْذِ. رَفَعْتُ غِطَاءَ الْمَقْعَدِ حَيْثُ الْإِيوُدُكُسُ وَدَلَّكْتُ رُكْبَتِي. رُكْبَتِي مَلِيشَةٌ بِعِظَامٍ دَقِيقَةٍ تَتَحَرَّكُ. اجْعَلْهُ يَدْخُلُ عَمِيقًا، قَالَ ابْنِي. سَيَدْفَعُ ثَمَنَ ذَلِكَ لَأَحَقًّا. لَمَّا انْتَهَيْتُ مِنَ الدَّوَاءِ أَعَدَّتْهُ إِلَى مَكَانِهِ. سَوَّيْتُ الْبَنطُلُونُ، جَلَسْتُ عَلَى الْمَقْعَدِ وَأَصْخْتُ السَّمْعَ. لَا شَيْءَ إِلَّا إِذَا كُنْتُ تَرِيدُ أَنْ نَحَاوِلَ مَعَ مِقْيَةٍ آخَرَ، قُلْتُ، كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ. أَشْعُرُ بِالنَّعَاسِ، قَالَ. سَتَذْهَبُ إِلَى النَّوْمِ، قُلْتُ، سَأَحْمِلُ لَكَ وَجِبَةً خَفِيفَةً إِلَى الْفَرَاشِ، سَتَعْجَبُكَ، سَنَامٌ قَلِيلًا ثُمَّ سَنَرْحَلُ سَوِيًّا. ضَمَمْتُهُ إِلَى صَدْرِي. مَا رَأَيْكَ؟ قُلْتُ. قَالَ نَعَمْ أَبِي. هَلْ كَانَ يُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ أَحِبُّهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ؟ لَا أَحَدٌ يَدْرِي مَعَ هَذَا الْخَبِيثِ الصَّغِيرِ. اذْهَبْ إِلَى النَّوْمِ بِسُرْعَةٍ، قُلْتُ، تَذَرُ جَيِّدًا، سَأَلِحَقُ بِكَ حَالًا. نَزَلْتُ إِلَى الْمَطْبَخِ، جَهَّزْتُ كُوبَ حَلِيبٍ سَاخِنٍ وَزُبْدَةً وَمَعْجُونًا فِي طَبَقِ الْبَرْنِيقِ الْجَمِيلِ. يَرِيدُ تَقْرِيرًا. سَيَحْصُلُ عَلَى تَقْرِيرِهِ. «مَارْتَا» تَرَاقِبْنِي دُونَ أَنْ تَنْبَسَ بِكَلِمَةٍ. كَانَتْ تَتَأَرْجِحُ عَلَى كَرْسِيِّهَا الْهَزَازِ. إِنَّهَا تَبْدُو كَحَائِكَةِ أَقْدَارِ<sup>(27)</sup> يَعُوزُهَا الْخِيطُ. أَعَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى طَبِيعَتِهِ وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ الْبَابِ. هَلْ يُمَكِّنُنِي الذَّهَابُ إِلَى النَّوْمِ، قَالَتْ. انْتَضَرْتُ حَتَّى أَنْتَصِبَ وَاقِفًا بِطَبَقٍ فِي يَدَيَّ كَيْ تَسْأَلَنِي هَذَا السَّوَالُ. خَرَجْتُ وَضَعْتُ الطَّبَقَ عَلَى كَرْسِيِّ أَسْفَلَ السُّلَمِ وَعَدْتُ إِلَى الْمَطْبَخِ. هَلْ جَهَّزَتِ السَّنَدُوشَاتُ؟ قُلْتُ. فِي الْأَثْنَاءِ كَانَ الْحَلِيبُ يِيرِدُ وَقَشْرَةُ مَقْرُوزَةٍ بَدَأَتْ تَتَكَوَّنُ عَلَى سَطْحِهِ. جَهَّزْتُهَا، قَالَتْ، وَالْآنَ أَنَا ذَاهِبَةٌ إِلَى النَّوْمِ لِأَنَّ النَّاسَ يَنَامُونَ.

26- الإِيوُدُكُسُ: مُسْتَحْضَرٌ طَبْخِي وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَرْهَمٍ مُطَهَّرٍ.

27- حَائِكَةُ الْأَقْدَارِ: كَلِمَةٌ مِنْ أَصْلِ لَاتِينِي وَتَعْنِي فِي الدِّيَانَةِ الرُّومَانِيَّةِ أَوِ الْأَسْطُورَةِ الرُّومَانِيَّةِ سَيِّدَاتِ الْأَقْدَارِ وَالْمَصَائِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَيُرْمَزُ لِبَهْنٍ بِنِسَاءِ حَائِكَاتِ يَدَوِيَّاتِ الْإِبْرَةِ وَالْخِيطِ، يَقْسُنَ أَعْمَارَ النَّاسِ وَيَقَرِّرْنَ مَصَائِرَهُمْ.

عليك الاستيقاظ خلال ساعة أو ساعتين، قلت. هي وحدها من يقرر في هذه الظروف إن كان النوم مجدياً. سألتني عن الفترة التي سأنغيها. هل لديها علم يأتي لن أرحل وحدي؟ بلا شك. عندما صعدت لتطلب من ابني النزول، لا بُدَّ أنها لاحظت حقيقة الظاهر. لا أدري، قلت. ثم وأنا أفكر في شيخوختها بل أقطع، في مُضيها نحو الشيخوخة، وحيدة وكثيبة قلت، لا بأس لن يطول ذلك. وحدثتها بعبارات حارة في نظري. طلبت منها أن ترتاح جيداً خلال غيابي. وأن تسري عن نفسها بزيارة الصديقات واستقبالهن. لا تدخري الشاي أو السكر ولو حدث واحتجت إلى المال فما عليك سوى اللجوء إلى السيد «سافوري»، واسترسلت في طقس الود إلى درجة أنني صافحتها. مسحها بمنديلها حالماً فهمت نواياي. ولما انتهت من مُصافحتها لم أترك تلك اليد الحمراء الطرية. بل ظلمتُ أمسك بإصبع سحبه ناحيتي وتأملت. لو أنّ لي دموعاً لكنّ ذرفت بها بغزارة مدة ساعات. تساءلتُ حتماً ما إذا كنتُ سأدعوها إلى أمر مُخزٍ. تركتُ يدها. أخذتُ السندويشات وغادرتُ.

مضى وقت طويل و«مارتا» في خدمتي. كنتُ في سفر دائم. لم يسبق أن ابتعدتُ عنها بهذه الطريقة. كان يحدث ذلك بعفوية حتى لو كانت المدة التي سأغيبها طويلة. وهو ما لم يحدث في ذلك الأحد.

أحياناً أرحل دون أن تسمع مني كلمة واحدة. قبل دخول غرفة ابني دخلتُ غرفتي. كنتُ لا أزال أحافظ على السّجار في فمي. لكنّ الرّماد الجميل كان قد سقط في مكان ما. لمتُ نفسي على قلة الحرص. ذوّبتُ في الحليب مسحوقاً منوماً. لن أسمح له بشيء. رحّطُ إليه بطبقي حين وقعت عيناك على الألبومين موضوعين على مكثبي. تساءلتُ ما إذا كان مناسباً أن أراجع في شأن التّحجير. أقصد على الأقلّ الألبوم الصّغير. منذ قليل قدم إلى هنا ليجلب المحرّار. أطلال المكوث. هل يُعقل أن يكون قد انتهر الفرصة ليستولي على بضعة طوابع من تلك التي يُفضّلها؟ لم يكن لَدَيَّ الوقت الكافي لأحقّق. وضعتُ الطّبق واستغرقتُ أبحث عشوائياً عن بعض الطّوابع، الطوغولي

القرمزي من فئة المارك بسفينته الجميلة النياسا<sup>(28)</sup> من فئة العشرة رئيس لسنة 1901 وأخرى. أحبّ النياسا كثيراً. كان أخضر ومرسوماً عليه زرافة تأكل من قمة نخلة. جميعها كانت في أماكنها. غير أنّ هذا لا يثبت شيئاً. إنّه لا يثبت سوى أنّ تلك الطّوابع بالذّات كانت في أماكنها. وثبتّ لي أنّي لن أترجع عن قراري الذي اتّخذته بحريّة وأعلنت عنه بوضوح إلّا إذا انتقص شيء من نفوذي، الأمر الذي لم يكن قائماً ولا هو قابل للتحمّل. لديّ ندم. ابني ينام. أيقظته. أكل وشرب. سحته تُقرّز. كانت تلك هي طريقته ليشكرني. انتظرتُ حتّى اختفت آخر قطرة وآخر فتات خبز. استدار إلى الحائط وغطّيته. كنتُ على وشك تقبيله. لم نطق بحرف. لسنا في حاجة إلى كلام في الوقت الحالي. على كلّ كان من النّادر أن يبادرني بالكلام. وإذا حدّثه فإنّه عادة يجيئني بثقل وبطريقة يبدو معها مرغماً على الرّد. بينما حين يكون مع رفاقه ظناً منه أنّي بعيد فإنّه يستمتع بشكل لا يُصدّق. كوني أطفئ مرحه بوجودي هو أمر أضعف بكثير من أن يزعجني. أن تصمت وتصغي، ما من أحد في المئة من البشر قادر على القيام بذلك، إنّه حتّى عاجز عن فهم ماذا يعني أن تصمت وتصغي. مع ذلك وراء الضجّة الغيّة يكمن الصمت الذي انبثق منه الوجود. أدّخر هذا الكنز لابني ليبقى في منأى عن أولئك الذي يفتخرون بأنهم يحسنون فتح أعينهم على اتّساعها. لم أقاوم وأتعبّ وأعاني وأخلق ظرفاً معيئاً وأعيش كبابينجا<sup>(29)</sup>، ليقترف ابني عملاً مشابهاً في نهاية الأمر. انسحبتُ على أصابع قدمي. سأؤدّي دوري عن طواعية حتّى آخر رمق.

ما دمْتُ قد أحرْتُ المهلة، هل عليّ أن أعتذر وأنا أعلن ذلك؟ أصرف النّظر وأترك هذا المقترح للصدفة دون أن أهتمّ بأيّ تدبير آخر. لأنّي وأنا أسرد

28 - النياسا: وردت معرفة باللسان الفرنسي، يُقصد بها هنا الطّوابع البريدية المعتمدة سنة 1901 في دولة الموزمبيق تحت الاحتلال البرتغالي. والرئيس عملة برتغالية.

29 - بابينجا: قبائل أفريقية لا يتجاوز عدد أفرادها خمساً وثلاثين ألف نفر، تعيش القبيلة في الجنوب الغربي للكونغو وجنوب الكاميرون وفي أماكن من الغابون. وهي قبائل ما زالت تعيش حياة البريّة في الغابات محافظة على نمط عيش أجدادهم الأوائل، ويعتمدون في البقاء على الصّيد والقطف.

وقائع تلك الليلة أعيشها من جديد وأحشوها بالحياة القلقة العميقة، لسبب واحد هو أن أتمل وأفلح في عدم القيام بما عليّ فعله. هكذا رفض تفكيري مولوي. ريشني أيضاً، في تلك الليلة. منذ فترة وهذا الاعتراف يشغلني. لا يُخفف عني أبداً. أفكر بنوع من الرضا المشحون بالمرارة في ابني، ماذا لو مات في الطريق. مؤكد أنني لستُ من أراد ذلك. لكل منا مسؤولياته.

أقر بأنها لا تمنع من النوم، قلتُ في نفسي، وإن شيئاً ما في هذا البيت يمنع المرء من القيام بأي عمل. رجلٌ مثلي لا يمكنه أن ينسى خلال تهربه ممّا كان يهرب. نزلتُ إلى الحديقة أُنزّه في العتمة الكاملة تقريباً. الحديقة لم تكن مألوفة بالقدر الذي هي عليه بناتي أو خلية نحلي. انطفأ سيجاري دون أن أنفطّن. حرّكته وأدخلته في جيبي في نية رميه في المنفضة أو في مهملات الأوراق لاحقاً. لكن في اليوم الموالي على عكس الحشيش وجدته في جيبي بصورة لا تخلو من الرضا، الحق يُقال. لأنّ في استطاعتي سحب بعض الأنفاس. أن أحسّ برودة السيجار تحت أسناني، بصق التبغ، البحث عنه في الظلام، التقاطه، التساؤل عمّا يجدر فعله، وضعه في الجيب، إحضار المنفضة وسلّة مهملات الأوراق، كلّها ليست سوى الحلقات الرئيسة لمتالية أجعلها تدوم ربع ساعة على الأقل. آخرون قد يعولون في ذلك على الكلب «زولو» أو على العطر الذي ستضاعف المطر من انتشاره والذي أجد متعة في البحث عن مصدره. على الضوء عند ذاك الجار، على الصخب عند الآخر وهكذا دواليك. نافذة ابني كانت بالكاد مُضاءة، يحبّ النوم وعلى جانبه سّهارة تضيء. عاتبْتُ نفسي قليلاً على تجاوز طيش كهذا. مضى وقت منذ لم يعد قادراً على النوم إلّا إذا احتضن دبه المخملي بين ذراعيه. يوم ينسى الدبّ (جانو) سأزيل عنه السّهارة. ماذا كنتُ سأفعل في ذلك اليوم دون نزع ابني؟ واجبي ربّما.

لما أدركتُ أنني لستُ حريصاً على حديقتي مثلما هو الشأن بالنسبة إلى البيت، حدّثتُ نفسي قائلاً، لا البيت والحديقة ينتميان إلى مخلوقات الإبادة التي أنتمي إليها، إلّا إذا كان عليّ أن أوجّه أسهمي إلى جميع ما أملك.

انطلاقاً من هذه الفرضية يجب أن أعذر عن كل ما فعلته من قبل وعن كل ما سأفعل لاحقاً وصولاً إلى رحيلي الوشيك. إنها تمنحني ما يشبه العفو ولحظة حرّة زائفة. لذا تبنيتها.

من بعيد لاح لي المطبخ عائماً في الظلام، على نحو ما كان ذلك صحيحاً. لكن من ناحية أخرى لم يكن ذلك صحيحاً تماماً. لآتي حين ألصقتُ عينيّ على البلّور لاحظتُ ضوءاً أحمرّ خافتاً لا يمكن أن يكون مصدره الفرن، فأنا لا أملك فرنّاً بل موقدَ غاز، لو شتم هو فرن، لكنّه فرن غاز. في الحقيقة أملك فرنّاً فعليّاً، غير أنّه مهمّل. ماذا نصنع؟ منزل ليس فيه فرن غاز لا أشعر فيه بالراحة. أحبّ الليل. أقطع جولتي. أقرب من التوافذ مضاءة أم غير مضاءة. ألقي نظرة على الغرف كي أرى ماذا يحدث. غطيتُ وجهي براحتيّ ونظرتُ من خلال أصابعي. باغتُ أكثر من جار بهذه الطريقة. يسرع لاستطلاع الأمر فلا يجد أحداً. الحُجرة الأكثر عتمة وتكتّمًا تفصح لي عن نفسها من الظلّ خارجة من ضوء النهار الذي لا يزال يغمرها أو من مصباح يُطفأ للتوّ لأسباب نسبيّاً لا يجوز إفشاؤها. لكن وميض المطبخ كان من نوع آخر ومصدره السّهارة ذات الكرة الحمراء التي كانت دائماً وأبداً تضيء في غرفة «مارتا» تحت مجسم خشبيّ للعذراء مُعلّق على الجدار. لما سئمت من التّأرجح غادرت المطبخ إلى فراشها تاركة باب غرفتها موارباً حتّى لا تفوتها أصوات البيت. لكن لعلّها نامت. صعدتُ إلى الطّابق، توقفتُ أمام باب ابني، انحنيتُ وألصقتُ أذني على القفل. أدهشني آتي لم أسمع شيئاً. فابني ينام مفتوح الفم ويشخر. طردتُ فكرة فتح الباب لأنّ هذا الصّمت سيشغل بالي مدّة طويلة. ذهبتُ إلى غرفتي. هكذا إذن جرت الأمور على نحو غير مسبوق. «موران» يتأهب للرّحيل جاهلاً كلّ شيء عن المغامرة التي ينوي خوضها، لم يستأذن الورق<sup>(30)</sup> ولا المؤشّرات ولم يدرس الطّريق والمراحل غير عابئ بأحوال الطّقس غير متسلّح سوى ببعض الأفكار المُشوّشة حول الأدوات التي عليه اصطحابها معه نسبة إلى المدّة التي سيستغرقها الاكتشاف،

30- الورق: يُشار بالورق هنا إلى قراءة الطالع بالورق.

والأموال التي سيحتاج إليها وطبيعة العمل الذي عليه أن يؤديه والمسائل التي سيستخدمها. أخذتُ أصفرَ وأنا أرتب داخل جرابي أشياء تشبه تلك التي أمرتُ ابني بأخذها. أعدتُ ارتداء بذلة الصيد الرّقشاء القديمة وكيلوت قصيراً تُقفل أزواره تحت الرّكبة بقليل وسروالاً داخلياً منسجماً وحذاءً قوياً أسودَ بقصبة صاعدة. ملتُ واضعاً يديّ على مؤخرتي أنظر إلى ساقيّ، باردتين ومُصابتين بالصدف<sup>(31)</sup>، غير متكيّفتين جيّداً مع هذا اللباس الهزليّ الذي لا أحد يعرفه في القرية. لكن حين أخرج في الليل صوب وجهة بعيدة فإنّي ألبسه بإرادتي كنوع من التبرّز في الفراش<sup>(32)</sup>. لا تنقصني سوى شبكة فراشات لأبدو بشكل صارخ كمعلّم ريفيّ في إجازة نقاهة. الجزمة الثّقيلة بلونها الأسود البراق التي تترأى كأنها تتضرّع للبسطلون الصوفيّ الأزرق البحري، جاد بفضلها على المجموعة. لولاه لبدا لباسي للناس سيئ الذّوق. كغطاء أضعه على رأسي، قرّرتُ وضع قبة تبن الأرزّ المُصفرّ من المطر. ففدّت سفيقتها فبدت طويلة جدّاً. وراودتني رغبة في أخذ الوشاح الأسود. لكنّ ابني فضّل أخيراً المطريّة الشتويّة ذات المقبض الضّخم. الوشاح لباس عمليّ ولديّ منه الكثير. إنّه يترك لليدين مُطلق الحرّية وفيّ آني هو يخفيهما. ثمة مناسبات يكون فيه الوشاح لازماً. للمطريّة أيضاً ما يُميّزها. لو أنّ الفصل شتاءً أو حتّى خريفاً بدل الصّيف لكنّْتُ حملتُ كليهما معي. حدث ذلك من قبل، والحقّ أنّي ما زلتُ أهنيء نفسي على ذلك. معاً لم أكن لأحافظ على سرّيتي، أكره ذلك. أن تلفت الانتباه في مهنتنا هو طفولة الفنّ، علينا أن نثير مشاعر الشفقة والصّفح ونبعث على البهجة والسّخريّة. إنّه أمر محتّم. كم من الثّقوب اللّولبيّة في ساق الأسرار. لكن شرط أن لا تتحرّك عاطفتنا أو نتقد أو نضحك. راقت لي وضعيتي تلك. ثمّ هاهو اللّيل.

ابني لا يصنع شيئاً سوى مُضايقتي، يشبه ألف ولد في سنّه ووضعه. الأب

31- الصّدْف: من فعل صدَفَ، وصدف الرّجل أي أقبلت إحدى ركبتيه على الأخرى.

32- التبرّز في الفراش: العبارة في العاميّة الفرنسيّة يُلَمَح بها إلى الانفلات والهمجيّة والفوضى.

أكثر جدية من الأبناء. حتى لو كان فقط فهو يظهر نوعاً من الاحترام وحين نراه في نزهة مع ولده الصغير ذي الوجه الآخذ بالطول، عندها لا يعود هناك مجال للعمل. سيذهب في الظن أنه أرمل، الألوان الزاهية لن تزيد سوى من تأزم موقفه، فقد تُعزى إليه زوجة ماتت منذ زمن بحفاظات على الأغلب. ولن يجدوا في شذوذي سوى نتيجة طبيعية لترملي الذي تسبب لي في خفة العقل. انتابني إحساس بالغضب إزاء الذي فرض عليّ إعاقة مماثلة. كانوا يفضلون أن أفشل على أن يبلوا البلاء الحسن، لو كانوا مكاني. لو استطعت التفكير بدمي البارد المعتاد في العمل الذي طُلب مني لكنّ ربّما حكمتُ بأنّه من النوع الذي يسهل كثيراً بوجود ابني أكثر من كونه بسبب العذاب. لكن لن نعود إلى تلك النقطة.

ربّما قدّمته على أنّه مساعدٍ أو ببساطة ابن أختي. سأمنعه من مناداتي أبي. أو أن يظهر عاطفة تجاهي أمام الآخرين بغية الاحتماء بي من أصواته التي يخافها جداً.

وكوني أصغر بعض النوات من وقت إلى آخر وأنا أدير هذه الأفكار الكثيرة في رأسي فلاّتي سعيد في أعماقي بمغادرة المنزل والحديقة والبلدة، أنا الذي عادة لا أغادرها إلّا مغموراً بالأسف. هناك أناس يصفّرون دون سبب. لست منهم. وبينما أروح وأجيء في غرفتي أجري النظام، أرتب ملابس في الخزانة والقبّعات في صناديقها بعدما كنتُ قد أخرجتها لأختار واحدة من بينها بكلّ حرّية وأقفل الأدراج بالمفتاح. أثناء ذلك الوقت كنتُ سعيداً وأنا أتخيّل نفسي بعيداً عن ضيعتي وعن الرّؤوس المألوفة وعن المراسي التي تشدني، جالساً على حافة في ركن مظلم، الساقان متقاطعتان، يد على فخذي، وهي تحضن مرفقي والدّقة على يدي الأخرى. العيان تحدّقان في الأرضية كما لو أنّها رقعة شطرنج، أضع خططي ببرود، خطّة للغد وأخرى للذي يليه راسماً المستقبل، ناسياً أنّ ابني سيكون إلى جانبي مضطرباً شاكياً محتجاً على الأكل والنوم، ملوّثاً ملابسه الداخلية. فتحتُ درج المنضدة وأخذتُ أنبوباً كاملاً من أقراص المرفين. مُسكّني المُفضّل.

حافضة مفاتيحي هائلة، تزن أكثر من رطل. ما من باب أو درج في منزلي إلا ومفتاحه يرافقني حيثما ذهبت. أحملها في الجيب الأيمن لبنتلوني وفي جيب الكيلوت في حالات مُعيّنة. سلسلة كبيرة مشدودة إلى حمالة بنتلوني تمنعها من أن تضيق مِنِّي. هذه السلسلة أربع أو خمس مرّات أطول ممّا ينبغي، تستقرّ مفتولة في جيبي فوق الحافضة. الوزن يجعلني أميل إلى اليمين حين أكون مُتعباً أو حين أنسى أن أعوّضه بمجهود عضليّ.

ألقي نظرة أخيرة حولي. يخطر لي أنّي أهملتُ بعض الاحتياطات فأنداركها. أخذ جرايبي، كدتُ أكتب فيشارتي، وقبعة البحريّة والمطريّة. أمل أن لا أكون قد نسيْتُ شيئاً. أطفأ النّور، أخرج إلى الممرّ وأقفل الباب بالمفتاح. الأشياء واضحة هكذا. أسمع صوت اختناق. إنّهُ ابني ينام. أيقظتُهُ. لا نملك لحظة واحدة نُضَيّعها، قلت. انتشل نفسه من النّوم بيأس. هذا طبيعيّ. ساعات قليلة من النّوم حتّى لو كان ثقيلاً كالرّصاص لا تكفي جسماً بالكاد بلغ. نال منه عسر الهضم. هزّزته وساعدته على النهوض من الفراش ساحباً إياه من ذراعيه في البداية ثمّ من شعره. أفلت مِنّي واستدار إلى الحائط مسعوراً وغرز أظفاره في الحاشية. كان عليّ استدعاء كلّ ما أملك من قوّة لآسِطر على مقاومته لي. لكن ما إن نجحت في إخراجه من الفراش حتّى استلقى على الأرض وراح يتدحرج صارخاً بغضب وثورة. ها قد بدأت المشاكل. أمام هذه القوّة المارقة التي أبداها وجدّني عند ضرورة استخدام مطريّتي مُمسكاً إياها بكلتا يديّ. لكن، كلمة بخصوص قُبعتي البحريّة البيضاء قبل أن أنسى. الحوافّ مثقوبة من الجهتين بالطّبع. فمتُ بذلك وحدي بواسطة مثقاب. في كلّ ثقب ثبّتُ طرف خيط مطاطي طويل كفاية ليتخطّى ذقني. أسفل فكّي بالأحرى، لكن ليس طويلاً جداً فقد كان عليه أن يوائم أسفل فكّي على نحو يجعل القُبعة ثابتة دائماً في مكانها الذي هو رأسي مهما كانت تشنّجاتي العضليّة وحركة عظامي. ألا تستحي، صرخت؟ عديم تربية مقرّف! كنتُ سأنزلق في الغضب لولا أنّي انتبهتُ أخيراً. الغضب رفاهية لا أسمح بها لنفسي. لآتي عندما أصاب به

أصير أعمى. ستارة من الدّم تحجب عني النّظر كما هو الشّأن بالنسبة إلى غوستاف العظيم<sup>(33)</sup>. أسمع صرير المقاعد في محكمة الجنايات. أوه، أن نكون لطفاء ومُتأدّبين وصبورين يوماً بعد يوم سنة بعد أخرى دون أن نتخذ إجراء عقوبة في إحدى المرات. رميتُ مطرّتي وأسرعْتُ خارج الغرفة. في السّلم اعترضتني «مارتا» تصعد، لم تكن تضع غطاءً على رأسها، شعرها متناثر وملابسها فوضويّة. ماذا يحدث؟ صرخت. حدّثْتُ فيها. عادت إلى مطبخها. ركضتُ مرتعشاً نحو المكان الذي أودع فيه الأدوات. أخذت الفأس وخرجتُ إلى السّاحة، هناك رحْتُ بذراع مُتردّدة أضرب جذعاً قديماً يقف هناك في سلام، اعتدْتُ خلال الشّتاء قطع الخشب فوقه على أربعة أجزاء. غاص الفأس في الجذع عميقاً حتّى لم أستطع فكّه. الجهود التي قمتُ بها إضافة إلى الإنهاك منحتني الهدوء. صعدتُ إلى الطّابق. كان ابني يلبس ثيابه باكياً. الكلّ يبكي. ساعدته على حمل حقيبة ظهره. قلتُ له بأن لا ينسى معطفه الواقى من المطر. وضعه في الحقيبة. طلبتُ منه أن يتركه فوق ذراعه في الوقت الحالي. إنّه منتصف الليل تقريباً. أخذتُ مطرّتي. إنّه سليمة. تقدّم، قلت. خرج من الغرفة ورحتُ أتأملها برهة قبل اللّحاق به. فوضى عارمة خيّمت. في الخارج الجوّ جميل حسب رأيي المتواضع. الهواء مُحَنّط. الحصى يقطط تحت أرجلنا. لا، قلت، من هنا. اتّخذنا دربنا في البستان، خلفي ابني يتعثّر ويجعلني أرتطم بالأغصان. لا يُحسن المشي في السّواد. كان لا يزال شابّاً وعبارات اللّوم ماتت على شفّتي. توقّف. خذ يدي، قلت. كان في وسعي القول هات يدك. قلتُ خذ يدي. غريب. لكنّ المسلك ضيق جدّاً كي يمرّ فيه كلانا مُتقدّمين بوجهينا. أحطتُ ظهر ابني بيدي إذن. أمسك به بامتنان، أظنّ. وصلنا إلى بوّابة الحديقة، كانت الكوّة مُغلقة بالمفتاح. فتحتها وانزويْتُ كي يعبر ابني أولاً. استدرتُ إلى المنزل. كان البستان يُغطّي جزءاً منه. القمّة المُسنّنة للسقف، المدخنة الوحيدة ذات

33 - غوستاف العظيم: هو ملك السويد وُلد سنة 1594 ومات مقتولاً. استطاع غوستاف المُكثي الكبير خلال حكمه تحويل السويد بفضل عبقريته وحكمته العسكريّة إلى قوّة أوروبية مهية.

الأنابيب الأربعة، تبدو كأنها تحرّرت معانقة سماء ذات نجوم غارقة وأخرى سائلة. سلّمتُ وجهي لهذه الكثافة النباتية السوداء المُعطرة التي هي ملكي والتي في وسعي دائماً أن أصنع فيها ما أشاء دون أن يجرؤ أحد على التعليق بكلمة. كانت مليئة بالعصافير الشّادية، برؤوسها تحت أجنحتها. لا تخشى شيئاً فهي تعرفني. أظنّ أنّي أحبّ أشجارتي وشجيراتي ونباتاتي والعشب القصير. إن كنتُ أحياناً أقلّم بعض الأغصان من هنا وزهرة من هناك فلغائدتها كي تنمو قويّة وسعيدة. لكنّي لا أفعل إلاّ بقلب منقبض. أساساً لم أكن أفعل بل أجعل «كريستي» تفعل. لم أكن أزرع الخضروات. وقرن الدّجاج لم يكن بعيداً. كذبتُ في شأن الديك الرومي إلخ. لا أملك سوى بعض الدّجاجات. الدّجاجة الرّمادية كانت دائماً هناك. ليست فوق العمود مع الأخريات. بل على الأرض في ركن وسط الغبار تحت رحمة الجرذان. الديك لم يكن يقفز فوقها باعتداء. يكاد النّهار يطلع. إن لم تستجمع قواها وتلتحق ببقية الدّجاج سيّحدون لقتلها ضرباً بالمناكير والمخالب.

صمتُ مطبق يلفّ المكان. سمعي حادّ جداً. لكنّي لستُ موسيقاراً. ألنقط هذا الصّخب اللذيذ للوطء والأجنحة العصيّة والخضن المُختنق الخفيف الذي يضجّ به القرن ليلاً والذي ينتهي بانبلاج الصّبح. كم من المساءات استغرقتُ أسمع به بمتعة كبيرة قائلاً في نفسي، غداً أنا حرّ. هكذا استدردتُ للمرّة الأخيرة إلى ممتلكاتي الصّغيرة قبل أن أفارقها أملاً الحفاظ عليها في ذاكرتي. لمّا خرجنا إلى الطّريق، أقفلتُ البوّابة بالمفتاح، وقلتُ لابني، على اليسار. منذ وقت طويل توقّفتُ عن اصطحاب ابني في جولة رغم الرّغبة الملحّة أحياناً. التّزهة معه حتّى لو كانت قصيرة، كانت بالنّسبة إليّ نوعاً من التعذيب، لشدّة خلطه بين الاتّجاهات، لكن حين يكون بمفرده فإنّه على الأرجح يعرف الطّرق المُختصرة. عندما أرسله إلى البقالة أو إلى السيّدة «كليمون» أو أبعد على الطّريق V ليأتيّني بالحبّ، فإنّه يعود قبل انقضاء نصف الوقت الذي أنجز فيه المسافة نفسها، دون أن يجرى. لا أحبّ أن يلاحظ ابني وهو يلهو في الطّريق كالأوغاد الذين يخالطهم خلصة عنيّ.

كلّا. أريده أن يمشي مثلي بخطوات متلاصقة سريعة، مرفوع الرأس، بأنفاس مقتصدة متساوية، وهو يؤرجح ذراعيه ولا ينظر إلى اليمين ولا إلى اليسار، كأنه لا يرى شيئاً فيما في الواقع يكون متنبهاً ولا تفوته أدق التفاصيل في الطريق. لكن معي هو دائماً يتخذ المسار الخطأ. لا شيء يتغير. إذ يكفي أن نصل إلى مستوى مفترق أو تقاطع طرق كي يحيد عن الخط الصحيح الذي رسمته. لا أظنه يفعل متعمداً. وبما أنه يُعَوّل عليّ فهو يتخلّى عن الانتباه لما يفعل، لا ينظر إلى وجهته، يتقدّم فقط كالألة غارقاً في ما يُشبه الحلم. إلى حدّ يبدو معه أنه يمضي مستسلماً للمسارب التي تجعله يختفي. حتّى إنّنا اعتدنا أن يتنزّه أحدنا دون الآخر. الجولة الوحيدة التي تجمعنا بانتظام هي التي تقودنا يوم الأحد من البيت إلى الكنيسة ومن الكنيسة إلى البيت بعد انتهاء الصلاة مأخوذاً إذن بالمدّ الطويل للمخلصين لا يعود ابني وحيداً بصحبي، بل واحداً من قطيع منصاع يذهب مرّة أخرى ليشكر الربّ على نعمه ويتضرّع طالباً الصّفح والرّحمة ثمّ بعد ذلك يعود بروح مطمئنة نحو تلييات أخرى.

انتظرتُ عودته على أعقابه والنطق بالكلمات الخاصّة بهذه المواقف. ستّخذ لك مكاناً خلفي وستّبعني، قلت. كان حلاً مناسباً من عدّة أوجه لكن هل كان قادراً على المشي إثري؟

ألن تأتي اللّحظة الفظيعة التي سيرفع فيها رأسه ليجد نفسه وحيداً في مكان مجهول، وحيثُ عائداً من أفكاري أستدير فلا أجده؟ خطر لي لوهلة بنوع من اللّهُو بالأفكار أن أربطه إليّ بحبل طويل، طرفاه معقودان حول خصرينا. ثمة العديد من طرق لفت الانتباه ولستُ متأكّداً ممّا إذا كانت هذه واحدة من بين أنجعها. وربّما فكّ العقدة في صمت ليتيه في المدى تاركاً إيّاي أو اصل الطّريق وحدي متبوعاً بحبل طويل أثير به الغبار من خلفي وأنا أجّره كبرجوازي من الـ «الكاليه»<sup>(34)</sup>. إلى أن تحين اللّحظة التي يعلق فيها الحبل بشيء ثابت أو ثقيل فيقطع اندفاعي، هذا يعني أنه من الضّروريّ

استخدام سلسلة بدل الحبل الرخو الصّامت. الأمر الذي لا ينبغي التفكير فيه. لكنني فكرت فيه. أمرٌ مُسلٍّ للغاية، تصوّروا ذلك. تخيلت نفسي في عالم أقلَّ شراً ممّا هو عليه وأنا أبحث عن الوسيلة الأفضل لأكبّل ابني بالسّلاسل حتّى لا يتيه عني أثناء مسيرنا، وليس في حوزتي سوى سلسلة بسيطة بلا قيد أو طوق أو أصفاد أو حديد من أي نوع. كان مجرد إشكال متعلّق بالعقد وكنت سأحلّه لو لزم الأمر. لكن سرعان ما لاحت لي صورة ابني يمشي، إنّما ليس خلفي بل أمامي. هكذا سيكون في وسعي أن أجعله أمام عيني وأن أتدخل عند أدنى حركة في غير محلّها. لكن فضلاً عن الأدوار التي عليّ القيام بها سيكون بين واجباتي خلال هذه الرحلة أن ألعب دور الحارس أو مرافق المريض. لن أقبل مجرد فكرة أن لا أتقدّم خطوة قبل تفقد هذا الجسم الصّغير الكتيب البدين. تعالى إلى هنا! صرخت. إذ بمجرّد سماعي أقول بأننا ستّجه يساراً اتّجه ناحية اليسار كأنّه يكنّ رغبة في الإلقاء بي خارج نفسي. متكبّناً على المطرية، رأسي مائل كأنّي أرزح تحت لعنة، أصابع يدي الحرّة مرّت بين ظلفتي البوّابة، لا أنتحرّك كأنّي تمثال. عاد أدراجه. قلتُ لك اتبعني وها أنت ذا تسبقني، قلت. كانت العطلة الكبيرة. قُبعت التلميذة مُطرزة من الأمام باللون الذهبي. أحرف اسمه الأولى ورأس أبل أو خنزير. كانت موضوعة فوق رأسه الأشقر الضّخم بدقّة غطاء قارورة. هكذا يحلوه حملها. ثمّة لا أدري ماذا في هذه الأغطية التي توضع بثقة هكذا. ما يكسبها من موهبة إحباطي الكثير. أمّا بالنسبة إلى معطفه الواقى من المطر فبدل أن يحمله مطوياً على ذراعه، لفّه ككرة وضّمّه إلى بطنه بكلتا يديه. كان أمامي، قدماه الكبيرتان منفرجتان. الرّكبتان مشيتان، بطنه إلى الأمام، صدره إلى الوراء، ذقنه في الهواء وفمه مفتوح كغبيّ حقيقيّ كبير. أنا أظهر كأنّي أفقد بفضل المطرية وأصابعي المرتكزة على البوّابة. الآن يمكنني التحرك. هل أنت قادر على السير خلفي؟ لا يُجيب. لكنني قرأت أفكاره كأنّه نطق بها فقد قال في نفسه، وأنت هل أنت قادر على قيادتي؟ دقّت أجراس منتصف اللّيل في كنيسة العزيزة. لا بهمّ. لستُ في بيتي. أفشّ داخل عقلي حيث يوجد كل ما أحتاج إليه. لا بدّ أنّه حمل معه جميع الأشياء المُحبّبة إليه. أتمنّى

أن لا تكون قد نسبت سكين الكشافة. قد نحتاج إليه، قلت. هذا السكين عدا الشفرات الخمس أو الست ذات الاستخدام الأولي يحتوي على فاتح سدادات وفاتح علب ومثقاب ومفك ومطرقة ولا أدري أي تفاهات أخرى. أنا من أعطيته إياه بمناسبة حصوله للمرة الأولى على الجائزة الأولى في مادتي التاريخ والجغرافيا. مجالان مقترنان لأسباب غامضة في المدرسة التي يذهب إليها. وهو آخر الفاشلين في الآداب والعلوم الصحيحة كما يُقال. لم يكن أحد يجاربه في ما يخص تواريخ المعارك والثورات وإعادة الإعمار وإنجازات بشرية عظيمة أخرى. في ارتقاء النور ببطء ورسم الحدود وارتفاعات القمم. يستحق ذلك سكين كشافة. لا تقل لي إنك نسيت في البيت! قلت. بالطبع لا، قال وهو يضرب على جيبه برضا وفخر. هاته! قلت. لم يجب بطبيعة الحال. لم يكن ضمن عاداته أن يولي الإنذار الأول اهتماماً. أعطني السكين! صرخت. أعطاني إياه. ماذا توقعت أن يتصرف معي بمفرده في الليل دون شهود؟ لصالحه فعلت ذلك لأجنبه الانحراف. لأنه حيث يوجد السكين يوجد قلب الكشاف، إلا إذا أمكنه بوسيلة ما اقتناء سكين آخر. لم يكن وضع ابني يسمح. لأنه لا يحمل نقوداً أبداً. لا يحتاج إليها. لكنه يضع كل قرش يقع في يده، وهذا لا يحصل دائماً، في حصّالته الإيطالية أولاً ثم في دفتر ادخار أحفظ به عندي. كان حتماً سيذبحني ببرودة دم بهذا السكين الذي أصبح الآن في جيبِي، لكن ابني كان لا يزال ناعماً بعدُ للقيام بأعمال كبيرة متعلقة بالعدالة. لكن الوقت في صالحه، من وجهة نظري إنه يجد المواساة لشدة غبائه. مهما يكن من أمر، لقد أمسك دموعه بإرادة كاملة هذه المرة. استقمّت. وضعت يدي على كتفه وقلت، صبراً بني، صبراً. المرير في مواقف كهذه هو أنه عندما يكون لدينا الرغبة فإن الوسائل نخوننا والعكس صحيح. لكن ابني لا يشك في الأمر حالياً. المسكين، يعتقد أن السعار الذي يسيطر عليه ويجعله يرتعد ويُعكر ملامحه لن يدعه وشأنه إلا عندما يشرفه بعملية ما. لعله يعتقد أيضاً أنه روح دانتييس الصغير<sup>(35)</sup>، ذاك

الذي اعتاد حماقات القردة كما سمحت منشورات «هانشيت» لنفسها بأن تظهرها. ثم بضربة لا بأس بها على الكتف الضعيف قلت، هيا إلى الطريق. وفعلاً مضيتُ في الطريق وابني يتعثّر ورائي. لقد سافرتُ برفقة ابني كما جاء في التعليمات.

ليس في نيتي أن أروي المغامرات التي خضتها أنا وابني معاً أو كل على حدة قبل وصولنا إلى مولوي. سيكون ذلك رتيباً في هذه الحكاية التي فُرضت عليّ. لكنني سأ تقدّم بها بإرادتي نحو نقطة معينة، حتى لو لم تزل رضا المتعهد في صورة عثر فيها على فقرات لا تعنيه كثيراً هو وشركاؤه. لا يهم، ليذهب إلى الجحيم، إذ ليس هناك أفضح بالنسبة إليّ. أي لكي أكون فكرة واضحة عن هذا الأمر أحتاج إلى خيال أكثر بكثير مما أملك. رغم أن مخيلتي اتسعت عن ذي قبل. ومهنة الكاتب الحزينة هذه التي أنسجم معها رضختُ لها لأسباب يصعب تصديقها. ما زلتُ أطيع الأوامر، إن شئت. لكن ليس من باب الخوف. بلى، أنا خائف على الدوام لكن فقط بحكم العادة. والصوت الذي سمعته لم أكن في حاجة إلى «جابر» لينقله إليّ. لأنه في داخلي بحثني على لعب دور الخادم المخلص الذي كتته دائماً في قضية ليست قضيتي والقيام بدوري بصبر حتى الحد الأقصى للمرارة. إنه جزء من الحقد الذي يملأ رأسي والازدراء الذي تقتضيه خطته. كما تلاحظون هو صوت غامض ليس من السهل دائماً اقتفاؤه في تأويله وقراراته. لكنني أتبعه على الأقل. نسبياً أتبعه من الناحية التي أفهمه بها. من هذه الناحية يمكنني القول إنني أطيعه. والأصوات التي يُقال في شأنها هذا نادرة جداً. ولديّ انطباع بأنني سأتبعه من هنا فصاعداً. لكنني لا أنكر بأنه يبهجنني وحين يصمت تاركاً إياي نهباً للشك والظلام فإنني قبل القيام بأي شيء أنتظر العالم بأسره (وإن يكن) ليُسدي إليّ أوامره، عبر نفوذه وحيله التي لا تنتهي متحدة ومُجمّعة عليها كأنني أفضي عقوبة على مجمل جرائم التي لا توصف، لكن هذا المساء شربتُ أكثر من المعتاد ومن المرجح أن أغير رأيي غداً. يقول لي الصوت أيضاً، هذا الذي بدأت فعلاً تربطني به ألفة غامضة، إن ذكرياتي التي تركها لي

عملي الذي أنجزته دائماً بحرص ودقة وحتى آخر رفق هي التي ستساعدني على تحمّل أهوال الحرّية والتشرد، هل سيعني هذا أنني سأطرد من بيتي يوماً، من حديقتي وأشجاري ومساحاتي المعبّسة وطبوري التي ألفتني وألفتها، تلك التي تشدو وتطير كلّ منها على طريقتهما، وعلى طريقتهما أيضاً تقترب مني أو تجفل لدى اقترابي منها. هل سأفقد السخافات الصّغيرة السّابحة في وجداني الذي يعرف كيف يُرتّب الأشياء كلّ في موضعه، حيث لَدَيَّ ما يلزم كي أكون إنساناً. وحيث لا يمكن لأعدائي الوصول إليّ. هل سيعني أنني لأجل فقدان كلّ هذا بنيتُ حياتي وزخرفتها وجودتها وحافظتُ عليها؟ أنا مُسنّ جداً كي أفقد كلّ هذا، كي أبدأ من جديد، أنا مُسنّ جداً! هيا «موران» اهدأ، ولا تنسق وراء العاطفة من فضلك.

قلتُ إنّي لن أروي كلّ التقلّبات التي صادفتها في الطريق المؤدّي إلى بلاد «مولوي» لسبب بسيط هو أنّ ذلك ليس في نيتي. وأنا أكتب هذه الأسطر، أعرف حجم الظلال التي أنشرها فوق الكائن الذي ليس لديّ مصلحة في تنظيم أوضاعه أكثر من مصلحتي معه. بيد أنني مع ذلك أكتبها بيد حازمة. أيّ طواف جامح يلتهم صفحتي بلامبالاة كارثة. لكنني سأروي القليل منها بإيجاز، لأنّ ذلك يبدو لي مرغوباً ولكي أعطي نبذة عن نضجي العميق. إنّما قبل الشّروع في ذلك سأروي، وأنا أغادر البيت، القليل الذي أعرفه عن بلاد «مولوي» المختلفة جداً عن بلادي. لأنّها إحدى دعائم التحليل المنهجيّ الذي فرض عليّ والذي لا يُسمح لي معه بالتقدّم دون تعليل مقنع. لكن قبل ذلك عليّ أن أجهل مرّة أخرى ما لم أعد أجهله، وأن أظنّ مرّة أخرى بأنّي أعرف أشياء معيّنة كنتُ أظنّ وأنا أغادر بيتي بأنّي فعلاً أعرفها. ولو حدث عن هذه القاعدة من حين إلى آخر فبسبب تفاصيل لا قيمة لها. لكن عموماً أنا أطبق القاعدة جيّداً. وبحرارة لا أبالغ إن قلتُ معها بأنّي مُكتشف أكثر من كوني راوياً. اليوم أيضاً وجلّ الوقت. في صمت غرفتي والفضيّة محسومة في ما يخصّني، كنتُ على علم أين آتجه وما الذي ينتظرني أكثر من تلك السّاعة الليليّة التي انتزعَتْ فيها من بوابتي أنا وابني المعتوه لنجد أنفسنا

في الزقاق، ولن أندesh إن تنحيتُ في الصفحات التالية من السير الصارم والحققي للوقائع. لكن حتى «سيزيف» لا أعتقد بأنه أرغم على الخدش أو الأنين أو الاختيال على غرار مجازاة موضة ذهنية دون أن يبرح مكانه. لسنا نركب الحصان المناسب بالضرورة ونحن نفتني أثره، وننخذ الطريق الذي سار فيه والذي ربّما أفضى به إلى الميناء الصحيح في الآجال المحددة. ومن يضمن عدم ظنه بأنها محاولته الأولى؟ سيقيه ذلك على أمل الوصول. الأمل، تلك الرضعية الجهنمية بامتياز عكس ما نتصور إلى يومنا هذا. في حين إنّ الانزلاق والقيام إلى ما لانهاية يملؤكم راحة. بلاد مولوي تعني لي الحدود القوية التي لم يتخطّاها ولن يفعل أبداً. الحدود الإدارية كانت وما زالت مستحيلة بالنسبة إليه. إمّا لأنه لا يرغب في تجاوزها أو لأنهم يحجّرون عليه ذلك أو بسبب حادث حظّ طبيعيّ خارق. إنّها في الشمال غير بعيد عن أرضي الأكثر فتنة، تجدر الإشارة. أرضي حيثُ أعيش. هو تجمع يتكرّم عليه البعض بوصفه مدينة ولا يرى فيها البعض الآخر سوى قرية محوطة بالأرياف. هذه المدينة أو القرية، لنذكر ذلك فوراً، اسمها «بالي» وتمتدّ إضافة إلى الأراضي التابعة لها على مساحة خمسة أو ستة أميال مربعة على أقلّ تقدير. في البلدان المتقدمة نسمّيها بلدة، أظن، أو مقاطعة لا أدري، لكن في بلادنا ليس ثمة عبارة جنيسة مجردة، نصف بها هذا النوع من المقاسم الإقليمية. ولنشير إليها لدينا نظامنا الخاص، إنّّه مذهل وبسيط بشكل لافت، وينطلق من فكرة قول «بالي» لأنها فعلاً «بالي» حين نريد القول «بالي» و«باليبا» لو أردنا الإشارة إلى «بالي» مع الأراضي التابعة لها و«باليبابا» حين نودّ الإشارة إلى أراضي «بالي» التي في ضاحيتها دون حسابها. أنا مثلاً لو دققتُ لبدا لي آتي أعيش دائماً في «شيت» المدينة الرئيسة لـ «شيتبا». في المساء عندما أرغب في الانتعاش بالهواء خارج «شيت» فإنّ هواء «شيتبا» هو الذي أملاً به رشتي ولا شيء آخر.

ورغم صغرها فإنّ «باليبا» لم تكن قاصرة عن إظهار بعض التنوع. مراع، لنقل. القليل من المستنقعات، بعض الأجعات ومظاهر غزيرة كصوف

الخرفان وأخرى ضاحكة كأن «باليا» مسرورة لأنها تبعد أكثر. لكن الجمال الأعظم في تلك المنطقة هو نوع من الجداول المختنقة التي يملؤها ويفرغها المدّ والجزر. يملؤها ويفرغها. والناس الأقلّ قدرة على الخيال يخرجون حشوداً ليتمتعوا بالعرض. بعضهم يقول، لا شيء أجمل من رمل مبتلّ بالكاد. وآخرون يهتفون، إنه خلال المدّ العالي علينا الخروج لمشاهدة جدول «باليا». يا لهذا الجمال وهذا الماء الرصاصي الميت إذن شرط أن نكون منذرين سلفاً! آخرون يؤكدون أنّ المشهد يشبه بحيرة تحت الأرض. لكن في المجمل كلّهم متفقون، تماماً كسكان مدينتهم المُشرقة على البحر. وكانوا يستهلّون الرسائل في الأعلى بكلمة، «بالي» على البحر.

صراحة، قلّة سكّان «بالي» تمنحني الرّاحة. لم تكن الأراضي مستغلّة بشكل جيّد. فبمجرّد أن تمتدّ زراعة أو أن يُهتَمَّ بمرج على نطاق فسيح، حتّى يُكسّرُ أنفه على الأسبجة الدرويدية<sup>(36)</sup> والسّباخ حيث لا يمكن أن يُجنّى غير القليل من التّربة السيّئة ومخلّفات البلوط التي لم تعد تصلح سوى لصنع التّمائم والتّعويذات وحلقات المناديل وفتاحات الرسائل. السيّدة العذراء التي لدى «مارتا» مثلاً آتية من «باليا». ورغم الأمطار الغزيرة فإنّ المراعي فقيرة وصخرية. جنة طفليّات وحشائش عجيبة، زرقاء ومُرة لا تصلح للمواشي وإن كانت الحمير والماعز والخرفان السود قد تأقلمت معها. من أين يأتي ترف «باليا» إذن؟ سأخبركم. لا لن أقول. لن أقول شيئاً. هذا إذا ما اعتقدتُ أنّي أعرفه عن «باليا» وأنا أغادر البيت. أتساءل ما إذا كنتُ أخلطُ بينها وبين مكان آخر. على مسافة عشرين قدماً من البوّابة يحاذي الرّفاق سور المقبرة. الطّريق ينخفض والجدار يعلو أكثر فأكثر. عند نقطة ما نكون قد وصلنا إلى مستوى أدنى من الأموات. هناك قدّمتُ تنازل المكوث مدى الحياة. سيظلّ هذا المكان لي ما دامت الأرض. صليب لاتيني أبيض بسيط، كنتُ قد رغبتُ في كتابة «هنا يرقد فلان» وأضع عليه اسمي تاريخ ميلادي.

36- الدرويدية: منصب ريفي سام في الحضارة السلتية القديمة، مهمته الشفاء وتقديم النصّح للملك.

لم يكن هناك ما يمكن إضافته سوى وتاريخ وفاتي. لم يسمحوا لي بذلك. أحياناً أبتسم كأنني مَيّت فعلاً.

سرنا على الأقدام بضعة أيام مُتخذين مسالك سرّية. لم أشأ استعمال الطريق الكبيرة حتّى لا أشاهد.

خلال اليوم الأوّل عثرتُ على عقب سيجار الأب «أمبرواز». لم أكن قد رميتُ به في المنفضة أو في سلّة مهملات الأوراق. بل اكتفيتُ فقط بوضعه في جيبِي وأنا أغيرُ البذلة. حدث ذلك دون وعي مني.

نظرتُ إليه بتعجّب. أشعلته. سحبتُ منه أنفاساً ورميته. كانت تلك هي الحادثة الأبرز في يومي الأوّل.

علّمتُ ابني كيفيّة استخدام بوصلة الجيب. استمتع بذلك كثيراً. أبدى تصرفاً سليماً أفضل ممّا أمِلْتُ. وفي اليوم الثالث أعدتُ إليه سكّينه.

الوقتُ لصالحنا. كنّا نقطع بسهولة عشرة أميال في اليوم وننام في العراء. الحذر ينصحنا بذلك. علّمتُ ابني كيفيّة صنع مأوى من الأغصان. كان في الكشفة لكنّه لا يجيد فعل شيء على الإطلاق. بلى كان يحسن إضرام نار التخيم. أثناء كلّ استراحة كان يتوسّل إليّ كي أسمح له بممارسة تلك الموهبة. لا أرى جدوى من ذلك. نأكل أطعمة باردة في علب مصبّرة، أرسله إلى القرى لافتنائها. كان نافعاً من هذا الجانب. كنّا نشرب ماء السّواقي. كلّ تلك الاحتياطات كانت عديمة الجدوى بلا شكّ. صادفت يوماً في أحد الحقول مُزارعاً أعرفه. أتى في اتّجاهنا أمسكت ابني من ذراعه وقفلتُ عائداً من ناحية الاتّجاه المعاكس للوجهة الصّحيحة. اعترض سبيلنا كما توقّعتُ تماماً. ألقي التّحية وسألني عن المكان الذي أقصده. مؤكّد أنّه مالك الحقل. أجبتُ بأننا عائدون إلى البيت. لحسن الحظّ أنّا لم نكن بعيدين عنه كثيراً. عندها سألتني أين كنّا. ثمة احتمال أن نكون قد سرقنا منه عجلاً أو خنزيراً. نقوم بجولة، أجبت. يمكنني أن أفلكما بسيّارتي، لا يُعدّ هذا شيئاً يُذكر، قال. إن انتظرتني فهذه طيبة منك لأنّي لن أغادر قبل حلول المساء. شكرته. لم يكن منتصف النّهار قد أتى بعد، لحسن الحظّ. أن لا ينتظر المرء قدوم اللّيل

لم يكن أمراً مُستَراباً. حظاً سعيداً، قال. اتخذنا طريق الشمال. لعلّي بالغت  
 في أخذ تدابير الحيلة. الطريقة الأمثل هي السفر أثناء الليل والاختباء في  
 النهار. خلال الفترة الأولى على الأقل. لكن الطقس كان أجمل من أن أُوفّق  
 في تنفيذ هذا الحل. لم أكن أفكر سوى في ما سأجنيه من متعة. كنتُ حقاً  
 أفكر في ذلك! لم يحدث معي هذا أبداً من قبل وأنا أبأشر عملي. وهذا البطء  
 الذي نتقدّم به! لا يجدرُ بي أن أكون متعجلاً للوصول. كنتُ من حين إلى  
 آخر، مُستسلماً لعذوبة الصيف الموشك على الانتهاء، أفكر في تعليمات  
 «جابر». لم أنجح. لم أنجح في تربيها بالشكل الذي يرضيني تماماً. أثناء  
 الليل تحت الأغصان، متماهياً كلياً مع الطبيعة، كرسْتُ نفسي لتلك المعضلة.  
 الضجيج الذي يصدره ابني خلال نومه يزعجني بشكل كبير. كنتُ أحياناً  
 أخرج من المأوى لأتنزه في الظلام طويلاً وعرضاً. أجلس مسنداً ظهري إلى  
 جذع شجرة. أضمتُ ساقيَّ إلى صدري، أحيطهما بذراعيَّ وأجعل ذفني فوق  
 رُكبتَيَّ. حتّى في تلك الوضعية لا أفلح في تبصّر الأمور كما يجب. ما الذي  
 أصابني؟ عمّ أبحث تحديداً؟ يصعب قول ذلك؟ أبحث عن الحلقة الناقصة  
 التي تجعل من تقرير «جابر» مكتملاً. كان من واجبه إحاطتي بما ينبغي القيام  
 به حالما أعرّ على مولوي. عملي لا يقتضي مني فقط تحديد المكان. ليته  
 كان كذلك. إنّما عليّ التعامل مع المعنيّ بطريقة أو بأخرى وفقاً لما أتلقاه  
 من تعليمات. قد تأخذ تلك التدخلات أشكالاً مختلفة جداً من الصّاحب  
 حتّى السريّ للغاية. قضية «يارك» أخذت مني ثلاثة أشهر نجحت إثرها في  
 القيام بما يلزم. لقد تولّيتُ بنفسني كسر دَبّوس ربطة عنقه. اللقاء وجهاً لوجه  
 ليس سوى جزء بسيط من عملي. عثرتُ على «يارك» في اليوم الثالث. لا  
 أحد يطلب مني برهاناً على أنّي أنجزت مهمّتي بنجاح. يصدّقون ما أرويه.  
 ينبغي أن يكون لـ «يودي» وسائله الخاصة ليتأكّد. في مناسبات معيّنة طلبوا  
 مني تقريراً. مرّة أخرى أكلفُ بنقل شخص ما إلى مكان ما في ساعة ما. عمل  
 حسّاس لأنّني لن أنقل امرأة في النهاية. لم أكلفُ بامرأة قطّ. يؤسفني ذلك. لا  
 أعتقد أنّ «يودي» يولي اهتماماً كبيراً للنساء. أتذكّر في هذا السياق نكتة على  
 أرواح النساء. سؤال، هل للنساء أرواح؟ إجابة، نعم. سؤال، لماذا؟ إجابة،

حتى تنسني لعنتها. أمر مسلّ للغاية. لحسن الحظّ أنهم منحوني حرية اختيار اليوم. ما يهتمهم كان ساعة التنفيذ وليس التاريخ. حالما يحين الموعد أتركه وأرحل متعللاً بأيّ عذر. كان «يارك» فتى لطيفاً صموتاً وحزيناً. أذكر أنّي اخترعتُ له حكاية امرأة. مهلاً، ذاكرتي تسعفني. نعم. قلتُ له إنّها مغرمة به منذ ما يقارب الستة أشهر وترجو لقاءه بشوق في مكان معزول. أذكر أنّي سمّيتُ المكان. كانت ممثلة مشهورة. حين وصلنا إلى المكان الذي اختارته كان عليّ الانسحاب برقة. ما زلتُ أستحضره وهو يراقبني أبتعد. ودّ لو صرنا أصدقاء. حالما أتم مهمتي، لا أعود أكثرث للحالة التي اشتغلتُ عليها. بل لم أرَ أيّاً منهم ثانية. أقول هذا بشكل عاديّ. أوه يمكنني أن أروي لكم بعض الحكايات لو كان مزاجي يسمح. أيّ إعصار في رأسي. أيّ رواق للهاالكين هي جمجمتي. «مرفي»، «وات»، «يارك»، «مرسي»<sup>(37)</sup> وآخرون. لم يخطر لي يوماً \_\_\_\_\_. بلى أعتقد أنّي ما زلتُ قادراً على تصوّر ذلك. حكايات. حكايات. لم أحسن قصّها أبداً. لا أظنّ أنّي أروي هذه أيضاً بشكل جيّد. لم أعرف إذن أيّ طريقة أتوخى في تعاملني مع مولوي لو أنّي عثرتُ عليه. التوصيات التي لم يفت «جابر» أن يزودني بها في هذا الشأن، تبخّرت من رأسي كلياً. إنّها نتيجة قضاء يوم أحد بأكمله منغمساً في الحماقات. لا فائدة من الكلام، لئلاّ ماذا كانوا يطلبون منّي عادة. التعليمات التي أتلّقها خارجة عن العادة دائماً. ثمة عملية تتكرّر باستمرار ليس إلى حدّ كبير يجعلني واثقاً من أنّها ما أبحث عنه. لكنهم أبداً لم يطلبوا منّي القيام بالشئ إلاّ مرّة واحدة وهذه المرّة هي دائماً كافية لتجعلني مشحوناً بالهوس والتعطش للإنجاز. قلتُ لنفسي إنّهُ حرّي بي التوقّف عن التفكير في الأمر في الوقت الحاليّ وإنّ عليّ أولاً إيجاد مولوي ثمّ بعد ذلك سأرى ما سيترتب. سيكون لديّ متسع من الوقت وإنّ الأشياء تتحقّق أكثر كلّما صرفنا عنها النّظر وحتى لو فرضنا بأنّي وجدتُ مولوي في وقت أكون فيه لا أزال أجهل ما يجب فعله، فربّما نصرفتُ كي ألتقي «جابر» دون علم «يودي»، وكما أنّ لديه عنواني

فإنّ لديّ عنوانه. سأبعث له برسالة أسأله فيها، ماذا في شأن «م»؟ مؤكّد أنّه سيجد طريقة ليجيبيني بعبارات صريحة ومُشفّرة في آن. لكن هل ثمة تلغراف في «باليبا»؟ ثمّ بالطريقة نفسها التي كان سيتصرّف بها أيّ إنسان، بما أنّي إنسان، هي أن أوخّر عشوري على مولوي قدر المستطاع مانحاً نفسي حظوظاً أوفر لمعرفة ما يتوجّب عليّ فعله. وكنا سنواصل مسيرنا في أمان لولا وقوع الحادث التالي:

ذات ليلة كنتُ فيها نائماً بجانب ابني كالعادة، استيقظتُ مذعوراً ولديّ انطباع بأنّ أحدهم يهّم بضربي بعنف. لا تقلقوا إذ لا يمكنني أن أروي حُلماً بمعنى الكلمة. ظلام دامس يخيم على المأوى. أصحّتُ السَّمع بانتباه دون حركة. لم أسمع شيئاً عدا شخير ابني ولهائه. كنتُ سأقول كالعادة إنّهُ حلم. لكنّ الآما رهيبة اخترقت ركبتي. هكذا بدا لي الأمر عندما استفتقت وهكذا فسرتُ حلمي. إنّها شبيهة بضربة تلقّيتها من حافر حصان، كما أتخيّل. انتظرتُ عودته بقلق. جامداً وبالكاد أتنفّس مُبلّلاً بالعرق. كنتُ أنصَرّف كما أعتقد أنّهم يتصرّفون في ظرف مماثل. بعد دقائق عاد الألم أقلّ حدة من المرّة الأولى. من الثانية عفواً. أو إنّها بدت لي أقلّ حدة لأنّي فقط هيأت نفسي لذلك. أو لأنّي بدأتُ فعلاً أعتاد الأمر؟ لا أظنّ، لأنّ الضربات تكرّرت عدّة مرّات وكانت أضعف في كلّ مرّة. ثمّ هدأت في الأخير. حتّى إنّني تمكّنتُ من النوم بسلام نسبيّ. لكن قبل العودة إلى النوم، لاح لي أنّ الآلام التي أحسّتها بها لم تكن غير مألوفة. لأنّي شعرتُ بها من قبل في الحِمّام وأنا أغسل ابني. لكن حينها وخزنتني مرّة واحدة ولم تعاود الظهور ثانية. عدتُ إلى النوم وأنا أتساءل كاتّي أهدد نفسي، هل كانت الركبة نفسها التي آلمتني للتوّ أم الأخرى. لم أهتدِ إلى إجابة أبداً. ابني أيضاً ليس أكثر دراية مِنّي، لن يتمكّن من إجابتي لو سألته أيّ ركبة ضمنتُ ودلّكتُ بالإبودكس في تلك اللّيلة التي غادرنا فيها. خلدتُ إلى النوم مُطمئنناً نفسي بأنّه مجرد توتر عصبيّ تسبّب لي فيه المشي مسافات طويلة والليالي الباردة الرّطبة. وقطعتُ أمام نفسي وعداً بأنّ أقتني في أوّل فرصة علبة قطن طبي

من تلك المرسوم أعلاها شيطان جميل. هكذا يفكر المرء فوراً. لم يكن ذلك هو كل شيء. لأنني عندما استيقظت لقضاء حاجتي البشرية عند الفجر منتصب القضيبي قليلاً، لأضفي مزيداً من المصادقية على القصة، لم أستطع النهوض. أعني أنني نهضت أخيراً لكن لكم أن تصوّروا حجم الجهد الذي بذلته! نقولها ببسر ونكتبها ببسر وبسرعة لكن انظروا ما الذي تكلفه في الواقع كلمة نهضت بصعوبة. إنه الإحساس الأكثر فظاعة. تمكّنت بفضل الإرادة، بلا شك. إن ذرة مقاومة يمكنها على ما يبدو أن تطلق لك العنان. اعتقدت في البداية أنني لم أنجح في طي ساقِي. لكن مع الإصرار والغضب أمكنتني طيها قليلاً. مفصلي لم يكن على ما يُرام. لكن هل كان هو ذاته الذي أيقظني في عمق الليل؟ لم أكن لأقسم على ذلك. لا تؤلمني. تقاوم وتأبى أن تتثنى، هذا كل شيء. حاول الألم لفت انتباهي مرّات عديدة ولما لم أكثر له صمت. هكذا أحلّل الأمور. كان من المستحيل عليّ أن أقرص مثلاً. لأن المرء إذا أراد اتخاذ وضعيّة القرفصاء عليه أن يثني كلتا ركبتيه، إلّا إذا خطر له أن يجرب نمطاً آخر سخيفاً ويستحيل الحفاظ عليه أكثر من ثوانٍ قليلة وهو أن يثني ركبته ويمدّ الساق الأخرى كراقص فوقازي. رحتُ أهدق في ركبتي المريضة على ضوء مصباح كهربائي. لم تكن محمّرة أو متورّمة. حرّكت الرضفة. بدت لي كبطر. أثناء ذلك كان ابني ينفخ كفقمة. لديه ثقة في الحياة، إنه لا يدرك قدراتها. كنتُ ساذجاً مثله. لكن كنتُ أعرف ذلك.

سطع ذلك الضوء المقرّز الذي يسبق طلوع الشمس. عادت الأشياء إلى محلها مؤدّية التواءاتها النهارية ثم انتصبت متظاهرة بالموت. جلستُ بحذر على الأرض بل ربّما بفضول ما. غيري كان سيفضّل الجلوس باندفاع كالعادة. ليس أنا. هذا الصليب الجديد، أعتقد أنني وجدتُ الطريقة الأمثل لأسخر منه. لكن حين أجلس، فإنّ عليّ القيام بذلك كخيّاط أو في وضعيّة جنين. إنهما الوضعيتان الوحيدتان المتاحتان في الواقع بالنسبة إلى مبتدئ. لم أتاخر طويلاً قبل التمدّد على ظهري، لم أتاخر طويلاً أيضاً في إضافة هذه المهارة إلى لائحة مهاراتي. فبين كلّ الوضعيات التي يتخذها المرء دون

تفكير لم يبقَ لي غير اثنتين قابلتين للجدل. هذا يعني أنني أثريت معارفي في شأنهما. في ظروف أخرى كنتُ سأراهن على العكس وأعصُ بشدة<sup>(38)</sup> أم أنني لم أصب بما أصبتُ به الآن. أجل، عدم القدرة على الوقوف ولا على الجلوس يستدعي فوراً اتخاذ وضعيات أفقية يلجأ إليها المرء كطفل في أحضان أمه. نكتشفها كما لم نفعل من قبل، بل ونجد فيها لذة لا تخطر على البال أبداً. باختصار تصير الوضعيات لانهائية فجأة. ولو حدث أن سئنا مع مرور الوقت فكل ما علينا فعله هو الوقوف لبعض الوقت أو أكثر من ذلك أن تستقيم على مقعدك ببساطة. إنها مزايا الشلل التام غير الموجه. لا أستغرب أن تمنح أنواع الشلل الكبيرة الكلاسيكية الأخرى متعة مماثلة أيضاً بل ربما كانت أكثر إثارة. أخيراً، أن لا تقدر على الحركة تماماً، يجب أن يكون هذا شيئاً ما! روحي تغوص عميقاً كلما فكرتُ في الأمر. ترافق ذلك بهتة كاملة! وربما صمم تام! ومن يدري ربما أضيفُ إليها شللُ الشبكية! احتمال كبير أن أفقد الذاكرة! القليل من العقل فقط يبقى كي يشمت المرء! وليخشى الموت كأنه بعث من جديد.

يشغلني كثيراً ما عساي أتصرف لو أن ركبتني لم تتحسن أو ماذا لو تعكر وضعها. عبر الأغصان أرى السماء تدنو. السماء تدنو في الصباح. لا أحد شرح الظاهرة، تقترب كأنها تحاول إمعان النظر، إلا إذا كانت الأرض هي التي نهضت كي تثبت نفسها قبل أن ترحل. لن أروي تحليلي هذا رغم أنه من البسير عليّ القيام بذلك. إنه يفضي إلى القرار الذي سيسمح بتأليف المقطع الموالي. هل نمت جيداً؟ سألتُ ابني حالما فتح عينه. كان في إمكانني أن أوقظه لكن. لا لم أشأ. تركته يستفيق بصورة طبيعية. انتهى به المطاف إلى إجابتي بأنه ليس على ما يرام. أين نحن؟ قلت، وما هي القرية الأقرب من هنا؟ سمى لي القرية. أعرفها. إنها مدينة كبيرة مررتُ بها يوماً. يبدو أن الحظ يعمل لصالحنا. بل لقد عرفتُ أناساً يقطنون فيها. في أي يوم نحن؟ قلت. حدد لي اليوم دون لحظة تردد رغم أنه استعاد وعيه للتو! قلتُ

لكم إنه الأول في التاريخ والجغرافيا. منه تعلّمتُ أن نهر «البيز»<sup>(39)</sup> يصبّ في «كندوم»<sup>(40)</sup>. حسناً، قلت. عليك الذهاب إلى «هول» حالاً، أمامك (أحسبُ) ثلاث ساعات على أقصى تقدير. نظر إليّ باندهاش. من هناك يمكنك شراء دراجة تناسب طولك. اعمل على أن تكون مستعملة. يمكنك أن تصل إلى خمسة جنيهات. أعطيتُ خمسة جنيهات من فئة العشرة شلن. يجب أن تكون مجهزة بحقيبة للأمتعة، إن لم تكن كذلك فاستبدلها فوراً بواحدة مجهزة بحقيبة أمتعة، قلت. حاولتُ أن أكون واضحاً في كلامي. لم يبدُ أنه كان سعيداً. كرّرت الأوامر على مسامعه وسألته مرّة أخرى إن كان مسروراً. كان على العكس مصدوماً. بسبب السعادة التي تغمره، لعلّه لم يصدّق أذنيه. هل فهمت على الأقل؟ قلت. أمر رائع من حين إلى آخر أن يخوض المرء نقاشاً حقيقياً مع أحدهم. ما الذي تنوي القيام به؟ قلت. إنها الوسيلة الوحيدة التي ستجعلني أتأكد إن كان فهمني أم لا. عليّ الذهاب إلى «هول»، قال، على بعد خمسة عشر ميلاً من هنا. خمسة عشر ميلاً؟ قلت. نعم، قال. حسناً تابع، قلت. لأشترى دراجة، قال. انتظرتُ، لا شيء على الإطلاق. دراجة، صرخت، هناك ملايين الدراجات في «هول»! أي نوع من الدراجات؟ يفكر. مستعملة، نطق عشوائياً. وإن لم تجد ضالتك في المستعمل؟ قلت. لقد قلت إن الدراجة يجب أن تكون مستعملة، قال. صمتُ طويلاً. ماذا لو لم تجد دراجة مستعملة، ماذا كنت ستفعل؟ لم تقل لي شيئاً في هذا الشأن. كم هو مريح أن يندمج المرء في ندوة من وقت إلى آخر. كم أعطيتك؟ قلت. عدّ القطع. أربعة جنيهات وعشرة شلن، قال. عدّها ثانية، قلت. عدّها مجدداً. أربعة جنيهات وعشرة شلن، قال. أعطاني القطع وعددها. أربعة جنيهات وعشرة وأنا أعطيتك خمسة جنيهات. لم يجب بل أثر ترك الأرقام تتحدّث. أيعقل أن يكون قد أخفى عني عشرة شلن؟ أفرغ جيوبك، قلت. فوراً شرع يفرغها. لا ننسى بأنّي كنتُ ممدداً. لم يكن يعلم أنّي مريض. أساساً لستُ

39- البيز: نهر في جنوب فرنسا ينبع من أعالي جبال البيريني.

40- كندوم: بلدة فرنسية تقع في الجنوب.

مريضاً. جستُ في الأشياء التي نشرها أمامي. أخرجها من جيبه قطعة قطعة. كان يمسك بأغراضه بين الإبهام والسبابة بعناية في الهواء حريصاً على أن يبرني إياها من كل اتجاه. ثم وضعها على الأرض بجانبني. ومع كل جيب يفرغ كان يقلبه وينفضه. نشأت سحابة غبار صغيرة. السخف الذي في عملية التثبت تلك سرعان ما كبّلتني. طلبتُ منه أن يتوقف. ربما أخفى العشرة شلن في كُمه أو في فمه من يدري. كان عليّ إذن أن أنهض وأفتشه من رأسه حتى أخمص إصبعه. لكن عندئذ سيكتشف بأنني مريض، غير أنني لستُ مريضاً تماماً. ولماذا لا أرغب في أن يراني مريضاً؟ لا أدري. كان في وسعي عدّ النفود التي بقيت في حوزتي. لكن ما جدوى ذلك؟ وهل لديّ فكرة عن قيمة المبلغ الذي جلبته؟ لا. حتى مع نفسي أطبق المنهج السقراطي. هل أعرف كم أنفقت؟ لا. عادة أضبط حساباتي بصرامة خلال أسفاري. أبرر نفقاتي حتى آخر قرش من مصاريف التنقل. هذه المرة لا. يجب أن تكون رحلة ترفيحية كي أبدّر الأموال في الهواء متحرراً من كل نظام. لنفرض أنني مخطئ، وأني لم أمدك سوى بأربعة جنيهات وعشرة شلن، قلت. بكسل جمع أشياءه المبعثرة على الأرض وأعادها إلى جيوبه. كيف أجعله يفهم؟ اترك هذا وأصغ إليّ، قلت. أعدتُ إليه القطع النقدية. عدّها قلت. عدّها. كم؟ قلت. عشرة شلن، قال. معك أربعة جنيهات وعشرة شلن، قلت. نعم، قال. أعطيتك أربعة جنيهات وعشرة شلن، قلت. نعم، قال. لم يكن ذلك صحيحاً فقد أعطيتُه خمسة جنيهات. موافق؟ قلت. نعم، قال. لم في رأيك أعطيتك هذا المبلغ من المال؟ قلت. لم هذا المقدار؟ قال. أشرق وجهه. لأقني دراجة، قال. أي نوع من الدراجات؟ قلت. مستعملة، قال، من الخردة. أوتعتقد أنّ دراجة مستعملة قد يساوي ثمنها أربعة جنيهات وعشرة شلن؟ قلت. لا أدري، قال. أنا أيضاً ليست لديّ أدنى فكرة. لكن هذا هو الإشكال. ماذا قلتُ لك بالضبط؟ قلت. ساد بيننا الصمت. مستعملة قدر الإمكان، هذا ما قلته لك. آه، قال. أذكر ما جاء في الحوار بأكمله<sup>(41)</sup>. عرّجتُ فقط على

النقاط الهامة. لم أقل مستعملة قلت، بل مستعملة قدر المستطاع. انهمك بجمع أغراضه. اترك هذا، قلت، انتبه فقط لما سأقوله لك. بتباه أسقط من يده كرة خيوط متشابكة. ربّما كان في داخلها العشرة شلن. ألا تفرّق بين مستعملة وبين مستعملة قدر المُستطاع؟ قلت. نظرتُ إلى ساعتِي. كانت العاشرة. لا أفعل شيئاً سوى القيام بالمزيد من التشويش على أفكارنا. لا تحاول أن تفهم، قلت. فقط اسمع ما سأقوله لك لأنّي لن أكرّره. اقترب منّي وجثا على ركبته كما لو أنّي أحتضر. هل تعلم ماذا يعني دراجة جديدة؟ قلت. نعم أبي، قال. حسناً إذا لم تجد دراجة مستعملة فيمكنك شراء دراجة جديدة، قلت. أعدتُ كلامي. أبعد وجهك، فرائحة فمك كريهة، أضفت، لا تغسل أسنانك وتشكو الدمل. إلّا أنّي أحجمتُ في آخر لحظة. ليس هذا الوقت المناسب لاختلاق المبررات، أعدت. ماذا كنتَ ستفعل؟ قلت. بدأ يستجمع مداركه. أذهب إلى «هول» على مسافة خمسة عشر ميلاً — لا تكثرث للأميال، قلت، أنت في «هول» لماذا؟ لم أعد أستطيع. فهم أخيراً. لمن هي الدراجة، قلت. لـ «جونينج»؟ لم يكن قد فهم بعد أن الدراجة له. لم يكن أصغر منّي في تلك الفترة. أمّا بالنسبة إلى حقبة الأمتعة فكأنّي لم أقل شيئاً في شأنها. في النهاية ثاب إلى رشده إلى درجة أنّه سألني عمّا يجدر به أن يصنع لو أن المال الذي في حوزته لا يكفي. تعود إلى هنا وستتدبر الأمر سويّاً، قلت. طبعاً خطر لي مسبقاً وأنا أفكر في كلّ هذه الأسئلة أثناء نوم ابني أنّه ربّما تعرّض إلى صعوبات هناك، فمن الوارد جداً أن يسألوه عن مصدر الأموال التي في حوزته. أعرف كيف كان سيتصرّف، إمّا أن يبحث بنفسه عن الشرطيّ «بول» أو أن يطلب دعوته، سيعرّف بنفسه قائلاً، إنّ (موران جاك) هو الذي كلّفني باقتناء دراجة من «هول» موحياً لهم بأنّي خلال ذلك الوقت بقيتُ أنتظره في «شيت». هنا بالتأكيد نحن إزاء عمليتين مختلفتين، أولى تتمثل في التكهّن (قبل استيقاظ ابني) والأخرى بنت مجدها من الخبر القائل إنّ «هول» هي أقرب تجمع سكني من هنا. لكنّي تراجعتُ عند إعطائه تعليمات بهذا المكر. لا تخف، قلت، لديك ما يكفي لاقتناء دراجة جميلة تأتي بها إلى هنا دون إضاعة للوقت. التفكير في جميع الاحتمالات حتمي

مع ابني. لم يكن ليخمن ما الذي عليه أن يفعل بالدراجة في حال حصل عليها، ليس مستبعداً أن يظلّ في «هول»، الله وحده يعلم في أي ظرف سيظلّ هناك منتظراً حتى تأتبه مني تعليمات أخرى. سألني ماذا بي. تغيرت ملامحي. مللتُ رؤيتك، قلت. وسألته ما الذي ينتظره. لستُ على ما يُرام، قال. يسألني ماذا بي فلا أجيب بشيء وهو الذي لا أحد يسأله عن أحواله يقول إنه ليس على ما يُرام. لستُ سعيداً! قلت، رغم أنك ستحصل على دراجة جديدة باهرة، لك، لك وحدك؟ كم كان بوذي أن أسمعه يعبر لي عن سعادته. غير أنني لستُ نادماً على جملتي الأخيرة التي أزمّت الأمور أكثر وهذا يكفي بالنسبة إلى اجتماع عائلي. غادر المأوى، وحين تأكدتُ أنه ابتعد خرجتُ بعناء بدوري. سار عشرين خطوة تقريباً. رسمتُ سحنة صفو على ملامحي. ظهري مُسند بخمول إلى جذع شجرة وساقِي السليمة مثنية باتساع قبالة الأخرى. ناديتُه فالتفت. لوحتُ بيدي. حدّق في لحظة ثم أشاح بظهره وواصل طريقه. ناديتُه باسمه فالتفت من جديد. فانوس! صرخت. فانوساً جيداً! لم يفهم، كيف تريدونه أن يفهم من على بعد أكثر من عشرين خطوة هو الذي لا يفهم على بعد خطوة واحدة؟ عاد نحوي. أشرتُ إليه حالاً بالابتعاد، صارخاً، ارحل! ارحل! توقّف وراح يحملق فيّ برأس مائل كبيغاء. حائراً تماماً على ما يبدو. بطيشٍ ملتُ لألتقط حجراً أو قطعة خشب أو طوبة، أيّ قذيفة، لكنني كدتُ أسقط. كسرتُ على رأسي غصناً غصاً ورميته بعنف في اتجاهه. استدار وهرب ركضاً. أحياناً لا أفهم شيئاً من تصرفاته. يُفترض أن لديه علماً بعجزني عن ملاحقته حتى بحجر جيد. رغم ذلك يجري وساقاه أعلى من رأسه. لعلّه يخشى أن أجري وراءه. في الواقع هناك ما يخيف في طريقة ركضي ورأسي مُلقى إلى الوراء. أسناني مصرورة، المرفقان مثنيان إلى الحدّ الأقصى والركبتان تكادان ترتطمان بوجهي. أمسكتُ بمن هم أسرع مني بفضل هذه الطريقة. عادة يقفون في انتظار وصولي بدّل أن يزيدوا على أنفسهم هيجاناً رهيباً لا قبل لهم به.

أما الفانوس، فلسنا في حاجة إلى فانوس. لاحقاً عندما تفسح الدراجة

لنفسها حيزاً في حياة ابني، حياة الواجب واللّعب البري، عندها فقط يكون الفانوس ضرورياً ليضيء جولاته الليلية. وإنّه في إطار الاستباق بلا شك أن أفكر في الفانوس لأجل مستقبل سعيد لابني، وأصرخ في وجهه قائلاً إن عليه العثور على فانوس جديد. هكذا يكون ذهابه وإيابه في النور دون خطر. كان في إمكاني أيضاً أن أوصيه بالانتباه إلى الفانوس، أن يفتح الغطاء الصغير ويُلقي نظرة ليتأكد ممّا إذا كان النافوس حقيقياً وفي حالة جيّدة قبل عقد الصّفقة، وأن يُجرّبه لتكون لديه فكرة عن الصّوت الذي يصدره. لكن لا بأس سيكون لنا فيما بعد متسع من الوقت للاهتمام بهذه الأشياء. وبسرور كبير عندما يحين الأوان سأساعد ابني على تجهيز درّاجته بأفضل أضواء. الأماميّ منها والخلفيّ وبأفضل جرس ومكابح يمكن أن تُزوّد بها درّاجة على الإطلاق.

بدا لي اليوم طويلاً. أشتاق إلى ابني. أكلتُ مرّات عديدة. انتهزتُ فرصة وجودي وحيداً دون شاهد غير الله كي أستمني. لا بدُّ أن ابني خطرت له الفكرة نفسها فتوقّف يستمني هو أيضاً. أتمنى له لذة أكبر من لذّتي. قمْتُ بعدّة أشواط حول المأوى آملاً أن ينفع ذلك ركبتني. أسير بخطى حثيثة دون ألم لكنني أتعب بسرعة. بعد عشرات الخطوات إعياء كبير أصاب ركبتني. بالأحرى هو ألم. لقد أجبرني على التوقّف. تعاطيتُ المُرفين.

طرحْتُ على نفسي أسئلة كثيرة، لِمَ لم أطلب من ابني أن يحضر لي ما أعالج به نفسي؟ لِمَ أخفيتُ عنه مرضي؟ هل كنتُ سعيداً بما يحدث لي إلى درجة لا أريد معها أن أتعافى؟ أسلمتُ نفسي طويلاً لجمال المكان من حولي، الحقول، السّماء، الطّيور. وأصغيتُ بانتباه شديد إلى الأصوات الآتية إليّ من قريب ومن بعيد. لحظةً أعتقد بأنّي أنصتُ إلى الصّمت الذي كنتُ قد تطرّقت إليه. أظنّ، نعم. ممّداً في المأوى كنتُ أفكر في المؤسسة التي ألحقتُ بها. حاولتُ من جديد أن أتذكّر ما الذي يتوجّب عليّ صنعه بمولوي عندما ألتقيه. خرجتُ في نزهة حتّى وصلتُ إلى السّاقية. ممّداً، حدّقتُ في صورتي المنعكسة على الماء قبل أن أغسل وجهي ويديّ. انتظرتُ حتّى

يتكوّن وجهي من جديد على سطح الماء. كنتُ أراقبه يتموّج ويأخذ رويداً بالاقتراب من ملامحي. تسقط من حين إلى آخر قطرة ماء فتعكّر الصّورة وتجعلها ترتعش من جديد. لم أرَ أحداً طوال اليوم. لكن متأخراً سمعتُ صوت خطوات تطوف بالماوى. لم أتحرك. ابتعدتُ خطوات. لكن بعد ذلك لدى خروجي لا أدري لأيّ هدف، رأيتُ رجلاً على مسافة أقدام منّي واقفاً بلا حركة. أشاح عني بظهره. يرتدي معطفاً ثقيلاً لا يُناسب الفصل الذي نحن فيه. يستند على عصاً غليظة جدّاً، أسفلها أكبر من أعلاها كبندقيّة قديمة. استدار والتفت نظرانا في صمت. بالنسبة إليّ كنتُ أحدّق فيه على طريقتي كما أفعل دائماً لأحمل على الظنّ أنّي لستُ خائفاً. فيما كان هو يرمقني بنظرات خاطفة من حين إلى آخر، يرفع بصره ناحيتي ثمّ يخفضه ليس بدافع الحياء، بل كأنه يفسح المجال لنفسه كي يُفكر بهدوء فيما يرى قبل أن يضيف صوراً أخرى. لأنّ النظرة كانت قويّة وباردة بشكل مهول. وجهه شاحب وجميل. خمنتُ أنّه في الخامسة والخمسين. رفع قبعته. ظلّ يمسك بها بعض الوقت ثمّ أعادها إلى رأسه. لم يكن ذلك شبيهاً بتحيّة. غير أنّي وجدتُ مناسباً أن أنحني. القبّعة كانت رائعة شكلاً ولوناً. لن أحاول وصفه لأنّه لا يشبه أيّ هيئة مألوفة لديّ. شعره الذي لا يخفى اتّساعُ بياضه، كان مُهملاً وأشعث. قبل أن يعيد وضع القبّعة، سمح لي الوقت بأن أرى شعره ينهض ببطء فوق جمجمته. وجهه قدر ومكسوّ بالشعر، نعم كان وجهه شاحباً وجميلاً وقذراً ومكسوّاً بالشعر. ندّت عنه حركة غريبة كدجاجة نفخت ريشها ثمّ بعد ذلك ضمرت مُتخذة حجماً أصغر من حجمها. ظننتُ أنّه سيرحل دون أن يوجّه إليّ كلمة واحدة. لكنّه فجأة طلب منّي قطعة خبز. أرسل طلبه المهين مع نظرات متلاثلة. كانت لديه لهجة غريبة. لهجة شخص فقد عادة الكلام.

قلتُ بارتياح مُعوّلاً فقط على منظر ظهره، إنّه غريب. هل تريد علبه سردين؟ قلت. طلب منّي الخبز فاقترحْتُ عليه السمك. إنّه طبعي. خبز، قال. دخلتُ إلى الماوى وأخذتُ قطعة خبز أحفظُ بها لابني الذي لا بُدَّ أنّه سيعود جائعاً. قدمتها إليه. توقّعتُ أن يلتهمها فوراً قبل أن يبرح المكان.

لكنه شطر القطعة نصفين، وضع كل واحد في جيب من جيوب معطفه. هل  
تسمح لي بالقاء نظرة على العصا؟ قلت. مددت يدي. لم يتحرك. وضعتُ  
يدي على العصا، فوق يده. أحسستُ بأصابعه ترتخي وتنسحب. أنا من  
يمسك بالعصا الآن. خفة وزنها أذهلتني. أعدتها إليه في يده. ألقى عليّ نظرة  
أخيرة قبل أن يرحل. كان الوقتُ ليلاً تقريباً. كان يمشي بسرعة غير واثق من  
خطواته، كان يغيّر الاتجاهات في كل مرة. تبعته بعينيّ إلى أن أصبح نقطة في  
المدى. مكثتُ في الخارج مدة لا بأس بها، كنتُ من حين إلى آخر أصبح  
السمع. لكن ابني لم يعد، ولأني بدأتُ أشعر بالبرد فقد دخلتُ إلى المأوى  
وتمددتُ وتدنّرتُ بمعطفه. بيد أنني أحسستُ بالتعاس بدأ يغلبني فخرجتُ  
ثانية وأشعلتُ نار حطب كبيرة لأرشد ابني إلى مكاني، ولما اتقّدت جيداً  
قلتُ في نفسي، هياً يمكنني أن أتدقاً الآن! رحتُ أتدقاً إذن وأنا أفرك يداً بيد  
بعد تقريباها من النار وقبل أن أقربها ثانية مولياً إليها ظهري. أرفع ياقة معطفي  
وأقلب يديّ كما لو آتني أسويها. أخيراً لما لم أعد أطيق الحرارة والتعب،  
تمددتُ على الأرض بالقرب من النار ونمتُ وأنا أقول، ربّما أصابت  
ملابسي شرارة فلا أستفيق إلّا وقد تحوّلتُ إلى شعلة حية. كنتُ أقول أيضاً  
أشياء أخرى مختلفة تنتمي إلى سلاسل متباينة لا صلة بينها في الظاهر، لكن  
عندما استيقظتُ كان قد جاء الصّباح، والنار انطفأت. كان الجمر ساخناً بعدُ  
وركبتي ليست أفضل حالاً، لكنّها ليست أسوأ على أيّ حال. أعني ربّما  
تعكّرت قليلاً دون أن أشعر. ربّما بسبب الرحمة التي بدأتُ تكتسح طبعي  
شيئاً فشيئاً. لكنّي لا أظنّ. لآتي وأنا أصغي إلى ركبتني ثمّ وأنا أخضعها إلى  
الاختبار ارتبّت من هذه العادة وحاولتُ التشكيك فيها. لم أكن أقبل دخول  
أحد على أحاسيسي إلّا واحداً فقط سرياً يقول، لا شيء تغير «موران»، لا  
شيء تغير. قد يبدو هذا مستحيلاً. رحتُ إلى الأجمة كي أصقل لنفسي عصا.  
وحين وجدتُ غصناً يستجيب لرغبتني تذكّرتُ أنني لا أحمل سكّيناً. عدتُ  
إلى المأوى آملاً أن أعثر على سكّين بين الأغراض التي نشرها ابني على  
الأرض وزهد في جمعها. لم أجده، لكنّ عينيّ وقعتا على المطرّية. فقلتُ،  
لن أقصّ عصا وأنا أملك مطرّية. ورحتُ أتمرّن على المشي معتمداً على

المطرية، وإن كنت بهذه الطريقة لا أتقدم بشكل أسرع أو أقل ألماً، إلا أنني لا أتعب بسرعة على الأقل. وبدل التوقف كل عشر خطوات فإنني أنجز خمس عشرة يسر قبل أن أضطرّ قسراً إلى التوقف. فقد لاحظت أنني عندما أستند إلى المطرية فإن ثقل ساقي الناجم بلا شك عن خلل في الدورة الدموية يتبدد بصورة أسرع مما لو اعتمدتُ على عضلاتي وحدها أو بفضل شجرة الحياة. مجهّزاً على هذا النحو، لم أعد أكتفي أبداً بالطواف حول المأوى بل رحْتُ أتمشى في كل الاتجاهات. بل لقد بلغت ربوة أشرف منها على امتداد كبير حيث يمكن لابني أن يظهر في أي لحظة. أراه من حين إلى آخر في مخيلتي مائلاً على المقود أو منتصباً فوق الدواستين، يقترب رويداً وأسمعه يلهث وقد ارتسمت فرحة العودة على وجهه الطفولي. كنتُ في الآن نفسه أحرس المأوى الذي صار يجذبني بصورة غريبة إلى درجة أن الانتقال من زاوية إلى أخرى بعيدة، الأمر الذي يناسبني، بات أمراً مستحيلًا في نظري. إنما كان عليّ دائماً كلما خرجتُ العودة في الاتجاه المعاكس نحو المأوى لأتأكد من أن كل شيء في مكانه قبل أن أتخذ سبيلاً آخر. ولقد قضيتُ جل الوقت من اليوم الثاني في هذا الذهاب والإياب العابث والمراقبة والتصور لكن أبداً كامل النهار. لأنني كنتُ بين الفينة والأخرى أتمدّد في المأوى الذي أصبح بيتي الصغير لأفكر بهدوء في بعض الأشياء، من بينها مؤونتي من الغذاء التي بدأت تنفذ، حتى إنني عند الخامسة وبعدما أكون قد ازدردتُ طبقي لن يعود لديّ سوى عُلبتيّ سردين وحفنة بسكويت وتفاحات معدودة. لكنني أحاول أيضاً تذكر ما الذي يتوجب عليّ فعله بمولوي حالما أعثر عليه. فكُرتُ أيضاً في نفسي، في ما تغيّر خلال الفترة القصيرة الماضية. وبدأ لي أنني أهرم بسرعة جنونية. لكن فكرة الشيخوخة ليست هي تحديداً ما يلوح لي. في المقابل ما لاحظته حقاً هو نوع من التقطيع، الانهيار الساحق لكل ما اعتاد حمايتي، لكل ما تورّطتُ في أن أكونه. أو أنني كنتُ شاهداً على نوع من الحفر العميق المتسارع نحو لا أعرف أيّ وجه معروف ونكرة في آن. كيف أصف هذا الشعور الثقيل الغامض المتحجّر الزاقق الذي بدأ يسيل. ورأيتُ إذن كرة تُرمى في أعماقي عبر مياه لطيفة. مُتحدة في البداية ولا تكاد تظهر

وسط الاضطراب الذي يحملها. ثم تدريجياً يتضح الوجه. العينان والفم والملاح الأخرى دون أن نتمكن من معرفة ما إذا كان وجه رجل أو امرأة أو شاباً أو شيخاً أو ما إذا كان هدوؤه نتيجة الماء الذي يفصله عن النهار. لكن تجدر الإشارة إلى أنني لا أعبر اهتماماً ماجناً إلى هذه الاستعارات حيث الإحساس بالتحلل يبحث له عن حيز في داخلي. وكوني لا أشتغل عليه أكثر فهذا يدل بقوة على التغير الذي طرأ عليّ وكم أصبحت غير مبالٍ بسيطرته عليّ. كنتُ بلا شك سأحقق الاكتشاف تلو الآخر في شأني الخاص لو أصررتُ على ذلك. لكن كان يكفي أن أشرع في توضيح الأمور، أعني في قلب هذا الاضطراب الملعن الذي يجتاحني مُتوسلاً استعارة أو قراراً كفيلاً بقذفي نحو هموم أخرى. لاحقاً سيكون عليّ البدء من الصفر. وحتى مع هذا الاختيار سيشتق عليّ التعرف على نفسي، لأنه ليس من الطبيعي، أقصد ليس من عاداتي، أن أقوم بحساباتي التي في الواجهة. بل أفضل الواحد منها على البقية من ثم أدفع به إلى أقصى ما يحتمل. وهكذا الواحد تلو الآخر. حتى المؤثرات التي تنقصني في موضوع مولوي، فإني أصرف عنها النظر لصالح مجاهل أخرى حالما أشعر بأنها غاصت في أعماق ذاكرتي، أنا الذي كنتُ حتى عهد قريب قادراً على حساب الوقت الذي لن تنفذ قبله مؤونتي المتبقية. وأنا أطرح على نفسي مسألة الفيتامينات والكالوريات وأجري في رأسي جدولاً قريباً من العدم الغذائي، اكتفيتُ في ذلك اليوم بخمول تام بالتوصل إلى أنني ساموت جوعاً لو لم أجدد مدّخراتي. هكذا مرّ النصف الثاني من اليوم. لكن بقيت هناك حادثة من واجبي التنويه إليها قبل المرور إلى اليوم الموالي.

كنت بالكاد قد انتهيتُ من إشعال النار ومراقبتها تشتد حين سمعتُ صوتاً يناديني. كان الصوت قريباً جداً إلى درجة أنني اهتزت. كان صوت رجل، ثم سرعان ما عدتُ بعد اهتزازي إلى الانشغال بالنار ثانية كأن شيئاً لم يكن. رحتُ أقلبها بواسطة غصن كنتُ قد قطعته للغرض ونزعتُ عنه الأوراق والسيقان وجزءاً من اللحاء بأظفاري المجردة. أجد متعة كبيرة في

سليخ الأغصان وتعرية الشاهدة الناعمة، لكن شعوراً بالحُبّ والشفقة يغمرني تجاه الشجرة غالباً. أحبّ الأشجار إلى قلبي هي شجرة التين الأحمر<sup>(42)</sup> التي لا تموت قبل سن الخمسة آلاف سنة بسبب صاعقة. إنها مثال عن التعمير. كان إذن غصناً كبيراً ممثلاً بالصمغ لا يشتعل إذا حرّكت به النار. أمسكه من طرفه. الفرقة التي أحدثتها النار، لا بل الحطب الآخذ بالتقوُّس، لأنّ النار تصدر صوتاً آخر. الفرقة هي التي سمحت للرجل بالاقتراب في غفلة مني. إن كان هناك ما يثيرني فهو بالتأكيد أخذي على حين غرة. رغم حركة الهلع التي ندّت عني إلّا أنّها لم تلفت الانتباه وواصلت طعن النار كما لو كنت وحدي. لكن بمجرد ملامسة يده لكتفي اضطررت إلى القيام بما كان سيقوم به أي شخص مكاني، التفاتة غضب وخوف مؤداة بشكل جيّد. هأنذا وجهاً لوجه أمام رجل يتعذّر عليّ تمييز بنيتة الجسدية وملامح وجهه بسبب الظلام. تحية أيها الصديق، قال. تدريجياً كوَّنتُ فكرة عن أيّ صنف من الناس أمامي. والحق أنّ هناك انسجاماً وتناسقاً كبيرين في أجزائه. ويجوز القول إنّ له جسماً وجهه والعكس صحيح. ولو أمكنني أن أرى دبره فدون شكّ سأجده غير أهل لما تبقى. لم أتوقع أن أصادف أحداً في هذه البلاد، قال، إنها وريد. وأنا أبتعد عن النار التي بدأت تضطرم والتي لم أعد أواجه نورها بل أضواء الدخيل، عندها أيقنت أنّي لم أكن مخطئاً، إنه المزعج الذي صادفته. هلاً قلت لي، قال. أنا عند ضرورة وصفه باختصار وإن كان هذا يتعارض مع مبادئ. كان قصيراً رباعاً، يرتدي بذلة سميكة زرقاء بحرية وسترة ثنائية الصدر بقصّة فظيعة وزوج أحذية أسود عريضاً جداً، طرفه الخلفي أعلى من المقدّمة. يبدو أنّ هذا الشكل القبيح هو الذي يحتكر موضحة الأحذية السوداء. أنت لا تعرف، قال. خصلات لإفائه الداكن الذي يبلغ من الطول سبع أقدام على الأقلّ ويلتفّ حول رقبتة لفات عديدة ويتدلّى على ظهره. كان يحمل لبادة شتوية زرقاء داكنة بحافة قصيرة، في شريطها رُشق خطاف صنارة علّقت عليه ذبابة (ماي)

42 - شجرة التين الأحمر: شجرة معمرة تشبه الشمسية العملاقة وتعيش في أرخبيل جزر الكناري.

اصطناعية ، ما يجعله أبعد ما يكون عن شخص رياضي. هل تسمعي؟ قال. لكن هذا لا شيء مقارنة بوجهه الذي كان - بأسف أقول هذا - يشبه وجهي، الشاربان التافهان نفساهما، عينا النمس نفساهما، ثقباً الأنف نفساهما، والشفتان الرقيقتان الحمران كأنهما محفتان لكثرة ما حاول أن يخرأ لسانه. إذن، قال. استدرتُ إلى ناري. كانت متماسكة، أُلقيتُ عليها الحطب. أكلّمك منذ خمس دقائق، قال. سرتُ نحو المأوى فسدَّ الطريق أمامي. لاحظ آني أعرج فتجاسر. أنصحك بالردّ فوراً، قال. لا أعرفك، قلت. وضحكْتُ حقيقة. هل يرغب السيّد في إلقاء نظرة على خريطتي؟ قال. لن تنفعني في شيء، قلت. اقترب مني أكثر. تنحّ! قلت. هو الذي ضحك هذه المرة. ترفض إجابتي؟ قال. بذلتُ مجهوداً جبّاراً. ماذا تريد أن تعرف؟ قلت. لا بُدَّ أنه اعتقد بأنّ عاطفتي قد لانت. أفضل ذلك، قال. استنجدتُ بطيف ابني الذي قد يعود في أي لحظة. أخبرتك بذلك من قبل، قال. ارتعشت. هل لك أن تعيد، قلت. لنختصر. سألني إن كنت رأيتُ شيخاً يتوكأ على عصا. وصفه بشكل رديء. صوته بدا لي قادماً من بعيد. لا، قلت. كيف لا؟ قال. لم أر أحداً، قلت. مع أنّه مرّ من هنا، قال. لزمْتُ الصمت. منذ متى وأنت هنا؟ قال. جسمه أصبح باهتاً كأنّه ينقسم. ماذا تفعل هنا؟ قال. أنت حارس في هذه المنطقة؟ قلت. مدّ يداً صوبي. أظنّ آني طلبت منه أن يرحل عن هذا المكان. أذكر اليد، مُبَيضة، تُفتح وتُغلق. كأنها تنقبض وحدها. لا أدري ما الذي يحصل، لكن لاحقاً بعد فترة ليست قصيرة وجدته ملقى على الأرض برأس مفروم. آسف لأنّي لا أستطيع على وجه الدقّة شرح الظروف التي حفّت بذلك وأدّت إلى نتيجة مماثلة. كم كان ذلك سيّسكل فقرّة رائعة. لكنّي لم أبلغ ما بلغته في روايتي كي أنخرط في الأدب. شخصياً لم يكن لديّ شيء، بلى، بعض الخدوش التي لن أكتشفها إلّا في الغد. ملتُ عليه، وأنا أفعل أدركتُ أنّ ركبتي تنثني من جديد. لم يعد يشبهني، أمسكْتُ به من كاحله ورحتُ أجّره إلى المأوى مشياً إلى الخلف. حذاؤه يأتلق بطبقة سميكة من المُلتمع الدهني. كانت على جوربيه رسوم مُشفّرة. بنظلولونه المرفوع يُغطّي لحمه الأبيض وشعر الفخذ. كاحله كان نحيفاً وناتئ العظم مثلي تماماً. كان في وسع أصابعي أن تحيط

به. كان يحمل حماليتي جوارب إحداهما انكسرت وتدلّت. هذا التفصيل أثار شفقتي. حاذيتُ النار ثانية. وتصلّبت ركبتي مرّة أخرى. لم تعد بي حاجة إلى المرونة. عدتُ إلى المأوى وأخذتُ معطف ابني. ثم عدتُ إلى النار وتمددت متدنّراً بالمعطف. لم أنم أبداً. بيد أنّي غفوت قليلاً. كنتُ أسمع بومة. لا لم تكن بومة لأنّ الصّوت كان أقرب إلى صياح كصفير القطار. أسمع بلبلًا وخشخشة بعيدة. لو علمتُ أنّ هناك طيوراً أخرى تشدو في اللّيل لكنتُ سمعتها. أرى النار تحتضر. وجهي بين كفتي أنتظر قدوم الفجر، بالكاد جاء نهضتُ ودخلتُ المأوى. هو أيضاً لديه ركبتيان متصلّتان قليلاً. أمّا مفاصله القطنيّة فما زالت قادرة على اللّعب لحسن الحظّ. جرجرته إلى الدّغل. كنتُ بين الحين والحين أتوقّف للرّاحة، لكن دون أن أفلت السّاقين كي لا أضطر لأنحني للإمساك بهما مرّة أخرى. ثمّ هدمت المأوى وغطيتُ الجسم بالأغصان التي كنتُ التقطتها. جهزت كلتا الحقيبتين وأخذتُ المعطف والمطرية. كنتُ أرفع المخيمّ بعبارة أخرى. لكن بدل أن أرحل حظيت ببعض الوقت لأثبت من أنّي لم أنس شيئاً. غير مُعوّل على عقلي وحده، لأنّني فتشت جيوبي وألقيتُ نظرة حولي. وأنا أفتش جيوبي انتبهتُ إلى غياب مفاتيحي. غياباً لم يكن عقلي المجرّد ليخبرني به. انتهى بي الأمر بإيجادها ملقاة على الأرض. كانت الحلقة مكسورة. في الواقع وجدتُ السلسلة ثمّ المفاتيح ثمّ الحلقة مكسورة. وبما أنّي لم أكن قادراً حتّى بواسطة المطرية على الانحناء لالتقاط مفتاح في كلّ مرّة فقد وضعتُ المعطف والمطرية والحقائب على الأرض وتمددت على بطني وسط المفاتيح. على هذا النحو كان من السّهل عليّ جمعها. المفتاح الذي لم يكن في متناول يدي، أزحف نحوه وأنا أسحب نفسي معتمداً على العشب. كنتُ أمسح كلّ مفتاح ألتقطه قبل أن أضعه في جيبي كان ذلك ضرورياً أم لا. ومن حين إلى آخر كنتُ أنصب قليلاً على يديّ لأشرف على المشهد بصورة أفضل. بعض المفاتيح انتبهتُ إلى وجودها بتلك الطريقة، كنتُ أتحرج كأسطوانة لألتقطها. لما لم أعد أجد المزيد منها قلتُ لنفسِي، لا فائدة من عدّها فأنا لا أعرف كم كانت. ورحتُ أبحث بعينيّ. لكن أخيراً قلتُ، لا بأس سأكتفي بالمفاتيح التي

جمعتهما. وأنا أفتش المكان بحثاً عن المفاتيح عثرتُ على أذن، سرعان ما  
 رميتُ بها في الدغل. الأمر الأغرب هو أنني وقعتُ على غطاء رأسي الذي  
 ظننتُ أنني أحمله! أحد الثقوب الذي يمرّ من خلاله المطاط اتسع إلى أن  
 بلغ حافة الحافة إن جاز التعبير. فلم يعد ثقباً بل فتحة. أما الثقب الآخر فلم  
 يستسلم إذ ما زال طرف المطاط الآخر في مكانه. في النهاية، قلت، عليّ  
 الآن أن أنهض وبنظرة فاحصة سأفقّد المكان للمرة الأخيرة. هذا ما قمتُ  
 به فعلاً، عندها وقعتُ على الحلقة. النصف أولاً ثم النصف الآخر. لمّا لم  
 أجد شيئاً يخصني أو يخص ابني حملت الحقائق، ثبتتُ قبعة القش جيداً فوق  
 جمجمتي، طويتُ معطف ابني على ذراعي، أخذتُ المطريرة ورحلت. غير  
 أنني لم أبتعد فسرعان ما توقفت في قمة تلة حيث تسهل المراقبة دون جهد  
 يُذكر. لاح لي مكان التخيم والريف المجاور. وخطر لي أن الأرض في هذه  
 المنطقة وحتى غيوم السماء قد اختارت موضعها على نحو يقود البصر بعذوبة  
 إلى مكان التخيم كما لو أنها لوحة محترف كبير. اتخذتُ وضعية مريحة قدر  
 الإمكان. تخلصتُ من أحمالي وأكلتُ علبه سردين كاملة وتفاحة. تمددت  
 على بطني مفترشاً معطف ابني. كنتُ تارة أستند إلى مرفقي في الأرض  
 جاعلاً فكيّ بين يديّ، الأمر الذي يمنحني فرصة أفضل لأشرف على الأفق،  
 وتارة أتوسّد يديّ على الأرض مباشرة. خمس دقائق للأولى وخمس دقائق  
 للثانية. دائماً ممدداً على بطني. كان في وسعي استخدام الحقائق كوسادة  
 لكنني لم أفعل. لم يخطر لي ذلك. انقضى اليوم هادئاً دون مفاجآت، ولا  
 واحدة. كلب قطع عليّ رتابة ذلك اليوم الثالث عندما حوّم حول بقايا النار  
 أولاً ثم وهو يدخل الدغل. لكنني لم أره يخرج منه. إمّا أنني لم أنتبه أو أنّه قد  
 خرج من الجهة الأخرى، أي أنّه في الحقيقة لم يفعل شيئاً سوى عبور الدغل  
 من الجانب إلى الجانب. انهمكتُ أصلح قبعتي بإحداث ثقب محاذ للقديم  
 بواسطة مفتاح علبه السردين، وأدخلتُ فيه المطاط مجدداً. أصلحتُ الحلقة  
 أيضاً بدمج النصفين، أحدهما داخل الآخر. أعدتُ إليها المفاتيح وربطتُ  
 السلسلة الطويلة ثانية. وكفي لا أشعر بثقل الوقت رحتُ أطرح على نفسي  
 الأسئلة وأرغمها على الإجابة. إليكم بعضها.

سؤال. ترى ما الذي أصبح عليه القلم المائي الأزرق؟  
إجابة.

سؤال. الهرم صاحب العصا، ألا يكون قد شكّ في شيء؟  
إجابة. احتمال كبير.

مكتبة

t.me/t\_pdf

سؤال. ماهي حظوظ براءته؟  
إجابة. ضعيفة.

سؤال. هل عليّ إخبار ابني بما حدث؟  
إجابة. لا، لأنّه عندها سيكون من واجبه أن يخبر عني.  
سؤال. هل سيخبر عني؟  
إجابة.

سؤال. بم أشعر؟  
إجابة. كالعادة تقريباً.  
سؤال. أرغمّ آتي تغيّرتُ وأتغيّر دائماً؟  
إجابة. نعم.

سؤال. مع ذلك أحسّ بأنّي كالعادة؟  
إجابة. نعم.

سؤال. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟  
إجابة.

تلك الأسئلة وأخرى كانت تفصل بينها فترات زمنية طويلة نسبياً ليس فقط أحدها على الآخر. لكن بينها وبين أجوبتها أيضاً. والأجوبة لم تكن دائماً تجري حسب ترتيب الأسئلة. بل وأنا أبحث عن إجابة أو أجوبة عن سؤال معيّن، أجد إجابة أو أجوبة عن سؤال طرحته على نفسي وعجزت عن الإجابة عنه. بمعنى أنّي لم أعرف إجابته. أو أجد سؤالاً أو أسئلة أخرى تطالني بدورها بأجوبة فورية.

الآن لو نقلتُ اهتمامي للحظة الحاضرة يمكنني الجزم بأنّي كتبت هذه

الفقرة بيد واثقة وبضمير مطمئن كما لم أفعل منذ زمن طويل. لأنني، عندما تصبح هذه الأسطر متاحة للقراءة، أكون قد ابتعدتُ ولا أحد يفكر باللاحق بي ولن يسمح بمعاقبتي لأجل خطأ ارتكبته أثناء أدائي لعملي. ابني لن يؤخذ بذنبي، لكنهم سيشكونه لأن له أباً مثلي وستهافت عليه شركات التأمين والإرشاد المرموقة من كل جانب.

هكذا انقضى يومي الثالث، ومع حوالي الخامسة أكلتُ آخر علة سردين في حوزتي وبعض البسكويت بشهية كبيرة، حتى إنني لم أعد أملك سوى حبّات تفاح والقليل من البسكويت. مع حوالي السابعة لما أوشكت الشمس على المغيب جاء ابني. كنتُ سأغفو إذ لم أرَ له أثراً في الأفق، ثم راح يكبر بمرور اللحظات كما توقعتُ تماماً. في البداية كان بيني وبين المخيم متجهاً نحو هذا الأخير لما انتبهتُ إليه. انتابني هيجان كبير ونهضتُ بحيوية وأنا أصرخ وألوح بالمطرية. استدار وأشرتُ إليه بالاقتراب وأنا أحرّك المطرية كأنني أحاول تعليق شيء على مقبضها. لوهلة ظننتُ أنه سيتحدّاني ويواصل طريقه نحو المخيم، نحو مكان التخيم بالأحرى. إذ لم يعد هناك مخيم. لكنّه اتجه نحوي، كان يدفع درّاجة ولما وصل إليّ أفلتها من يده بحركة توحى بأنّه لم يعد يحتمل. ارفعها كي أراها، قلت. في الواقع لا بدّ أنّها درّاجة جيّدة. أصفها بكلّ سرور. بكلّ سرور يمكنني أن أكتب في شأنها أربعة آلاف كلمة. هذه هي دراجتك؟ قلت. وبما أنّي أملك فقط نصف يقين بأنّه سيحميني فقد استغرقت أجليها. كان في صمته لا أدري أيّ شيء عادي جعلني أرفع بصري ناحيته. عيناى تخترقانه. ماذا حلّ بك؟ قلت. سحب بنظولوني مفتوح؟ أفلت الدّراجة ثانية. ارفعها، قلت. رفعها. ماذا فعلت بنفسك؟ قال. لقد سقطتُ، قلت. سقطت؟ قال. نعم سقطتُ، صرخت، ألم تسقط يوماً؟ حاولت استحضار النبتة التي تولد من قذف المشنوقين والتي تبكي لو حاول أحدهم قطفها. كم دفعتُ فيها؟ قلت. أربعة جنيهات، قال. أربعة جنيهات، صرخت. حتى لو قال لي جنيهين أو ثلاثين شلن لكانت لديّ ردّة الفعل نفسها. طُلب منّي أربعة جنيهات وخمسة شلن، قال. هل لديك

الوصل؟ قلت. لم يكن يعرف ماذا يعني الوصل، بيد أنني أظنه يعرفه مثلي تماماً. لأنني لو طلبتُ منه أن يشرح لي ما معنى وصل لتفاني في الإجابة. في أعماقي كان سيان بالنسبة إليّ أن يكونوا قد باعوه الدراجة بأضعاف ثمنها أو أن يكون قد استولى على قسم كبير من المال المخصص للصفقة. لستُ ممن يطمعون في جيوبهم. هات العشرة شلن، قلت. أنفقتها، قال. كفى. كفى. راح يُفسر لي أنّ المحلات كانت مغلقة خلال اليوم الأوّل وآته في اليوم الثاني ————— كفى. كفى، قلت له. تأملتُ حقيقة الأمتعة. كانت أفضل ما في الدراجة. إضافة إلى منفاخ. يعمل على الأقل؟ قلت. نال منّي الإعياء على بعد ميلين من «هول»، قال. وواصلتُ بقية الطريق مشياً. نظرت إلى حدائه. انفخ هذه، قلت. أمسكتُ بالدراجة. لا أدري تحديداً أيّ عجلة يجب نفخها. ما إن يظهر لي شيان متشابهان أضيع تماماً. غشني. ضاع الهواء بين الأنبوب والصمام الذي تعتمد عدم إحكامه جيّداً. أمسك الدراجة وهات المنفاخ، قلت. سرعان ما تصلّب إطار العجلة. رمقت ابني بنظرة. احتجّ. أخرسته. بعد دقائق جسستُ الإطار. لم يفقد من صلابته شيئاً. أنت بائس، قلت. قدّم لي من جيبه علبة شكلاطة. أخذتها من يده. لكن بدل أن أكلها مع اشتهائي لها ورغم أنّي أكره التبذير، فقد رميتها بعيداً بعد تردد وجيز. لكن لحظة التردد تلك، تمنيت لو أنّ ابني لم يتفطن إليها. كفى. نزلنا إلى الطريق. كان بالأحرى مسلكاً ضيقاً. حاولتُ الجلوس على حقيقة الأمتعة. قدم ساقي القاسية ترغب في أن تُدفن في قبر تحت الأرض. افترشتُ حقيقة الظهر. أمسكها جيّداً، قلت. لم تكن كافية فأضفت الجراب نتوءاته تخزني في مؤخرتي، كلّما قاومتُ الأشياء ثابرتُ. مع مرور الوقت فقط بأسناني وأظفاري سأخرج من أحشاء الأرض حتّى أصل إلى قشرتها رغم علمي بأنّي لن أستفيد شيئاً. وعندما أفقد كلّ أظفاري وأسناني سأستمرّ في الخربشة بعظامي. في كلمات هذا هو الحلّ الذي خلصتُ إليه. الجراب أولاً ثمّ حقيقة الظهر ثمّ معطف ابني المطويّ على أربع، الكلّ مربوط بعناية بطرف الخيط المتدلّي من ابني حتّى حقيقة الأمتعة وحتّى دعامة المقعد. المطرية علقتها على عنقي، لأحرّر كلتا يديّ اللتين سأمسك بهما ابني من

خصره، لا تحت إبطه لأنني أخيراً صرْتُ معلقاً أعلى منه. هيا دوس! قلت.  
 قام بمجهود يائس. كم وددتُ أن أصدقه. سقطنا. أحسستُ بألم حادّ في  
 قصبتي. اشتبكتُ كلياً بالعجلة الخلفية. ساعدني! صرخت. ساعدني ابني  
 على النهوض. تمزّق جوربي ونزف فخذي. لحسن الحظّ كانت الساقُ  
 المريضة. ماذا كنتُ سأفعل لو تعطبت كلتا ساقَيّ؟ كنتُ حتماً سأنصرف.  
 بل ربّما تحوّلت الضارة إلى نافعة. فكّرتُ بالطبع في الفصد. هل أُصبتُ؟  
 قلت. لا، قال. هذا بديهي. وجهتُ له ضربة عنيفة بالمطرية على عرقوبه.  
 حيث التمع لحمه العاري بين الكيلوت والسروال الداخلي. صاح. تريد أن  
 تقتلنا؟ قلت. لم تكن لي القوة، قال، لم تكن لي القوة. لم يطرأ شيء على  
 الدّراجة، ربّما كانت العجلة الخلفية قد دُهِست قليلاً. فوراً أدركتُ خطئي.  
 لم يكن. لم يكن صائباً أن أجلس رافعاً ساقَيّ قبل أن تنطلق الدّراجة. فكّرتُ.  
 سنحاول ثانية، قلت. لا أقدر، قال. لا تدفع بأعصابي إلى الذروة، قلت.  
 تخطّى الإطار بساقيه. نطلق بهدوء حالماً أعطيك الإشارة، قلت. اتّخذت  
 مكاني في الخلف. جلستُ، ساقاي لا تلامسان الأرض. هكذا يجب. انظر  
 الإشارة، قلت. ترحّضتُ ناحية اليمين إلى أن أحسستُ بقدم ساقَيّ السليمة  
 تلامس الأرض. لا أثقل على عجلة الدفع سوى بساقَيّ المريضة التي أمكنتني  
 بعناء رفعها وإفراجها قليلاً. ضغطتُ بإصبعي على ستره ابني. تقدّم بلطف،  
 قلت. دارت العجلات. أراقب الوضع نصف منساق، نصف قافر. خفتُ  
 كثيراً على خصيتيّ المتدليّتين. أسرع! صرخت. ضغط على الدّواسة بقوة.  
 في إحدى الوثبات استويّتُ جالساً باستقامة واتّزان في مكاني. ترنّحت  
 الدّراجة واستعادت توازنها. ازدادت سرعتها. أحسنت! صرخت بسعادة  
 جنونية. مرحى! صرخ ابني. كم أكره هذا النوع من التعجّب. كدتُ أن لا  
 أكتبها. كان مسروراً مثلي، أظنّ. أحسّ نبض قلبه تحت راحة يدي رغم أنّها  
 كانت بعيدة عن قلبه. لحسن الحظّ انحدر المسلك. ولحسن الحظّ كنتُ قد  
 أصلحتُ قبعتي وإلا حملتها الريح. ولحسن الحظّ أنّ الطقس كان جميلاً،  
 وأنني لستُ وحدي، لحسن الحظّ، لحسن الحظّ. وهكذا وصلنا إلى «باليا».  
 لن أعرج على العراقيل التي اعترضت سبيلنا والتي كان علينا تخطّيها،

والأشرار الذين احتلنا عليهم وزوغان الابن أثناء القيادة وانهيأ الأب. كانت لديّ النية والرغبة في رواية كلّ هذا. أنتشي لمجرد أنّي سأكون قادراً على القيام بذلك في وقت لاحق. لم تعد لديّ نية القيام بذلك في الوقت الحالي، وإن كان الأوان قد حضر فإن الرغبة قد غادرتني. ركبتي ليست على ما يرام. اندمل جرح قصبتي. لم أكن لأصل وحدي أبداً، أنا مدين لابني. ماذا؟ كوني وصلت. كان يشكو من مشاكل صحيّة في بطنه وأسنانه. كنت أعطيه المرفين. سحته تبدّلت نحو الأسوأ. عندما أسأله ما الذي يحدث له فإنّه غالباً لا يجد بما يردّ. كانت الدراجة تسبّب لنا في الإزعاج. لم يكن الوضع محتملاً. لقد سئمت. لم أكن لأصل لولا ابني. دامت الرحلة وقتاً طويلاً. أسابيع. لكثرة ما أوغلنا في طرقات خاطئة وبسبب تباطئنا. لم نكن على عجلة من أمرنا. ما زلتُ لا أعلم ما الذي يتوجّب عليّ فعله بمولوي لو صادفته. لم أعد أفكر في الموضوع. صرْتُ أفكر في نفسي كثيراً وأنا راكب خلف ابني رأسي أعلى من رأسه، أفكر في التخيم أيضاً، في مشاغله وأثناء غيابه. فقد كان يتغيّب من حين إلى آخر كي يسترشد أو يشتري لنا مؤونتنا. خلاصة القول لم أكن أفعل شيئاً. يجب أن أعترف بأنّه يعتني بي جيداً. كان صفيقاً، أحمر، بطيئاً، قذراً، كذاباً، مُبذراً، خبيثاً، فاسياً قليلاً لكنّه لا يتخلّى عني أبداً. أفكر في نفسي كثيراً.

كنتُ فقط ألقى النظرات من حين إلى آخر. أغمض عينيّ، أنسى وأستأنف. قضينا وقتاً طويلاً في الرحلة قبل الوصول إلى «باليا»، ووصلنا دون أن نشعر بذلك. توقّف! أمرتُ ابني ذات يوم. كنتُ قد لمحتُ راعياً أعجبني هيئته. كان جالساً على الأرض يداعب كلبه. حولهما كانت تهيم غير خائفة خراف سوداء قليلة الصّوف. إلهي أيّ بلاد رعويّة هذه!

تركت ابني على حافة الطريق والتحقّت بهم عبر المرج. كنتُ أرتاح بين الفينة والفينة متكلّناً على المطرية. لم يتحرك الراعي لدى مجيئي. الكلب أيضاً لم ينبع. الخراف أيضاً. شيئاً فشيئاً عندما صرت على بعد خطوات التفتوا إليّ الواحد تلو الآخر. تراجع قليل إلى الوراء وضربات خفيفة على

الأرض هي الأشياء الوحيدة التي وشت بارتباك ضئيل بالنسبة إلى خراف لم تكن حذرة. ابني طبعاً كان يراقبني أبتعد، أحسست بنظراته على ظهري. كان الصمت رهيباً. أعني عميقاً. ومع دمج اعتبارات لغوية كثيرة يمكن القول بأنها كانت آونة رسمية.

الطقس كان عذبا، إنه المساء. كنتُ كلما توقفت. جُلْتُ يبصري في المكان، الراعي، الكلب، الخراف وحتى السماء. وأنا أمشي لم أكن معنياً سوى بالأرض وبلعبة ساقِي، السليمة وهي تتقدم إلى الأمام، تشني، تركز على الأرض، تنتظر لحاق الأخرى بها. أخيراً توقفت على بعد عشر خطوات من الراعي. لم يكن هناك داعٍ للاقتراب أكثر. كم كان رائعاً أن أستلقي فوقه. كلبه يحبه، أما الخراف فهي لا تخافه، لاحقاً عندما يشعر بالرتوبة سينهض. كان المرعى بعيداً، بعيداً. من بعيد كان يلمح ضوء بيته. أنا الآن أقف وسط الخرفان، تحلقت حولي، وصوّبت أنظارها نحوي. ربّما كنتُ في ظنها الجزار الذي سيختار من بينها عما قريب. رفعتُ قبعتي، بعينه تبع الكلب حركة يدي. نظرت حولي دون أن أنبس بكلمة. لم أكن قادراً. لم تكن لديّ فكرة عن الطريقة التي سأكسر بها الصمت. كدتُ أعود أدراجي دون سؤال. أخيراً نطقتُ، «باليا» بنبرة أتمنى أن تكون استفهاماً. انتزع الغليون من فمه وبأنبويه أشار إلى الأرض. كانت لديّ رغبة جامحة في أن أقول له خذني معك وسأصبح خادمك المخلص مقابل الكوخ والأكل فقط. فهمتُ قصده لكن بدا عليّ العكس فأعاد الحركة موجّهاً أنبوب الغليون إلى الأرض مرّات عديدة. «بالي»، قلت. رفع يده، تردّدت اليد لحظة كأنها فوق خريطة، ثمّ تسوّت. دخان الغليون لَوّن الهواء بالأزرق ثمّ تلاشى. نظرت إلى الاتجاه الذي أشار إليه. الكلبُ أيضاً. استدرنا ثلاثنا ناحية الشمال. قلّ اهتمام الخراف بي. ربّما فهمت. أسمعها تستأنف الاجترار والمشي. لمحت في الأفق عند نهاية السهل توهجاً مشوشاً كأنه ألف شعاع واضح وضبابي في آن بفعل المسافة. إنها مجرة، يبدو ذلك كتصدّع في الخط المستقيم المظلم للأفق. أشكر المساء لأنّه يمنحنا الفرصة لنرى النجوم في السماء وأضواء

الأشياء الجسورة على الأرض. خلال النهار ربما كان الراعي سيرفع غليونه عبثاً صوب الصواري الواضحة بين السماء والأرض. لكنني أشعر بهما الآن، الرّجل والكلب وهما يستديران نحوي. كان الرّجل يسحب أنفاساً من غليونه آملاً أن لا ينطفئ. لم أعرف غيري تأمل هذا الألق البعيد الذي يومض، يتأجج، يتأجج ثم فجأة ينطفئ. يزعجني أن أكون وحدي مع ابني ربّما، لا، وحيداً في اندهاشي أيضاً. وتساءلتُ كيف يمكنني أن أنسحب دون شعور بالتقرّز، دون شعور بالشفقة. فجأة شيء ما كزفرة ارتياح كبيرة حفّت بي وطمأننتني بأنني لستُ من عليه أن يرحل بل القطيع. رأيته يتعد على رأسه الرّجل. الخراف متراصة ملتصقة بعضها ببعض. الرؤوس منكسة، تتزاحم، تتدافع من حين إلى آخر مهرولة، مقتلعة من الأرض آخر لقيمات في ذلك اليوم، وأخيراً الكلب الذي راح يتمايل مُحركاً ذيله الأسود الريشي كنوّاس، رغم أن أحداً لم يكن يلحظ رضاه، إن كان ذلك رضا. وهكذا راحت العشيرة تتقدّم بنظام صارم دون أن يكون على المعلم الصراخ أو على الكلب التدخّل. في اتجاه الزريبة أو المحمية بلا شك. هناك سيحيد الراعي قليلاً ليفسح المجال لدوابه وليرضي ضميره ويُسعدّها أثناء مرورها أمامه. ثم يذهب إلى البيت. باب المطبخ مفتوح، المصباح يضيء، يدخل ويتخذ مكاناً إلى الطاولة دون أن ينزع قبعته. لكن الكلب سيقف حتماً عند العتبة غير واثق مما لو كان سيسمح له بالدخول أو أن عليه قضاء الليلة في الخارج. ليلتها حدثت لي مع ابني واقعة عنيفة. لا أدري حول ماذا. انتظروا فالأمر مهم. لا، لا أدري، فكثيرة هي الوقائع التي عشتها مع ابني. حيثُ لا بُدَّ أنّه بدا لي مشهداً كغيره. هذا كلّ ما أعرفه. لعلي تطرّقت فيه إلى تقنية مجرّبة، أن أثبت له بحرفيّة حجم أخطائه. لكن في اليوم الموالي اكتشفت بأنني لم أكن على صواب. لأنني عندما استيقظت باكراً وجدت نفسي وحيداً في المأوى، أنا الذي لا أحد يسبقني. بل وحيداً مدّة طويلة. حدسي أخبرني بذلك. مضى وقت طويل لم تمتزج فيه أنفاسي مع أنفاس ابني في المأوى الضيق الذي شيده تحت إشرافي. لا بُدَّ أنّه غادر مع أوّل خيوط الفجر. ركب الدراجة

ورحل ليلاً. في حد ذاته لا يشكّل هذا مأزقاً يبعث على القلق. كنت سألتمس له الكثير من الأعذار وأعثر على تفسير عديدة لما قام به فقط لو وقفت الأمور عند هذا الحد. للأسف أخذ معه حقيبة الظهر والمعطف. ولم يبقَ في المأوى وخارجه غرض يخصّه. لا شيء على الإطلاق. ليس هذا فقط بل لقد أخذ معه مبلغاً محترماً من المال، هو الذي لا يحقّ له أن يحمل معه أكثر من بضع بنسات من وقت إلى آخر ليضعها في حصّالته الإيطالية. فمنذ أصبح يهتم بكل شيء تحت إدارتي طبعاً، وخصوصاً الشراءات، صرت أثق فيه إلى حد ما. وكان يُبقي لنفسه مبلغاً أكثر بقليل أو مساوٍ بدقّة لما يحتاج إليه، ولتبدو الأشياء أكثر واقعية أضيف التالي.

1. أرغب في أن أعلمه مسك الحسابات من طرفيها، كنت قد لقّنته مبادئها الأساسية.

2. أشعر بأنّي فقدت شجاعة الاهتمام بالتعاسة التي كانت قديماً تصنع بهجتي.

3. قلْتُ له بأن يتبه جيّداً خلال الجولات القادمة لأجل درّاجة ثانية خفيفة يكون ثمنها مناسباً. لأنّي اكتفيتُ من حقيبة الأمتعة، وأرى اليوم الذي لن يتمكن فيه ابني من إيجاد القوّة ليدوس ونحن فوقها. كنتُ أظنّ أنّي قادر، ماذا أقول، كنتُ أظنّ أنّي قادر مع قليل من التمرين على أن أجيد التدويس بقدم واحدة. وهكذا احتلّ مرّة أخرى مكانتي التي تليق بي، القيادة. عندها سيتبعني ابني. على هذا النحو لن تحدث تلك الفضيحة تحت تعليماتي وأنا أطلب منه الانعطاف يساراً فيتخذ اليمين أو الانعطاف يميناً فيتخذ اليسار أو إلى الأمام حين أطلب منه الانحراف يميناً أو يساراً، خصوصاً أنّ الظاهرة تكرّرت كثيراً خلال الفترة القصيرة الماضية. هذا كلّ ما أردت أن أضيفه.

لكن وأنا أفتش في حافظة أوراقي، لم أجد سوى خمسة عشر شلن، هذا يعني أنّ ابني لم يكتفِ بالمبلغ الذي بقي في حوزته بل أكثر من ذلك فقد نهب جيوبي أثناء نومي قبل أن يرحل، ردّة فعلي الأولى جاءت غريبة فقد

اعترفت له روعي بالجميل لأنه ترك هذا المبلغ الصغير الكافي لأتدبر أمري إلى حين قدوم النجدة، بل إن فيها نوعاً من العطف.

وجدت نفسي إذن وحيداً مع الجراب والمطربة التي كان في إمكانه أن يحملها معه وبخمس عشرة شلن أيضاً. ووعيت تماماً أن ابني أهملني بدم بارد عن قناعة وإضمار في «بالي»، لو شئتم، إن كنت حقاً فيها، لكنني ما زلت بعيداً عن «بالي». وبقيت أياماً عديدة في المكان نفسه الذي أهملني فيه، أقتات على آخر مذكراتي (لا شيء كان يمنعه من أخذها معه) لا ألتقي كائناً حياً واحداً. عاجزاً عن الحركة، أو ربّما جريئاً كفاية كي أفعل شيئاً. كنت متعلّلاً، واثقاً تماماً أن كل شيء سينتهي أو يرنّد، لا يهمّ، ولا يهمّ بأيّ طريقة. ليس أمامي سوى الانتظار. بل رحتُ أتسلّى من بعيد بفسح المجال لأمل طفوليّ بأن ينمو في داخلي ليسهل سحقه، مثلاً أن يهدأ غضب ابني وتخدم ثورته فأثير شفقه ويعود إليّ. أو أن يأتي مولوي، ابن البلاد، إليّ حيث أنا، ما دمتُ لم أقدر على الذهاب إليه لأتخذ منه صديقاً، أباً، ويعينني على أداء مهمّتي بصورة لا تُغضب «يودي» منّي فلا يعاقبني! نعم الأمل ينمو، يترام، يتوهج ويتجمل بألف تفصيل ساحر. ثمّ باشمئزاز أكنسه بضربة عنيفة واحدة. أظهر نفسي وأراجع لأنأمل الفراغ الذي لوّثه.

عند المساء أهتمّ بشغف متزايد بأضواء «بالي»، فلا ألبث أراقبها تسطع ثمّ تنطفئ في آن واحد تقريباً. وميض مقبت وأضواء صغيرة لأناس مرعوبين. وقلت في نفسي، أن أصل ربّما دون هذا الشرّ الذي يحدث لي! وهذا الـ «أوبيديل» الذي كدتُ أدخل معه في حوار والذي كمّ وددتُ رؤيته من قريب، لم أره لا من قريب ولا من بعيد. لعلّه لم يوجد يوماً فأنا لا أفلح في القبض على لقطة واضحة تنفي ذلك. وبمجرد التفكير في عقوبة «يودي» انتابتني نوبة ضحك كبيرة خلخلتني بلا أدنى صوت يُسمع أو أن يعبر وجهي عن أمر غير الشجن والهدوء. لكنّ جسمي اهتزّ بالكامل حتّى ساقيّ، إلى درجة أنني اضطررت إلى الاعتماد على شجرة، أو شجيرة، حين يجتاحني الضحك وأنا واقف فإنّ المطربة وحدها لا تعود كافية لإبقائي قيد التوازن.

ضحك غريب إن كان حقاً ضحكاً. وفكرت أنني أسميه كذلك بداعي الكسل أو الجهل ربّما. أمّا بالنسبة إليّ فهي مضیعة للوقت، يجدر القول إنني لا أفكر إلّا فيها. ويخطر لي أحياناً أنني على مسافة بعيدة وأنني أقرب كموجة تتضخم وتبيض، استعارة رديئة في وضع كوضعي الآن. حيث أشبه خراء ينتظر أن يطرده الماء. وعليّ أن أذكر الآن الوخزة التي تلقاها قلبي، كان ذلك في بيتي، عندما طارت ذبابة فوق المنفضة رفعت القليل من الرماد بخفق جناحيها. وصرتُ سعيداً أكثر فأكثر. لم أكل شيئاً منذ أيام، كان في استطاعتي جمع القليل من الفطر وتوت العليق، لكنني لست مهتماً. أظّل كامل النهار مستلقياً داخل المأوى متأسفاً بشدة على معطف ابني. في المساء أخرج للضحك قبالة أضواء «بالي». ورغم الألم الذي يسببه لي تقلص معدتي وانتفاخها فإنني سعيد بشكل كبير، بل متحمساً ومسروراً بشخصيتي. وأقول في نفسي، عاجلاً سأفقد وعيي تماماً. إنها فقط مسألة وقت. لكن مجيء «جابر» وضع حدّاً لكل تلك المناوشات.

كان الوقت مساءً. وكنت قد خرجت في نزهة ضراط بعيداً عن المأوى لأحسّ بضعفي كما ينبغي. كان هنا منذ فترة. كان جالساً على جذع شجرة نصف نائم. أهلاً «موران»، قال. هل تعرفني؟ قلت. أخرج مفكرته وفتحها، بلّل إصبعه وراح يتصفّحها. عثر على الصّفحة المنشودة، قرّبها من عينيه في الوقت نفسه الذي قرّب فيه عينيه من المفكرة. لا أرى شيئاً، قال. كان يحمل ملابس المرأة السابقة نفسها. لقد ظلمته يومها إذن لما اعتقدت أنه يرتدي بذلة الأحد. إلّا إذا كان أحداً هذا أيضاً. في النهاية ألسْتُ دائماً أراه في هذه الملابس؟ هل معك ثقاب؟ قال. أكاد لا أتعرف عليه بهذا الصوت البعيد. أو مصباح جيب، قال. لا بُدَّ أن شيئاً في وجهي لم يكن مضيقاً. أخرج من جيبه مصباحاً كهربائياً وأضاء الصّفحة. قرأ. «موران جاك» يعود إلى بيته مع وقف المهمة. أطفأ المصباح، أغلق المفكرة على إصبعه وحدّق فيّ. لا أقدر على المشي، قلت. كيف؟ قال. أنا مريض ولا أقدر على الحركة، قلت. لا أسمع شيئاً ممّا تقوله، قال. صرختُ في وجهه بأنني لا أقدر على المشي،

بأني مريض، بأني أحتاج إلى من يقلّني، بأنّ ابني تركني، بأني تعب. فحسني  
من رأسي حتّى قدمي. قمت بخطوات مستعينة بالمطرية كي أثبت له بأني  
أجد صعوبة في المشي. فتح مفكرته ثانية، أضاء صفحته، تطلّع فيها طويلاً  
وقال، «موران» يعود إلى بيته مع قطع المهمة. أغلق المفكرة. أعاد إلى جيبه  
اللّلمبة أيضاً. نهض. مرّ يده على صدره وقال بأنّه يموت عطشاً. ولا كلمة  
واحدة حول وضعي. في ذلك الوقت لم أكن قد حلقت وجهي منذ قدّم ابني  
من «هول» ومعه الدّراجة. لم أمشط شعري ولم أغتسل، هذا دون الأشياء  
الأخرى التي حرمتُ منها، والتحوّلات الداخلية الكبرى التي بتّ أعيشها.  
هل عرفتي؟ صرختُ. هل عرفتك؟ قال. فكّر. أعرف أنّه يبحث عن الجملة  
المهينة أكثر من غيرها ليجرحني بها، «موران» العزيز! قال. ترنّحت لشدة  
التعب. لو لفظتُ أنفاسي الأخيرة تحت قدميه لقال، آه «موران» العزيز لا  
يتغيّر أبداً. إنّهُ يزداد غموضاً يوماً بعد يوم. أتساءل إن كان هذا حقّاً «جابر».  
هل هو غاضب؟ قلت. ألا أجد لديك علبة؟ قال. سألتك هل هو غاضب  
مني؟ صرختُ. غاضب، قال «جابر»، يفرك يديه من الصّباح حتّى المساء،  
أسمعها من غرفة الجلوس. هذا لا يعني شيئاً، قلت. يضحك وحده طوال  
النّهار، قال «جابر». لا بدّ أنّه غاضب مني، قلت. هل تدري ماذا قال لي ذات  
يوم؟ قال. هل تغيّر؟ قلت. ماذا؟ قال «جابر»، هل تغيّر؟ لمّ قد يتغيّر، لا  
لم يتغيّر، هَرَم فقط هذا كلّ شيء، كجميع النّاس. لك صوت غريب هذا  
المساء، قلت. لا أظنّ أنّه سمعني، حسناً، قال وهو يمرر يده على صدره  
من الأسفل إلى الأعلى. يجب أن أرحل ما دمت لا تملك شيئاً لتقدّمه  
لي. ابتعد دون كلمة وداع. أمسكتُ به من كُمّه رغم التقرّز ورغم ضعفي  
وساقي المريضة. ماذا قال لك؟ قلت. توقّف «موران»، قال، لقد بدأت  
تجعلني أتغوّط. أتوسّل إليك أخبرني ماذا قال؟ دفعني. سقطتُ. لم يتعمّد  
طرحي أرضاً. ليس لديه علم بما وصلتُ إليه. أراد إبعادي فقط. لم أحاول  
النّهوض. أطلقتُ آهة. اقترب ومال عليّ. كان لديه شاربان كستنائيان على

طريقة الغاليين<sup>(43)</sup>، رأيتهما يهتزان. انفرجت شفتاه وبالكاد سمعته يهمس بكلمات تعاطف. «جابر» ليس فقط. أعرفه جيداً. «جابر» لست أطلب منك المستحيل قلت. أتذكر ذلك جيداً. أراد أن يساعدي على النهوض. دفعته عني. كنتُ حيث أنا. ماذا قال لك؟ قلت. لم أفهم قال «جابر». منذ قليل قلتُ إنَّ «يودي» قال شيئاً، هتفتُ، ثم قاطعتك. قاطعتني؟ قال «جابر». هل تدري ماذا قال لي ذات يوم قلتُ، هاهي جملتك كما نطقت بها. تألق وجهه، كان حيويّاً مثل ابني تقريباً، ذاك العملاق «جابر». قال لي ———، قال «جابر». إيه ———. أقوى، صرخت. قال لي، قال «جابر»، «جابر» الحياة شيء رائع، شيء عجيب. قرب وجهه من وجهي. شيء رائع، قال، شيء جميل ورائع. شيء عجيب. ابتسم. أغمضتُ عيني. الابتسامات شيء رائع وجميل، محفزة لكن تحتاج إلى التراجع إلى الوراء لأجل تأمل أفضل. قلتُ، هل كان يتحدث عن الحياة البشرية؟ أنصتُ. من يدري إن كان يتحدث عن الحياة البشرية، قلت. فتحتُ عيني. كنتُ وحدي. كانت يداي ممتلئتين بالتراب والعشب اللذين اقتلعتهما دون أن أشعر. ما أنفك أقتلعهما. أجتث الحشائش من جذورها. لما استعدتُ وعيي بالأشياء بدالي أن ما أقوم به بشع للغاية توقفت. فتحتُ يدي وسرعان ما أصبحت فارغة. في تلك الليلة بالذات اتخذت طريق العودة. لم أبتعد لكنها بداية صغيرة. ما يهم هي الخطوة الأولى. الخطوة الثانية أقل. كل يوم ألاحظ بأنني تقدّمت أكثر. هذه الجملة ليست واضحة، لم تحمل المعنى الذي قصدته. في البداية كنتُ فقط أحصي عشرات الخطوات قبل التوقف قائلاً، أحسنت لقد قمت بعشرات الخطوات، أنت تبلي أفضل من الأمس. ثم صرت أحصي خطواتي بالخمس عشرة ثم بالعشرين فالخمسين. أخيراً بتُّ قادراً على إنجاز خمسين خطوة قبل التوقف للراحة متكئاً على مطرتي المخلصة. لعلي همّت قليلاً في «باليا»، إن كنتُ حقاً فيها، قبل أن أتبع الطريق التي سلكناها لنأتي إلى هنا. لكن المسالك تغير شكلها، تصبح معكوسة. أكل بحكمة كل ما تهبه

الطبيعة والخشب والحقول والمياه من طعام صالح للهضم. انتهى مخزوني من المرفين.

تلقيت تعليمات بالعودة في شهر أوت أو سبتمبر كأقصى أجل. وصلت إلى بيتي في الربيع. ليست لدي الرغبة في أن أكون أكثر دقة من ذلك. مشيت الشتاء بأكمله. شخص غيري كان سيقرّر عدم النهوض من الثلج أبداً بمجرد أن يستلقي فوقه بعض الوقت. ليس أنا. فيما مضى اعتقدت دائماً أن الناس ليسوا في حاجة إليّ، ظننت دائماً أنني أكثر مكرراً من كل شيء. ثمة الناس وثمة الأشياء. لا تحدثوني عن الحيوانات، ولا عن الله. الأشياء التي تحدثني حتى لصالحي، لا تلبث تحدثني طويلاً. هذا الثلج مثلاً، وإن كان يدعوني إليه أكثر مما يبدي ناحيتي مقاومة. لكن من جهة ما هو يتحدثني. هذا يكفي. لقد انتصرت عليه وأنا أصرّ أسناني من الفرح. في الإمكان دائماً أن نصرّ القواطع. أفسح المجال أمام ما أسميه ضياعي فقط لو تشكّل لديّ وعي بما سأخسره. لعلّي وعبث ذلك دائماً أو لعلّي لم أنفك يوماً عن أن أعيه. الوقت كفيل بجعلنا نصل لكن خلال سفري لم أكن أعني ذلك من أعلى الرتبة كما اعتدت مجابهة خبث الأشياء والناس وخيانة جسمي لي. ركبتي بفضل تجاهلي لها لم تؤلمني، لا أقل ولا أكثر من اليوم الأول. الشرّ مهما كان نوعه لا يتطور أبداً. هل في وسع أحد تفسير أمر كهذا؟ لكن بالعودة إلى الذباب أعتقد أن هناك بينها من يفسد عند بداية الشتاء في المنازل، ويموت بعد وقت وجيز. نراها صغيرة جداً، تطير في الزوايا الدافئة، دون ضجيج أو اندفاع. أي واحدة من وقت إلى آخر. يجب أن تموت صغيرة قبل أن تتمكن من وضع البيض. نكنسها. ندفع بها بواسطة مكنسة نحو مجرفة دون أن تعلم شيئاً. ها هو أغرب جيل من الذباب. غير أنني صرت ضحية لعواطف أخرى أعمق بكثير، لا ليس هذا هو اللفظ. معوية في أغلبها. للأسف ليست لديّ الرغبة في ذكرها. كانت ستمنح النصّ مقطعاً إضافياً رائعاً. شخص غيري لم يكن ليتغلب عليها دون مساعدة. إنما أنا! منكفئاً على نفسي وييدي الحرة أمسك بيطني. أتقدم مطلقاً من حين إلى آخر أنين تضايق ونصر، بعض الطحالب

التي كنتُ أكلها ليست بريئة ممّا أنا فيه. لو ملأت رأسي بفكرة الوصول في الموعد بدّل الإصغاء إلى العذاب الذي أعيشه فإنّ التهايب النازف لم يكن ليمنعني من شيء. كنتُ سأ تقدّم على أربع متغوّطاً أمعائي ومصرياني، مدندناً ألعاناً ملعونة. قلتُ لكم من قبل إنّ إخوتي هم الذين سينقذونني.

لكنّي لن أذكر كلّ شيء عن رحلة العودة هذه. عن أهوالها وخياناتها. سأحجب عن الضوء الرجال الأشرار والأطيفاف التي حاولت منعي من العودة إلى بيتي كما أملى عليّ «يودي»، لكنّي مع ذلك سأكتب بعض الكلمات في هذا الشأن كي أشيّد نفسي وأضفي عليها روحاً قادرة على الاستنتاج. أولاً أفكارني النادرة.

- هناك بعض الأسئلة من النوع التولوجي تؤرقني حقاً. إليكم بعضها.
1. ماذا تساوي النظرية القائلة إنّ حواء لم تخرج من ضلع آدم، بل من ورم في فخذها (شرجه؟)؟
  2. هل يزحف الثعبان، أم إنّ كما أكّد كومستور<sup>(44)</sup> يمشي قائماً؟
  3. العذراء، هل تلقت الكلمة في أذنها كما أراد لها ذلك القديس أوغستينو وأدوبار؟
  4. المسيح الدجال، كم من الوقت سيجعلنا ننتظر أكثر من هذا؟
  5. هل للبد التي تنظف المؤخرة أهمية حقاً؟
  6. ما رأيك في قسّم الإيرلنديين؛ اليد اليمنى فوق مخلفات القديس والأخرى على العضو الفحل؟
  7. هل لدى السبت أيّ اعتبار لدى الطبيعة؟
  8. هل صحيح أنّ الشياطين لا يؤذيها عذاب الجحيم؟
  9. نظريات جريجوار الجبرية حول اللاهوت، ما رأيكم فيها؟
  10. هل صحيح أنّ القديس «روش» عندما كان طفلاً، كان يرفض الرضاعة أيام الأربعاء والجمعة؟

44- كومستور: أحد علماء اللاهوت الفرنسيين، وُلد سنة 1100 م من أهم مؤلفاته مختصر جامع لكلّ الأناجيل.

11. ماذا عن عقوبة طرد الدّود من الكنيسة في القرن السادس عشر؟
12. هل علينا أن نوافق الإسكافي الإيطالي «لوفات» الذي أخصى نفسه، فُصِّلِب؟
13. ماذا كان يفعل الله قبل الخلق؟
14. الإبصار غير المكثرت ألا يتحوّل إلى مصدر للمشاكل مع مرور الوقت؟
15. هل صحيح أنّ عذاب يهوذا يُعلّق يوم السّبت؟
16. لِمَ لا يُصلي الأموات على الأحياء؟
- ثمّ تلوّثُ على نفسي دعاءً صوفيّاً<sup>(45)</sup> جميلاً، إلهي الذي في السّماء والأرض والجحيم، لا أريد ولا أرغب في أن يُقدّس اسمك، أنت تعلم ما يناسبك، إلخ. الوسط والنهاية رائعان.
- إنّه إلى هذا العالم التافه والساحر سألجأ عندما يفيض كأسِي.
- بيد أنّي طرحْتُ على نفسي أسئلة أخرى تهمني من قريب. إليكم بعضها.
1. لِمَ لم أقرض «جابر» بضعة شلنات؟
2. لِمَ أطعْتُ أمر العودة؟
3. ماذا أصبح مولوي؟
4. السّؤال نفسه عني.
5. ماذا سأصبح؟
6. السّؤال نفسه عن ابني.
7. أمّه، هل هي في السّماء؟
8. السّؤال نفسه عن أمّي.
9. هل سأصعد إلى السّماء؟
10. هل سنلتقي في السّماء يوماً، أنا وأمّي وابني وأمّه و«يودي» و«جابر» ومولوي وأمّه و«يارك» و«مرفي» و«وات» و«كامبي» والآخرين؟
11. ما أخبار دجاجي ونحلي؟ دجاجتي الرماديّة، هل ما زالت تعيش؟

45- صوفيّاً: المعنى هنا هو مذهب الانقطاع للعبادة والزهد.

12. «زولو» والأخوات «السنر» أما زالوا على قيد الحياة؟

13. أما زال مكتب «يودي» في العنوان نفسه 8 ساحة الأكاسيا؟ ماذا لو كاتبته؟ ماذا لو زرتة؟ سأشرح له، ماذا كنتُ سأشرح له؟ ربّما كنتُ سأطلب منه الصّفح. على ماذا؟

14. ألم يكن الشّتاء قاسياً بصورة استثنائية هذه السّنة؟

15. كم مضى من الوقت دون أن أعترف أو أتناول القربان المقدّس؟

16. ماذا كان اسم الشّهيد المصفّد بالأغلال في السّجن، ذاك الذي غطّي الدّود جروحه والذي لم يكن قادراً على الحركة واحتفل بالتسخير<sup>(46)</sup> على معدته فمُنح الغفران؟

17. ماذا سأفعل حين موتي. أليست هناك طريقة أسرع بها موتي دون السّقوط في الإثم؟

لكن قبل أن أعطي إشارة البدء لجسمي مع كلّ تلك الوحدة المتجمّدة الموحلة، ثمّ مع ذوبان الجليد، كنتُ أفكّر نحلي أكثر من دجاجي، كنتُ أفكّر خاصّة في رقصه. لأنّ النحل يرقص، أوه طبعاً ليس كما يرقص البشر للتسلية لكن على نحو آخر. في فترة ما ظننتُ أنّي الوحيد في العالم الذي يعرف ذلك. قمتُ ببحوث معمّقة في هذا الشّأن. تلك الرّقصات يختصّ بها أكثر النّحل العائد إلى الخليّة مُحمّلاً بالكثير أو بالقليل من الرّحيق، لوحات وإيقاعات كثيرة جدّاً. في نهاية المطاف سجّلتُ قاعدة إشارات بواسطتها يعبر النّحل العائد للنّحل المغادر عن رضاه أو عن عدم رضاه على محصول الرّحيق ويُرشده إلى المرعى الذي عليه تجنّبه والذي عليه التوجّه إليه. والنّحل المغادر يرقص بدوره. إنّها بالتأكيد طريقته ليقول إنّّه فهم، أو، «لا عليك سأندبّر أمري». لكن بعيداً عن الخليّة أثناء انهماكه في العمل فإنّ النّحل لا يرقص. هنا لا بُدّ أنّ الشّعار هو، كلّ على حدة، هذا إذا كان النّحل فعلاً قادراً على تطوير مبدأ مماثل. الرّقص عبارة عن لوحات طيران، ولقد دَوّنتُ عدداً كبيراً منها مصحوباً بدلالاته المحتملة. لكن هناك مسألة الطّنين

46- التّسخير: تقرب العبد من ربّه بكل ما يملك حتّى نفسه.

واختلاف طابعها عند الاقتراب من الخلية ولدى الابتعاد عنها. من الصعب أن يكون ذلك محض صدفة. لاحظتُ في البداية أن كل لوحة يرافقها طنين خاص بها. لكن بعد ذلك صرفتُ النظر عن هذه الفرضية الرائعة. لأنني كنتُ أرى اللوحة نفسها أو ما أظن بأنها اللوحة نفسها. يرافقها طنين مختلف في كل مرة، حتى إنني استنتجتُ بأن الطنين لا يثبت اللوحة بل يضفي عليها معنى آخر. جمعتُ الكثير من الملاحظات حول هذا الموضوع، لكن لا نتيجة واحدة. إنما لا يشمل الأمر اللوحة والطين فحسب، بل حتى العلو الذي تُؤدّي معه الرقصة. وباتت لديّ قناعة أن اللوحة نفسها مصحوبة بالطين نفسه لا تعني من علوّ اثنتي عشرة قدماً الدلالة نفسها مما لو أداها النحل من علوّ ستّ فقط. لأنّ النحل لا يرقص من أيّ ارتفاع عشوائياً للنسبية. بل هناك ثلاثة أو أربعة مستويات لا تتغير، يرقص النحل وفقها. ماذا لو أطلعتمكم عن تلك المستويات والعلاقة التي تربط بعضها ببعض لأنني قستها بدقة. لا تصدّقونني؟ إلا أنه ليس الوقت المناسب لأحيط نفسي بالشكوك. يُقال أحياناً إنني أكتب للجمهور، ورغم العمل الجبار الذي كرّسته لهذا الموضوع غير أنني لم أشعر بالذهول أكثر ممّا شعرتُ به أمام التعقيد الذي في هذه الرقصات، هذا عدا العوامل المتداخلة الأخرى التي ليست لديّ أدنى فكرة عنها. وأقول في نفسي بنشوة عارمة، ها هو ذا أمر يمكنني دراسته مدى حياتي دون أن أفهمه. وخلال رحلة العودة وأنا أتساءل عن سعادة صغيرة محتملة، فإنّ التفكير في نحلي ورقصاته هو ما وجدتُ فيه المواساة. ذاك أنني أولي اهتماماً للسعادة من وقت إلى آخر! كنتُ مسروراً أيضاً بشكل خاص لأنّ رقص نحلي ليس تافهاً ومفرغاً من المعنى كما هو الشأن بالنسبة إلى الرقص عند الغربيين، أما أنا فإنه أمر رائع دائماً أن أجلس لمراقبة الخلية وهي تأخذ حمام شمس، ليس رائعاً للنظر فحسب، بل أكثر من ذلك إنّ ما يمنحني إياه لا يمكن أن يُلطّخ منهجية تحليل الرّجل رغم أنفه الذي كتبه دائماً. ثم إنني لن أرتكب مع نحلي خطيئتي في حقّ الربّ الذي علّموني أن أمنحه غضبي وخوفي ورغباته وحتى جسدي.

تحدثتُ مع نفسي بنبرة من يسدي الأوامر، النصائح بالأحرى. سمعتُ صوتي ذاك للمرّة الأولى في رحلة العودة. لم أعره اهتماماً.

من الناحية الجسدية بات من الصعب التعرّف عليّ. وعندما أُمّر يديّ على وجهي بحركة ودّ، مفهومة أكثر من أيّ وقت مضى، فإنّه ليس الوجه نفسه الذي كانت تحتسسه يداي ولا هي اليدان نفساهما اللتان اعتادتان تحتس ملامسة هذا الوجه. غير أنّ الإحساس ظلّ هو نفسه في العمق، أقصد لا فرق بينه وبين إحساسي به عندما كنتُ أحلق وأنعطر وأملك يدي مثقف بيضاوين وبضتين. وهذا البطن الذي لا أتعرف عليه، يظلّ بطني في الأخير، بطني القديم، بفضل لا أدري أيّ حدس، ولأحسم استمررتُ في التعرّف على نفسي، بل صار لديّ إحساس صافٍ وبرّاق عن هويتي أكثر من ذي قبل رغم عاهاتها الحميمة والجروح التي تضرّجها. من هذا الجانب كنتُ وبشكل واضح أدنى ممّا أعرف. آسف إن كانت الجملة الأخيرة ليست مُصاغة بصورة جيّدة. لعلّها، من يدري، كانت تستحقّ أن لا تبدو ملتبسة. وهناك أيضاً الملابس. فقد كانت دائماً متناسقة مع جسمي. لقد كانا زوجاً متحدّاً لا يفترق أحدهما عن الآخر في وقت السّلم. لطالما أبديتُ ضعفاً إزاء الملابس رغم أنّي لم أكن يوماً رجلاً فائق الأناقة. لن أتذمّر من ملابسٍ فهي قويّة وقصتها جيّدة. كنتُ، وهذا لا يخفى، رجلاً غير مستور بشكل فعّال. لكن، خطأ من؟ لقد اضطررتُ إلى التخلّي عن قُبعة القشّ غير المجدية في الفصل الميت وعن جورَبَيّ (زوجين) اللذين أصبحا عدماً تافهاً بسبب البرد والرطوبة وساعات المشي الطويلة واستحالة غسلهما كما ينبغي. لكنّي خفّضتُ الحمالة والكيلوت إلى الحدّ الأقصى بفضل انتفاخه كما هو معلوم، لقد بلغتُ به الرّبلتين. ولشدة استعداد العقل لإقامة العلاقات فكّرتُ وأنا أرى اللحم الأزرق بين الكيلوت وقصبة حذائي في ابني وفي الضربة التي وجهتها إليه.

تصلّب حذائي بسبب الإهمال. إنّها وسيلة الجلد المدبوغ الميت ليدافع عن نفسه. الهواء يتجول بحرية مانعاً قدميّ من التجمّد. كنتُ أيضاً عند

ضرورة التخلص من سراويلي الداخلية (اثنين) للأسف. لقد فسد بسبب ملامستهما للحمي الفائض. أما الكيلوت فقد احترق من الداخل وأصبح يقطع الخطّ الرابط بين عصعصي وبين فتيل الخصيتين. ماذا كان يتوجب عليّ أن أرمي أيضاً؟ قميصي؟ لكنني كنتُ ألبسه مقلوباً، الداخل من الخارج. لئلاّ كان لديّ أربع طرق لارتداء القميص، أمام، أمام صحيحة. أمام، أمام مقلوبة. أمام، خلف صحيحة. أمام خلف مقلوبة. وفي اليوم الخامس أستأنف من البداية أفعل ذلك ليعيش القميص أكثر ما يمكن، هل جعلته يدوم؟ لا أدري. ربّما دام.

أن تولي اهتماماً بالتفاصيل الصغيرة يجعلك تسيطر على الكبيرة منها مع مرور الزمن. لكن ماذا عليّ أن أرمي أيضاً؟ ياقتي، رميْتُ بها حتّى قبل أن تصبح رثة. لكنني حافظتُ على ربطة العنق. بل بقيتُ ألبسها معقودة حول العنق بطيش، أعتقد. كانت مرقطة لكنني نسيْتُ لونها.

عندما يهطل المطر أو يسقط الثلج أو البرد، أجد نفسي في الورطة التالية، إمّا أن أواصل طريقي معتمداً على المطريّة أو أن أفتحها وأحتمي بها واقفاً. ورطة زائفة كما هو الشأن دائماً. فمن قبة المطريّة لم تبق سوى خرق مشدودة إلى الأسلاك وكان في وسعي أن أتابع تقدّمي ببطء شديد مُستخدماً المطريّة لا كعكاز أتوكأ عليه بل للوقاية.

لكنني اعتدتُ أن تكون مطريّتي عازلة ومن جهة أخرى عدم القدرة على السير دون سند. وهذا أبقى على الورطة.

كان في إمكاني طبعاً أن آخذ عصاً من أحد الأغصان وأواصل التقدّم رغم المطر والثلج والبرد معتمداً عليها ومحتمياً بمطريّتي المفتوحة فوق رأسي. لكنني لسبب أجهله لم أفعل. إنّما حين ينزل المطر والأشياء الأخرى التي تسقط علينا من السماء فإنّي أحافظ على تقدّمي متكئاً على المطريّة ومبلاً تماماً. على الأغلب أتوقّف. أفتح المطريّة فوقّي وأرقب حتّى تنتهي. حتّى بهذه الطريقة أتبلّل. لكنّ الإشكال لا يكمن هنا، ولو نزل المنّ<sup>(47)</sup> من

47- المنّ: طعام بني إسرائيل في الصحراء وقد اقترن بالسّلوى؛ المنّ والسّلوى.

السَّماء لا تنتظرتُ إلى حين يتوقَّف دون أن أغنم شيئاً. وبما أنَّ ذراعي كانت عاجزة عن الإمساك بالمطريرة فقد كنتُ أمسكها باليد الأخرى، وباليد الحرّة كنتُ أفرك وأضرب أجزاء جسمي التي يمكنها بلوغها حتّى أحافظ على دورة دمويّة فعّالة. أو إنّي أجول بها على وجهي بحركة خاصّة بي. وقمّة المطريرة كانت كإصبع. أفضلُ أفكارِي تخطر لي أثناء الاستراحات. وعندما يبدو لي أنَّ المطر إلخ... لن يتوقَّف لا في النهار ولا في الليل فإنّي أجعل من ذلك ذريعة لأصنع لنفسي مأوى حقيقياً. لكنّي لا أحبّ الملاجئ الحقيقيّة المُشيّدة بالأغصان. إذ بمرور الوقت لن يعود هناك أوراق تحميني عدا إبر الصنوبر. ليس هذا هو السبب الذي أكره لأجله الملاجئ الحقيقيّة. لا بل لأنّي داخل المأوى سأفكر دون هوادة في معطف ابني. أراه بوضوح (المعطف) لا أرى سواه، إنّه يملأ المكان. في الواقع كان ما يسمّيه أصدقاؤنا الإنجليز (ترنش كُوث)، أشمّ عليه رائحة المطاط وإن كانت (الترنش كُوث) غير مصنوعة من المطاط عادة، لذا كنتُ دائماً أجتنب المأوى الحقيقيّ المُشيّد بالأغصان، بل أفضل الاحتماء بمطريّتي أو بشجرة أو سياج أو دغل أو أنقاض.

أمّا اتّخاذ الطريق الرئيس لعلّ عربة تقلّني فهذا ما لم يخطر لي أبداً. بالنسبة إلى طلب المساعدة من إحدى القرى فلا أظنّ أنَّ الفكرة كانت ستعجبني لو خطرت لي.

عدتُ إلى بيتي بالخمسة عشر شلن كما هي. لا لقد أنفقتُ اثنين منها في الظروف التالية، كان عليّ أن أتحمّل تعرّضي لتعنيف من نوع آخر، أعمالاً وقحة أخرى سلّطت عليّ، لكنّي لن أروّيها. لنكتفٍ بالنماذج فقط. سيكون عليّ أن أتحمّل المزيد منها في المستقبل، لستُ متأكّداً. لا أحد يعلم.

كان ذلك ذات مساء. كنتُ تحت مطريّتي أنتظر بسلام أن يصحو الجو حين دفعني أحدهم من الخلف بعنف. لم أسمع شيئاً. كنتُ وحيداً في مكان معزول، يد جعلتني أستدير. كان مزارعاً أرجوانيّ اللّون. كان يرتدي مُشمّعاً، وقبّعة مستديرة وجزمة. وجتاه تسيلان وقطرات ماء تنزل من شاربيه الكبيرين. لكن مهلاً، لِمَ قد تصلحُ تفاصيل كهذه. تبادلنا النظرات بحقد.

ربما كان الرجل نفسه الذي اقترح أن يقلّني وابني في سيارته. لا أظنّ. بيد أن ملامحه كانت مألوفة لديّ. ليس وجهه فحسب. كان يحمل فانوساً مطفاً في يده يمكنه إضاءته في أي لحظة. في يده الأخرى كان يمسك معجرفة. لدفني. أمسك بباطن سترتي. لم يشرع في هزّي مباشرة، بل فعل حين ارتأى أن ذلك مناسب. شتمني. تساءلتُ ما الذي اقترفته كي أثير لديه هذا الكَمّ من النعمة. رفعتُ حاجبيّ. لكنني دائماً أرفع حاجبيّ فهما ملتصقان بفروة رأسي تقريباً، لأنّ جبهتي عبارة عن خطوط وطيّات متداخلة. فهمتُ أخيراً أنّي لستُ في بيتي. أنا في أرضه. ماذا كنتُ أفعلُ في أرضه؟ إن كان هناك سؤال أخشاه ولا أجد له إجابة أبداً فهو بالتأكيد هذا. فوق أرض الغير! ليلاً! في جو لا تخرج فيه الكلاب! إلّا أنّي لم أفقد برودة أعصابي. إنّها أمنية، قلت. أصدر صوتاً مميزاً لو شئت. لا بُدّ أن صوتي أدهشه. حرّرتني. حجّ، قلت ممعناً في هزيمته. سألني، أين؟ لقد انتصرتُ. إلى عذراء «شيت»، قلت. عذراء «شيت»؟ قال كما لو أنّه يعرف «شيت» مثل جيبه وأنّ «شيت» ليس فيها نصبٌ للعذراء. لكن هل ثمة مكان ليس فيه نصب للعذراء؟ نعم، قلت. السّوداء، قال ليؤيدني. لا أعرف عذراء بهذا اللّون القاتم، قلت. أحدٌ غيري كان سيسقط في الفخ، ليس أنا. أعرف نقاط ضعف فتتي. لن تصل، قال. أنا أدين لها بفقدان ابني وحفاظي على أمي. مشاعر كهذه لا يمكنها إلّا أن تروق لمربّي أبكار. لو درى بالأمّر! رويّتُ له ما لم يقع للأسف. لا لستُ آسفاً على «نيات»، فربّما هي من يأسف عليّ. على كل ثمة حسرة. إنّها عذراء النّساء الحوامل، قلت. نساء متزوجات حوامل، لقد أقسمتُ على أن أشدّ إليها الرّحال ببؤس حتّى أصل إلى كوخها لأعبر لها عن عرفاني. تلك الواقعة تصلح كي تظهر المهارات التي كنتُ أتمتّع بها في تلك الفترة. لكنّ لعلّي بالغتُ لأنّ عينيه زاغتا وساءت نظرتهما. أيمكنني أن أطلب منك خدمة؟ قلت، وسيكافئك عليها الرّب، أضفت. أن تطلب معروفاً من شخص يوشك على قتلك، هذا يؤدّي عادة إلى نتائج طيِّبة. القليل من الشاي الساخن، قلتُ متوسّلاً، دون حليب ودون سكر، لعلّه يعيد إليّ قوّتي. أن تقدّم خدمة كهذه لحاج معجون كالمرّبي لا بُدّ أنّه أمر مغرٍ. حسناً تعالَ معي إلى منزلي لتجفّف نفسك. لا يمكنني، لا

يمكنني، صرخت، لقد أقسمتُ على أن أواصل طريقي إليها في خطٍّ مستقيم. ولكي أزيل الانطباع السيئ المحتمل الذي قد يراوده عني، أدخلتُ يدي إلى جيبِي وقدمتُ له فلورانا<sup>(48)</sup>. لأجل مساكينك، قلت. المسافة بعيدة، قال. سيرافقك الرب، قلت. فكّر. ثمّة ما يدعو. لا أريد طعاماً، أوه، إلّا الطّعام، قلت، لا يجب أن أكل شيئاً. آه، «موران» العجوز الماكر كثعبان. كنتُ طبعاً سأختار القوّة، لكنّي لم أتجرأ على المخاطرة. ابتعد آملاً أن أبقى في انتظاره. لم تكن لديّ فكرة عن نواياه. عندما بدا لي أنّه صار بعيداً، أغلقتُ المطرّية ورحلتُ في الاتجاه المعاكس عبر مسلك متعامد مع الطريق الصحيحة. تحت مطر عنيف. هكذا أنفقتُ فلورانا.

الآن عليّ أن أختِم.

مشيتُ بمحاذاة المقبرة. كان ليلاً. منتصف الليل ربّما. الطريق صاعدة، كنتُ أمشط المكان. ريح ضعيفة تدفع السّحب في سماء مُضاءة بالكاد. كم هو رائع أن يتنازل المرء مدى الحياة. أمر جميل حقاً. طبعاً في صورة ما إذا كان مدى الحياة لا يُكرّس إلّا لأمر واحد فقط.

وصلتُ أمام البوّابة. كانت موصدة بالمفتاح، عينُ الصّواب. لكنّي لن أتمكن من فتحه. يدخل المفتاح في الثقب ولا يدور. هل سُحب من تحتي البساط؟ قفل جديد؟ اقتحمته. تراجعت إلى الضّفة الأخرى للطريق واندفعتُ بقوّة نحوه. دخلتُ إلى بيتي كما طلب منّي «يودي». لقد نجحتُ. ما هذه الرائحة الزكيّة؟ اللّيلك؟ أزهار الربيع ربّما. رُحْتُ إلى خلايا النّحل. كانت هناك كما خشيت. انتزعت غطاء إحداها ووضعتُه على الأرض. سقف صغير قمّته حادّة مع انحدار مفاجئ وطاقف. أدخلتُ يدي في الخليّة. أجلتها عبر الفراغات والقاع. اعترضتها كرة إسفنجية جافّة. تفتّتت لدى ملامسة أصابعي. لقد اجتمع النّحل عنقودياً لدفع أكبر، مُحاولاً الدّخول في سبات. أخرجتُ حفنة. كانت الرّؤية أشدّ من أن تسمح بالرّؤية فوضعتها في جيبِي. لا تزن شيئاً. لقد ترك في الخارج طوال فصل الشّتاء. جنوا العسل ولم يقدّموا

48 - فلورانا: قطعة نقدية نمساوية، صُكّت من الذهب واستبدلت سنة 1867 بالكورونه.

للنحل السكر. نعم، الآن يمكنني أن أختم. لن أذهب إلى الحظيرة، لا بُدَّ أن الدجاج مَيّت أيضاً. أعرف ذلك. ربّما قتلوا الدجاج بطريقة مُعيّنة لا تشبه تلك التي ماتت بها الدّجاجة الرمادية. لقد أهملتُ نحلي ودجاجي. اتّجهتُ إلى البيت. كان غارقاً في العتمة. الباب مغلق بالمفتاح. اقتحمته. ربّما كان في إمكاني فتحه بأحد مفاتيحي. أدركتُ المُحوّل الكهربائي. لا ضوء. ذهبت إلى المطبخ وإلى غرفة «مارتا». لا أحد. فقط حكايات كثيرة، كان البيت مهملاً. الشّركة قطعت الكهرباء. أرادوا منحي إِيّاه ثانية لكنّي رفضت. هكذا أصبحت. عدتُ إلى الحديقة. غداً أتملّى حفنة النّحل جيّداً. مسحوق أجنحة وقرون استشعار. وجدتُ مراسلات تحت السّلم في الصّندوق. رسالة من «سافوري». ابني بخير. أمر مفروغ منه. لن نتحدّث عن هذا الشّخص. لقد عاد، وهو نائم الآن. رسالة من «يودي» مكتوبة بضمير الغائب. يطلب تقريراً. سيصله تقريره. إنّه الصّيف مرّة أخرى. مضت سنة على رحيلي. في يوم زارني «جابر». جاء لأجل التقرير. هه. اعتقدتُ أنّ اللقاءات والخطابات قد انتهت. عد يوماً آخر، قلت. وزارني الأب «أمبرواز» أيضاً. أيعقل! قال وهو يراني. لطالما وثقتُ في أنّه يحبّني على طريقته. قلتُ له بأن لا يعول عليّ مستقبلاً. بدأ يخطب. كان مُحقّقاً. هل ثمة من هو غير محقّق؟ افترقنا. رحلتُ. ربما التقيتُ مولوي يوماً. ركبتني ليست على ما يُرام. حالتها ليست أسوأ. صار لي عكّازان الآن. بتُّ أنقذم بشكل أنجع. علمتُ أنّ الطّقس سيتحسن. بعثُ كل ما يمكن بيعه. كانت لديّ ديون متراكمة. لن أتحمل فكرة آتي إنسان ولن أحاول تحمّل ذلك. لن أضيّء هذه اللّلمبة. سأنفخ فيها وسأذهب إلى الحديقة. استحضرتُ أيّام ماي وجوان الطويلة التي أعيشها في الحديقة. يوماً ما سأتحدّث مع «حنّا»، ستخبرني بأحوال «زولو» والأخوات «السنر». تعرفني ولا تخاف مني. لا تخرج أبداً، فهي تكره الخروج. تحدّثني من خلال نافذتها. الأنباء كانت سيّئة. ليست كلّها. كان هناك الجيّد. أيّام جميلة. كان شتاءً قاسياً بشكل استثنائيّ. الجميع يتحدّث عن ذلك. صيف رائع مُستحقّ. لا أدري إن كنّا نستحقّه فعلاً. لم يقتلوا طيورني لأنّها بريّة وواثقة من نفسها! تعرّفتُ عليها وعرفني. لكن من يدري لعلّ هناك من فُقد ومن

ازداد. حاولتُ فهم لغتها على نحو أفضل دون اللجوء إلى لغتي. إنها الأيام الأطول والأجمل في السنة. عشتُ خلالها في الحديقة وكنتُ أتكلّم بصوت يقول لي كذا وكذا. في تلك الفترة كنتُ قد بدأتُ أنسجم معها وأفهم ما تريد قوله. لم تكن تستخدم الكلمات التي لقّنها إلى الصّغير «موران» الذي علّمها بدوره لصغيره. في البداية لم أعرف القصد منها. ثم انتهى بي الأمر إلى فهم تلك اللّغة. فهمتها وأستمّر في فهمها. معكوسة ربّما. ليس هذا هو الإشكال. الصّوت هو الذي طلب منّي التقرير. هل يعني هذا أنّي حرٌّ الآن؟ لا أدري. سأعرف ذلك. لذا دخلتُ البيت وكتبتُ، إنّه منتصف الليل. حبات المطر تجلّد زجاج النافذة.

لم يكن منتصف اللّيل ولم تكن تُمطر.

مكتبة

t.me/t\_pdf

مولوي هو بطل رواية ساخرة أريد له أن يكون سهما  
 مؤجها نحو المهزلة البشرية، وأداء لا ترحم للهزئ من  
 نتائج التراكم الإنساني وحتى الغوي. مُعرضا بذلك  
 الكلمات لنقيض القيمة التي تدعيها. ما يهم فقط بالنسبة  
 إليه هو أن يراقب نفسه وأن يصفها ببراءة في كل ما يمر  
 بها من أحوال وأهوال، براءة مرتبطة بحتمة إقصائه،  
 والتي تُسائل خلف هذا المفهوم النظام الاجتماعي  
 برمته. مولوي هو المتبوء الكامل الذي لا تترك طريقة  
 تصويره العبقرية المجال لفرضية أن لا ينتبه القارئ إلى  
 ذلك. لكن الأشياء لا تقف عند هذا الحد، فبتأمله من  
 الداخل سيبدو معين إلهام من الصعب أن ينضب أو  
 تُسك به كلمة واحدة. نراه محكوما بتحليل تدريجي  
 مُطرد فلا نملك إلا أن يلوح لنا بأننا إزاء كاريكاتير  
 صارخ للمصير المحتوم لكل إنسان.  
 \* (جون جاك مايو: ناقد أدبي وأستاذ دُرس  
 بجامعة السوربون)

مولوي هو المفترق حيث يلتقي؛ شكسبير «نكون أو  
 لا نكون هذا هو الإشكال»، شارل جوليات «لا يسعنا  
 الجزم في شيء»، ليس أمامنا سوى الانتقال من سؤال  
 إلى آخر، «سيوران» ما لا يكتمل هو مهمة المترددين،  
 وإلياد «على المنفى أن يكون قادرا على ولوج المعاني  
 الخفية للتجوال وفهمها بوصفها التجارب الأولى التي  
 تقود إلى المركز».

\* (جون سيريل جودفري: ناشر وناقد الفرنسي  
 ورئيس تحرير الأسبوعية La Grosse Bertha)



مكتبة نوبل